المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم
اهداء:-
إلى القلبِ المُتْعَبِ الذي يَبْحَثُ عَن السّكِينَة،
وَإلى العَقلِ الحَائِرِ الذي يَتُوقُ إلى البَصِيرَة،
وَإلى الرُوحِ الظّامِئَةِ التي تلتَمِسُ نبْعَ اليَقِين...

هَذا الكِتَابُ لَيْسَ تفْسِيرًا تقْلِيدِيًا يُضَافُ إلى مَكتَبَتِك،
بَلْ هُوَ دَعْوَةٌ لِتَعِيشَ سُورَةً كامِلَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ بِلحْمِكَ وَدَمِكَ.
دَعْوَةٌ لِتَقِفَ عَلى أعْتَابِ "سَبَأ" لا كمُتَفَرّج، بَلْ كبَطَلٍ في مَشْهَدِ الصِرَاعِ الأزَلِيّ بَيْنَ الحَقّ وَالبَاطِل.

أيُهَا القارِئُ الكرِيمُ:
إنّنَا لمْ نكْتُبْ هَذِهِ الصّفحَاتِ لِنَشْرَحَ لكَ المَعَانِيَ فَحَسْبُ،
بَلْ لِنَأخُذَ بِيَدِكَ إلى عَالمٍ تصِيرُ فِيهِ "جَنّتَا سَبَأ" مِرآةً لِنِعَمِكَ التي ألِفتَهَا،
وَيُصْبِحُ "سَيْلُ العَرِمِ" إنْذَارًا لكَ مِنْ زَوَالِ النِعَمِ بِسَبَبِ العَقْلَة،
وَيَتَحَوّلُ "مِشْوَارُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ" إلى بَوْصَلَةٍ لِتَوْحِيدِ الرُوحِ وَالمَادّةِ فِي حَيَاتِك،
وَتصِيرُ "مُحَاجّةُ المَلَائِكةِ يَوْمَ القِيَامَةِ" صَرْخَةً تحَرّرُكَ مِنْ كلّ عُبُودِيّةٍ لِغَيْرِ الله،
وَيَعْدُو أمْرُ اللهِ لكَ "أنْ تقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثمّ تتَفَكرُوا" أعْظَمَ مَنْهَجٍ لِلتّفْكِيرِ وَالتّدَبُرِ.

فَإنْ كنْتَ تبْحَثُ عَنْ:

· طرِيقٍ لِتَحْوِيلِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ مِنْ عَادَةٍ إلى عِبَادَةٍ...
· مِفْتَاحٍ لِفَهْمِ كيْفَ تكُونُ النِعَمُ اسْتِدْرَاجًا، وَالمِحَنُ رَحْمَةً...
· نمُوذَجٍ عَمَلِيّ لِلجَمْعِ بَيْنَ حِرْفَةِ اليَدِ وَخَشْيَةِ القلبِ...
· خَرِيطَةٍ لِمُوَاجَهَةِ الشُبُهَاتِ الفِكرِيّةِ وَالإعْلَامِيّةِ بِثِقَةِ المُؤْمِن...

فَهَذَا الكِتَابُ كتِبَ لِأجْلِكَ أنْتَ
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش.

بسم الله الرحمن الرحيم
بطاقة تعريفية بكتاب "المفاهيم القرآنية من سورة سبأ"

.1جوهر ومحتوى الكتاب

الكتاب دراسة تدبرية تحليلية شاملة لسورة سبأ كاملة .لا يقتصر على التفسير النظري، بل يتعمق في استنباط المفاهيم القرآنية الكبرى) كالملك، والعلم، والبعث، والجزاء، والشكر، والتوحيد، واليقين (وربطها بواقع القارئ وحياته اليومية .يعرض نماذج متقابلة) داود وسليمان مقابل قوم سبأ وإبليس (لاستخلا ص سنن النجاة والهلاك.

.2أهداف وأغراض المؤلف

· إحياء منهج التدبر: تجاوز التفسير السطحي إلى المعايشة القلبية والعملية للآيات.
· ربط الإيمان بالحياة: تحويل المفاهيم القرآنية إلى منهج للتعامل مع المال، والشكر، والحوار، والجزاء.
· تقوية اليقين: عبر التأمل في آيات البعث والقدرة والعلم الإلهي.
· تقديم منهج متكامل للتربية: يجمع بين العقيدة والسلوك، والروح والمادة، مستندًا إلى النماذج القرآنية) داود، سليمان.(
· تصحيح المفاهيم الخاطئة: مثل تقديس المال، أو الاستسلام للخرافة، أو تبرير الجهل بالتقليد.

.3أسلوب الكاتب ومنهجه البياني

· المنهج التحليلي التكاملي: يمزج بين التفسير البياني) بلاغة المفردات واللمسات القرآنية(، والتربوي)استخراج الرسائل النفسية والعملية(، والعقدي) ترسيخ التوحيد والبعث.(
· أسلوب الدعوة القلبية: يخاطب القارئ مباشرة) "أيها القلب المتطلع"، "تعال بنا لنقف" (مما يخلق رابطًا وجدانيًا.
· ضرب الأمثلة المعاصرة: يقرّب المعاني المجردة بأمثلة من واقع الحياة) الموظف، الطبيب، الإنترنت، النظم الاقتصادية.(
· استخدام أدوات التدبر: أسئلة تأملية، تطبيقات عملية في نهاية كل مقطع.

.4ما يمتاز به هذا الكتاب عن غيره من التفاسير

· التوازن بين العقل والروح: لا يغرق في التفريعات الفقهية أو اللغوية البحتة، بل يجعل من بيان اللغة وسيلة للتزكية والتربية.
· التركيز على "فقه الابتلاءات": يقدم منهجًا متكاملا ً للتعامل مع الفقر والغنى والشكر والصبر كركائز أساسية في السورة.
· الطابع الحضاري: يربط المفاهيم ببناء الإنسان والمجتمع ودولة التوحيد، مما يجعل التفسير دليلًا للإ صلاح الحضاري.
· التفاعل المباشر مع النص: يحوّل القارئ من متلقٍ سلبي إلى مشاهد حي لأحداث السورة، وكأنها تجري أمامه.

.5الهيكل التنظيمي للكتاب وأبعاده

ينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام رئيسية، كل منها يحتوي على عدة مباحث:

· القسم الأول: مداخل العقيدة والإيمان) آيات الملك والعلم والبعث والجزاء (مثل: خريطة الطريق، وموقف أهل العلم، ومشهد موت سليمان.
· القسم الثاني: قصة سبأ وسنن الحضارات) الشكر والبطر، الأمن والترف (مثل: نموذج الجاحدين، التحذير من بطر النعمة، وقانون تبديل الأحوال.
· القسم الثالث: مشاهد القيامة وفضح الشرك) مشهد حشر المعبودين، تبرؤ الملائكة، مصير المستكبرين والمستضعفين.(
· القسم الرابع: منهج الدعوة وبناء المصلح) مواجهة الإعلام المضلل، أدوات الإقناع، شروط الداعية، خواتيم السورة.(

.6المستهدفون من الكتاب

· عموم المسلمين: الباحثين عن فهم أعمق للقرآن يلامس حياتهم ومشاعرهم.
· الدعاة والمربون: لاستقاء منهج تربوي متكامل من سورة واحدة.
· طلاب العلم الشرعي: للاطلاع على نموذج للدراسة الموضوعية والتحليلية للسور القرآنية.
· المتأثرون بالشبهات: يجدون فيه ردودًا عقلية ووجدانية على شبهات المشركين.

.7لماذا يجب أن تقرأ هذا الكتاب؟

· لتتذوق البيان القرآني: تفهم لماذا قال الله كلمة "يلج" ولم يقل "يدخل"، وتعيش جمال النظم.
· لتعالج الغفلة: تشعر أن آيات الكتاب تخاطب واقعك وتشخص أدواءك) الغفلة، حب المال، الخوف من المستقبل.(
· لتحصّل اليقين: تخرج من دوامة الشك والقلق إلى سكينة الإيمان بالبعث والجزاء.
· لتحوّل حياتك إلى عبادة: تتعلم كيف تجعل عملك ودراستك وبيتك "محرابًا" و"صنعة" متقنة ترضي الله.

.8ثمار هذا الكتاب

· تحقيق التوازن النفسي: عبر منهج الخوف والرجاء، والروح والمادة.
· ترسيخ عقيدة التوحيد والبعد عن الشرك الخفي والجلي.
· اكتساب مهارات التدبر: بحيث تتمكن من قراءة أي سورة بهذه العقلية التحليلية.
· فهم السنن الإلهية: في قيام الحضارات وسقوطها، وتطبيقها على واقع الأمة.

.9خاتمة

هذا الكتاب ليس مجرد شرح لسورة سبأ، بل هو رحلة إيمانية كاملة "من المفاهيم إلى التطبيق، ومن التلاوة إلى التزكية" .إنه يفتح أعين القارئ على أن القرآن خطاب حي مباشر له، يوجه خطواته، ويبني عقله، ويحيي قلبه .إنه دليل عملي لكل من يريد أن يعيش مع القرآن وليس فقط أن يقرأه المحامى احمد عبد الرزاق مربوش.

بسم الله الرحمن الرحيم

بطاقة تعريفية بسورة سبأ

.1عدد آيات السورة

عدد آياتها 54 آية في جميع الأعداد المعتمدة) الكوفي، البصري، المدني، وغيرهم.(

.2مكان نزولها

مكية بالإجماع .نزلت في مكة المكرمة قبل الهجرة، في الفترة التي كان فيها النبي ﷺ والمؤمنون يواجهون عناد المشركين واستكبارهم.

.3ترتيب السورة

· من حيث المصحف المُرتل) الرسمي(: السورة رقم34 ، وتقع في الجزء الثاني والعشرين.
· من حيث النزول: هي السورة رقم 58 في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر.

.4الأجواء التي نزلت فيها السورة

نزلت السورة في أجواء اشتداد الأذى والاستكبار من قِبل كفار قريش .كان المشركون يرددون شبهات معينة لصد الناس عن دعوة التوحيد، أبرزها:

· إنكار البعث: والاستهزاء بفكرة الحساب بعد الموت، معتمدين على قياسهم المادي الفاسد) أنهم أكثر أموالا ً وأولادا فهم أهل نعيم.(
· التشويه الإعلامي للنبي ﷺ: باتهامه بالجنون تارة، وبالسحر والكذب تارة أخرى، لمنع الناس من سماع القرآن.
جاءت السورة لتثبيت النبي ﷺ والمؤمنين، ولفضح هشاشة حجج المشركين النفسية والفكرية.

.5التناسب بين افتتاحية السورة وما اختتمت به سورة الأحزاب

يُظهر التناسب ترابطاً عجيباً يشهد بوحدة النظم القرآني:

· خُتمت الأحزاب بتبكيت المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وتهديدهم بأنهم) ثمّ لا يُجَاوِرُونكَ فِيهَا إلا قلِيلًا(، وأنهم ملعونون أينما ثقفوا.
· افتُتحت سبأ بإعلان الحمد لله) الحَمْدُ لِلهِ الذي لهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ(، وكأنها تبدأ من نهاية الأحزاب: لقد هددناهم، وها هو الحمد يتحقق فعلا ً باستئصال شأفتهم وزوال باطلهم، لأن الملك لله وحده.

.6التناسب بين افتتاحية السورة وما اختتمت به

يُشكل هذا التناسب خلاصة رسالة السورة بأكملها:

· البداية: بدأت بـ إثبات مطلق ملك الله) لهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (و إثبات علمه المحيط)يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ (...ليكون ذلك دليلا ً على قدرته على البعث.
· النهاية: اختتمت بمشهد تحقق البعث بالفعل) وَلَوْ ترَى إذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ (وحيلولة الله بين الكافرين وما يشتهون من نجاة أو عودة للدنيا.
· الرابط الجوهري: وكأن السورة تقول: بما أن الملك لله والعلم لله، فقد وقع البعث لا محالة .الدعوى في البداية، والدليل عليها في النهاية.

.7خصائص السورة وفضائلها

· خاصية "المحاكمة العقلية": لا تترك شعيرة من شعائر الإيمان إلا وتقيم عليها أدلة عقلية وفطرية محسوسة) دليل العلم، دليل المُلك، دليل التاريخ.(
· خاصية كشف المنهج النبوي في الدعوة: تقدم نموذجاً متكاملا ً لأسلوب النبي ﷺ في الحوار؛ من

التحدي القوي) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ (إلى الإنصاف والحوار الهادئ) وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.(
· خاصية "سنن الحضارات": تنفرد بعرض مفصل ومركز لسنة إلهية مطردة وهي "قانون الشكر وبطر النعمة" من خلال قصة سبأ، مما يجعلها دستوراً للأمم.

.8ما انفردت به السورة

· قصة سبأ والسد العظيم: هي السورة الوحيدة التي ورد فيها ذكر قوم سبأ، وسد مأرب، وجنتيهم، وتبديل نعمتهم بسبب إعراضهم عن الشكر.
· مشهد وفاة سليمان ﷺ: الانفراد بذكر كيفية موت سليمان عليه السلام وإخفاء الجن لموته حتى أكلت دابة الأرض منسأته، ليتبين كذب الكهنة والعرافين.
· مزيج الحمد الإلهي: الانفراد بالجمع بين الحمد في الدنيا والآخرة في آية واحدة هي الأولى في السورة.

.9أغراض السورة وأهدافها

· تثبيت عقيدة البعث والجزاء: عبر تقديم أدلة متنوعة) العلم، والملك، والتاريخ، والمشاهدة (وربطها برحمة الله وحكمته.
· إبطال الشرك وتنقية التوحيد: عبر مواجهة المشركين في معبوداتهم) الملائكة والجن والأصنام (وإقامة الحجة عليهم في الدنيا والآخرة.
· تزكية النبي ﷺ والرد على افتراءات المشركين : إثبات أن ما جاء به هو الحق، وأن التهم الموجهة إليه هي ذاتها التي وُجهت للرسل من قبله.
· بيان سنن الله في المجتمعات: توضيح أن سبب هلاك الأمم هو البطر والكفر والجدل بالباطل، لا مجرد القوة المادية.

.10أهم المواضيع التي تتحدث عنها السورة

.1الحمد المطلق لله على ملكه وعلمه) الآيات1 -.(2
.2إثبات البعث وربطه بعلم الله المحيط وقدرته) الآيات3 -.(5
.3موقف أهل العلم من القرآن وكونه الحق) الآية.(6
.4نماذج الشكر العملي) داود وسليمان (وتسخير الكائنات لهما) الآيات10 -.(14
.5قصة سبأ كنموذج للكفران بالشكر وتبدل النعم) الآيات15 -.(19
.6فضح حيل إبليس وعلاقته بالشرك) الآيتان20 -.(21
.7المحاجّة مع المشركين حول حقيقة آلهتهم وادعاءاتهم) الآيات22 -.(27
.8عالمية الرسالة المحمدية) الآية.(28
.9تصحيح معايير القيمة) الغنى والفقر) (الآيات34 -.(37
.10مشاهد يوم القيامة وفضح الشركاء) الآيات40 -42،51 -.(54
.11منهج الدعوة القائم على الحجة والإقناع لا الإكراه) الآيات46 -.(50

.11مقاصد السورة

المقصد الكلي للسورة هو: إثبات كمال صفات الله) الملك، والعلم، والقدرة (لتقرير حقيقة البعث والجزاء توطئة لتوحيده بالعبادة .وتتفرع عن ذلك مقاصد جزئية:

· مقصد التطهير: تمحيص التوحيد من شوائب الشرك والشفاعات الباطلة.
· مقصد التزكية: تربية الإنسان على الشكر والصبر والإتقان.
· مقصد التثبيت: تثبيت فؤاد النبي ﷺ على الحق، وتثبيت المؤمنين خلفه بمنهج عقدي راسخ.

بسم الله الرحمن الرحيم،
المقطع الاول
اولا

أيها القارئ الكريم، قف معي لحظة، ودع قلبك يخفق بخشوع، وعقلك يجول متدبراً، ووجدانك يشتعل شوقاً ونحن نفتح معاً صفحة من أعظم صفحات القرآن، ونعيش في رحاب آية كريمة هي مفتاح سورة عظيمة، ألا وهي قول الله تبارك وتعالى في مطلع سورة سبأ: ﴿الحَمْدُ لِلهِ الذي لهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾. هذه الآية ليست مجرد كلمات نتلوها، بل هي دستور حياة، ومنظومة فكرية ووجدانية متكاملة، تريد أن تعيد صياغة إدراكك للوجود كله.

تخيل أنك واقف على أعتاب قصر ملكي مهيب، وقبل أن تدخله، يُقرأ عليك إعلان ملكيته، وتاريخه، ونظام حكمه، لتتهيأ نفسك وتستعد روحك .هكذا بالضبط، أراد الله -جل جلاله- أن يفتتح لك هذه السورة، ليعلن لك عن ملكه المطلق، وليزرع في قلبك الطمأنينة واليقين قبل أن يخوض في تفاصيل قصص الأمم وعقائدهم.

مقاصد السورة والأفكار الرئيسية للآية:

سورة سبأ هي سورة مكية، تدور حول غرضين رئيسيين: إبطال قواعد الشرك بالله، وإثبات حقيقة البعث والجزاء .وهي بهذا الافتتاح البديع تضع حجر الأساس لهذين الغرضين، فإذا كان لله ملك كل شيء، فكيف يُعبد غيره؟ وإذا كان له الحمد في الآخرة، فكيف لا يكون هناك آخرة وحساب؟

تقوم الآية الأولى على أربعة أركان عظيمة، سنقف عند كل ركن منها لنستخرج كنوزه ودرره.
الامر الاول: لماذا افتتحت السورة بـ "الحمد لله"؟
الدلالة والرسالة:

عندما تسمع قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ لِلهِ﴾، فلا تظن أنها مجرد كلمة استفتاح .إنها إعلان عظيم، وثورة على كل تصورات الجاهلية .فـ "الحمد" في لغة العرب هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، وهو أعم وأشمل من الشكر، فالشكر يكون مقابل نعمة، أما الحمد فيكون على النعمة وعلى الصفات الذاتية للكمال والجلال.

· لماذا بدأ الله بالحمد والثناء؟
بدأ الله السورة بالحمد ليبين لنا أن العبرة ليست بكثرة النعم التي نتقلب فيها، بل بمن هو مصدر هذه النعم .إنه افتتاح تعليمي، يعلمنا أن نبدأ كل أمورنا بحمده، لأنه "الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك" .فالبدء بـ الحمد هنا هو بمثابة إعلان أن كل ما سيأتي في السورة من دلائل وبراهين هو تابع لهذه الحقيقة الكبرى: استحقاقه للثناء المطلق.
· ما أهمية الحمد في سياق الآية؟
تكمن أهمية الحمد هنا في كونه الرابط بين العبد وربه، فهو ليس مجرد شعيرة، بل هو المنطق الذي يقوم عليه الكون .يقول ابن عاشور في تفسيره: "افتتحت السورة بـ}الحمد لله {للتنبيه على أن السورة تتضمن من دلائل تفرده بالإ ِلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له والإ ِخبار باختصاصه به" .فالحمد هنا هو مفتاح العقلية الإيمانية؛ عندما تحمد الله فأنت تعترف بجميله وكماله، وهذا الاعتراف هو أول خطوة في طريق العبودية الخالصة .هو زرعٌ للامتنان في تربة القلب، والامتنان هو أخصب أرضية تنبت فيها سعادة الإنسان ورضاه.
الامر الثاني: اقتران الحمد بالملكية الشاملة) لهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

انظر كيف يتجلى الإعجاز في هذا النظم القرآني الفريد .عندما تقرأ ﴿لهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، تشعر وكأن صورة الكون كله قد طويت بين كفيك.

· دلالة الاقتران واللمسة البيانية:
لماذا ربط الله حمده بملكه للكون؟ الجواب عظيم: لأن "مِلكه لما في السماوات وما في الأرض ملك حقيقي لأن سببه إيجادُ تلك المملوكات وذلك الإ ِيجادُ عمل جميل يستحق صاحبه الحمد" .إنه كمن

يقول لك: احمدني لأني مالك كل ما تراه وما لا تراه، مالك ذرة الغبار في الهواء، ومالك المجرة البعيدة في السماء .لا يوجد شيء في هذا الوجود يخرج عن ملكه .إنه تجريد كامل للملكية عن كل ما سواه، كما قال الطبري: "الشكر الكامل والحمد التام كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل ما يعبدونه، ودون كل شيء سواه".

· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

تأمل معي هذا المزيج البديع: أن تقرن في قلبك بين حمد الله وملكه المطلق .ماذا يحدث في داخلك؟

1. تحرير القلب من الخوف والطمع: إذا أيقنت أن الله يملك كل شيء، فممّ تخاف؟ إذا كان رزقك بيده، فلماذا تطمع في مخلوق ضعيف؟ هذا المفهوم يحررك من رق العبيد لغير الله، ويملؤك عزاً وكرامة .لقد أصبحت حراً لأنك تعبد المالك الحقيقي.

2. غرس الطمأنينة والسكينة: هذه الآية تبني جداراً منيعاً من السكينة حول قلبك .عندما تستحضر أن كل ما في الكون، من أصغر ذرة إلى أعظم ملك، هو ملك لله وحده، فإن هموم الدنيا وأزماتها تتصاغر .أزمتك المالية، مرضك، خوفك على مستقبلك ...كلها أمور بيد مالكها، الذي هو أرحم بك من أمك ."فلا أحد يملك مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، يستوي في انعدام الملكية أن يكون المخلوق ملكاً مقرباً أو نبياً كريماً أو جنياً من الصالحين، أو بشراً صالحاً أو كافراً، فكل شيء ملك الله ."

3. دعوة إلى التأمل العقلي: تدعوك الآية في صمت إلى رحلة عقلية .ارفع بصرك إلى السماء، وانظر إلى الأرض، وقل لنفسك: من صانع هذا كله؟ إنه عقيدة التوحيد التي تقدم نفسها للعقل، فالكون كله شاهد على أن له مالكاً واحداً لا شريك له.

الأمر الثالث: شمولية الحمد زماناً ومكانا(وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

الآن، وقد اطمأن قلبك لملك الله في الدنيا، تنقلك الآية نقلة أعظم إلى الآخرة، فتقول: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾.

· دلالة شمولية الملك والحمد وديمومته:

لقد أثبتت الآية أن حمده تعالى في الدنيا ناتج عن ملكه للكون .وهنا في الآخرة، "وهذا إنباء بأنه مالكُ الأمر كله في الآخرة" .الحمد ليس حكراً على الدنيا التي قد يشوبها غفلة أو شرك، بل هو حقيقة سرمدية تمتد إلى الآخرة، حيث لا ملك إلا له، ولا حمد إلا له.

· لماذا تم تخصيص الحمد في الآخرة؟

هنا تكمن اللمسة البيانية الباهرة، و"تقديم المجرور) لهُ (لإ ِفادة الحصر، أي لا حمد في الآخرة إلا له، فلا تتوجه النفوس إلى حمد غيره لأن الناس يومئذٍ في عالم الحق فلا تلتبس عليهم الصور" .في الدنيا، قد يغتر البعض ويحمدون غير الله على نعمة، أو ينسبون الفضل لأنفسهم .أما في الآخرة، فسينكشف الغطاء، وستعرف كل نفس ما قدمت، وسيكون الحمد لله وحده خالصاً .إنه مشهد كوني مهيب: أهل الجنة يحمدونه على نعيمه المتوالي، حتى إن "أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم".

· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

1. الأمل والبوصلة الأخلاقية: هذا المشهد الأخروي يزرع في قلب المؤمن بذرة الأمل، فيعمل للجنة التي يكون حمد الله فيها ألذ من كل نعيم .وفي الوقت نفسه، هو رادع أخلاقي، فأنت تعلم أن حمدك لربك أو غفلتك عنه سيكون له ثمن في ذلك اليوم.

2. الرضا بعدل الله: الآية تعلمنا التسليم بأن حكم الله هو الحق المبين .حتى أهل النار يحمدونه على عدله .هذا المفهوم يورث في النفس سكينة عجيبة، حتى في أحلك الظروف وأشدها ألماً، فأنت موقن بأن حكم الله هو عين الحكمة والعدل.

3. النظرة الشمولية للوجود: هذه الآية تخلق في ذهنك نظرة شمولية للوجود، فلا تفصل بين الدنيا والآخرة .الحياة في نظرك وحدة واحدة، تبدأ بحمد الله على ملكه ونعمه في الدنيا، وتنتهي بحمده في الآخرة .وهذه النظرة هي التي تمنح حياتك معنى وقيمة وهدفاً سامياً.

الامر الرابع: ختام الآية باسمي "الحكيم الخبير"

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن أقرت الآية عقيدة الملك والحمد، تختم بخاتمة تزيد القلب يقيناً: ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾.

· دلالة الاسمين وارتباطهما بما قبله:

"الحكيم": أي الذي يضع كل شيء في موضعه المناسب، فلا يحدث في ملكه شيء عبثاً ."حكيم في تدبيره خلقه وصرفه إياهم في تقديره".
"الخبير": أي العالم ببواطن الأمور ودقائقها، "الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء".
ارتباط الاسمين بما قبلهما بديع: هو المالك للكون كله) الحكيم(، وهو الذي يعلم ما فيه) الخبير(، وهو الذي يستحق الحمد في الأولى والآخرة .إنهما بمثابة الضمانة العملية لكل ما سبق .ملكه ليس ملكاً غاشماً، بل هو قائم على الحكمة والخبرة .تدبيره للكون ليس عشوائياً، بل هو وفق خطة محكمة من عالم بكل التفاصيل.
· اللمسات البيانية والرسائل التربوية:
1. السكينة في مواجهة القدر: عندما تواجه قدراً مؤلماً، فأنت بإيمانك بأن الله حكيم، تعلم أن وراء هذا الابتلاء حكمة قد تخفى عليك .وإيمانك بأنه خبير بحالك وضعفك واحتياجك، يجعلك موقناً أنه لن يضيعك .هذا المزيج من الحكمة والخبرة هو ترياق الهموم ودواء القلوب.
2. المراقبة الذاتية: إيمانك بأن الله خبير، أي عالم بسرك ونجواك، يزرع فيك جهاز مراقبة داخلي . فتراقب الله في خلواتك كما تراقبه في جلواتك .وهذا هو أساس صلاح الفرد والمجتمع.
3. الاتصاف بصفات الكمال: الله يحب أن يتصف عبده بصفاته .فالمؤمن يدعو ربه أن يرزقه الحكمة في القول والعمل، وأن يجعله خبيراً في مجاله، متقناً لعمله .فكما أن الله حكيم خبير، يجب على العبد أن يسعى لاكتساب الحكمة والمعرفة والخبرة في كل شؤون حياته.

الموضوع الأول:
علاقة الافتتاح بخاتمة سورة الأحزاب وحديث معاذ

لاحظ هذا التناسق العجيب في كتاب الله .ختمت سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ...﴾ الأحزاب: .(73 ثم جاءت سورة سبأ لتفتتح بالحمد لله .ما العلاقة ؟
العلاقة وثيقة جداً، فخاتمة الأحزاب تذكر بالعذاب، وسبأ تذكر بالحمد، "وهذه نعمة عظيمة تستوجب الحمد، وبالحمد افتتحت سورة سبأ" .فكأن الله يقول: لقد بينت لكم في خاتمة الأحزاب أن هناك عذاباً لمن يستحقه، وهنا في بداية سبأ أدعوكم إلى طريق النجاة من ذلك العذاب، وهو طريق الحمد والتوحيد.

وهذا يقودنا مباشرة إلى حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث سأله النبي صلى الله عليه وسلم: »يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ «قال: الله ورسوله أعلم .قال:» فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً.«
وهنا تتجلى الصورة كاملة:

· الآية الأولى من سبأ تبين حق الله على العباد، وهو الحمد والتوحيد والاعتراف له بالملك المطلق . "فهذه الافتتاحية تبين لنا لماذا نعبد الله؟ وفيها تجريد الملكية عن غير الله".
· حديث معاذ يبين حق العباد على الله، وهو أن من حقق ذلك التوحيد وحمده، فإن الله قد تكفل بأ لا يعذبه.

فالآية دعوة عملية لتحقيق حق الله علينا، والحديث بشارة بحقنا على الله، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ:» لا تبشرهم فيتكلوا«، أي لا تجعلوا هذه البشارة مدعاة للكسل والاعتماد على مجرد النطق بالشهادة دون عمل، بل هي دعوة لتحقيق التوحيد الخالص الذي يثمر الحمد والشكر و العمل الصالح.

الموضوع الثاني:
مفاهيم الآية في حياتنا العملية

والآن، كيف نحول هذه المعاني القرآنية العظيمة إلى برامج عملية في حياتنا اليومية؟

١.مفهوم "ثقافة الحمد الإيجابية الشاملة":

· ماذا تعني؟ هي أن تجعل "الحمد لله" أسلوب حياة، وليس مجرد كلمة تقال على اللسان .هي نظارة إيجابية ترتديها كل صباح، ترى بها نعم الله عليك في كل صغيرة وكبيرة .عندما تستيقظ، لا ترى السرير فقط، بل تحمد الله على نعمة الراحة .عندما تشرب الماء، لا تراه مجرد سائل، بل تحمد الله على نعمة الارتواء .هذه الثقافة "تفتح أبواب النعم، وتثبت الإيمان، وتجعل الإنسان راضياً بصفات الله

وأفعاله".
· كيف نفعلها في واقعنا؟
· جرد النعم: خصص دقيقة كل صباح لتعد نعم الله عليك التي قد لا تشعر بها: صحتك، سمعك، بصرك، بيتك، أهلك.
· الحمد في الشدة: عند حصول مكروه، قل: "الحمد لله على كل حال" .تذكر أن حمد الله في الشدة هو قمة اليقين بحكمته.
· لغة الامتنان: استبدل عباراتك السلبية بأخرى إيجابية .بدل "أنا متعب"، قل "الحمد لله الذي جعل في التعب أجراً" .بدل "عندي مشكلة"، قل "الحمد لله، هذا ابتلاء سيمر ويرفع درجاتي".

.٢مفهوم "اليقين بملكية الله لكل شيء":

· ماذا يعني؟ يعني أن توقن يقيناً جازماً أن كل ما في يدك، من مال، أو جاه، أو سلطة، أو أبناء، ليس ملكاً لك، بل هو عارية من الله، استخلفك فيها ليرى كيف تعمل.
· كيف نفعل هذا المفهوم في واقعنا؟
· تحرير القلب من التعلق: إذا أيقنت أن المال مال الله، فلن تحزن عليه إذا فاتك، ولن تطغى إذا أتاك .ستصبح حراً، عبداً لله فقط.
· الشكر العملي) الإنفاق(: لأن المال مال الله، فأنت تنفقه في الوجوه التي يحبها: الصدقة، الزكاة، إطعام الطعام، إعانة المحتاج .هذا هو ترجمة "الحمد" إلى عمل.
· الاعتماد والتوكل: إذا كنت موظفاً تخاف من مديرك، تذكر أن رزقك ليس بيده، بل بيد مالك الملك .هذا لا يمنعك من إتقان عملك، ولكنه يمنعك من الذل والخضوع لغير الله.
الموضوع الثالث:
كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟

إن الفهم النظري للآية يجب أن يتحول إلى سلوك عملي في حياتنا المهنية والاجتماعية.

.١في حياتك المهنية: مفهوم الولاية والمسؤولية

· التطبيق: أنت مدير، أو موظف، أو صاحب مصنع .الآية تقول لك: ما بين يديك من أدوات، وسلطة، وموارد، هي ملك لله استخلفك عليها .هذا المفهوم يغرس فيك الأمانة .لن تستغل سلطتك لهوى نفسك ، ولن تهمل في عملك لأنك تعلم أنك مسؤول أمام مالك الملك الحقيقي .إنه يحول العمل من مجرد وسيلة لكسب الرزق إلى عبادة تتقرب بها إلى الله.

.٢مفهوم الخبرة والحكمة في العمل

· التطبيق: الله وصف نفسه بأنه "الحكيم الخبير" .أنت مأمور بالتخلق بهذه الصفات بقدر طاقتك البشرية .في عملك، لا تتخذ قراراً بناءً على عاطفة أو انطباع .كن حكيماً: ضع الأمور في نصابها، وازن بين المصالح والمفاسد .كن خبيراً: تعلم كل ما يتعلق بمجالك، وكن متمكناً من أدواتك، واسعَ لا كتساب المهارات والخبرات .هذا هو معنى الإتقان الذي يحبه الله.

.٣ثقافة الامتنان كقوة دافعة

· التطبيق: ابدأ يومك العملي أو اجتماعك مع فريقك بحمد الله على النجاحات والإنجازات السابقة . قل: "الحمد لله الذي وفقنا" .هذا ليس مجرد كلام، بل هو وقود نفسي هائل .ثقافة الامتنان "تزيد من الإنتاجية وتقلل من احتكاك الموظفين أو الفريق مما يخلق بيئة عمل إيجابية" .الموظف الذي يشعر بـ التقدير والامتنان يكون أكثر ولاءً وإنتاجية.

.٤التخطيط للمدى البعيد والأثر المستدام

· التطبيق: الآية تذكرنا بـ "وله الحمد في الآخرة" .هذا يدفعنا للسؤال: ما هو الأثر الذي سيبقى بعدي ؟ لا تكن قصير النظر في أهدافك .العمل الناجح هو الذي "يترك أثراً مستداماً: سمعة طيبة، علماً ينتفع به، نفعاً عاماً يستمر حتى بعد انتهاء المهمة أو المشروع" .هذا هو الفهم العميق للآية، حيث تتحول العقيدة إلى محرك يجعلك أكثر انضباطاً وإبداعاً، مستشعراً مراقبة "الخبير" في كل حركة وسكون.
الموضوع الرابع:
دور مفاهيم الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

هذه الآية ليست مجرد توجيه فردي، بل هي مشروع حضاري متكامل، يؤسس لمنظومة قيمية تبني ا لإنسان، وتوحد المجتمع، وتقيم الحضارة.

.١بناء الإنسان) عقيدة ونفساً(:

· تحرير العقل والقلب: عندما يتقرر في النفس أن "لله ما في السماوات وما في الأرض"، يتحرر الإ نسان من الخوف على رزقه وموته، ومن التعلق بالبشر .يصبح قلبه معلقاً باللّه وحده، الغني الحميد.
· ترسيخ الحمد والشكر: غرس هذه الثقافة يحمّل الإنسان مسؤولية عظيمة تجاه نعم اللّه، فلا يراها حقاً مكتسباً، بل فضلا ً من اللّه يستوجب الشكر الدائم.
· الإيمان بالمسؤولية: تمهيد الآية بالحمد في الآخرة يجعل الإنسان رقيباً على تصرفاته، يعمل للدنيا وهو يضع الآخرة نصب عينيه.

.٢بناء المجتمع) قيم واجتماع(:

· قاعدة الشكر لاستدامة النعم: المجتمع الذي يوحد اللّه ويشكره يضمن بقاء النعم وزيادتها، بينما المعاصي والشرك سبب لزوالها، كما حدث لقوم سبأ الذين بدلوا نعمة اللّه كفراً.
· التوحيد كمصدر للمساواة: هذه الآية توحد المجتمع على مبدأ أن الملك كله لله وحده .هذا المبدأ يقضي على الطبقية والاستبداد، فالناس سواسية أمام اللّه، والتفاضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح.
· الحكمة والخبرة في الإدارة: المجتمع الراقي هو الذي يقتدي بصفات اللّه "الحكيم الخبير" في إدارة شؤونه، فيخطط بذكاء، وينفذ بإتقان، ويقيم العدل على بصيرة.

.٣بناء الحضارة الإسلامية) منهج وغاية(:

· شمولية الحمد بين الدنيا والآخرة: الحضارة الإسلامية لا تفصل بين الروح والمادة .الإنجاز المادي في الدنيا) الاستخلاف وعمارة الأرض (يجب أن يكون مقروناً بحمد اللّه وشكره، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم، تماماً كما هو الحال في الآخرة .هذا هو سر قوة الحضارة واستمراريتها.
· الاعتراف بالحق: ربط الحضارة بالحق الذي أنزله اللّه يجعلها حضارة عادلة، قائمة على القيم و المبادئ، وليست مجرد قوة مادية طاغية.
· الإنتاج والتنمية مع الشكر: قصة سبأ في السورة تقدم نموذجاً للتنمية والإنتاج) جنتان عن يمين وشمال(، ولكن مع شرط أساسي وهو الشكر .الحضارة التي لا تقوم على شكر اللّه تكون حضارة هشة سريعة الزوال.
وفي الختام، أيها القارئ الكريم، هذه الآية ليست مجرد حروف وكلمات، إنها بوصلة وجودية تعيد توجيه حياتك .إنها دعوة لكي تحيا حراً بعبوديتك لله، غنياً بامتنانك له، مطمئناً بيقينك فيه .إنها تريد أن تخرج من دائرة ضيق الحياة المادية، إلى رحابة الإيمان واليقين .فلتكن هذه الآية نوراً لقلبك، ودستوراً لحياتك، وعدةً ليوم معادك.

المبحث الثاني.

أيها المتدبر لآيات اللّه، لقد وقفنا في الآية الأولى من سورة سبأ أمام مشهد كوني مهيب، حيث أعلن الملك المطلق لله، واستحقاقه للحمد وحده في الدنيا والآخرة. والآن، تأخذنا الآية الثانية في رحلة إلى عمق جديد من اليقين، حيث تنقلنا من رحابة "الملك" إلى دقة وإحاطة "العلم".

تأمل معي قول اللّه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2]. هذه الآية الكريمة ليست مجرد تقرير لواقع، بل هي بمثابة "عدسة مكبرة إلهية" تمنحك إياها لتتأمل من خلالها دقائق صنع اللّه وعظيم تدبيره.

مقاصد السورة والأفكار الرئيسية للآية

كما ذكرنا، فإن سورة سبأ تهدف إلى إبطال الشرك وإثبات البعث. وهذه الآية تبني على ما سبقها، فبعد أن أثبتت الآية الأولى أن لله ملك السماوات والأرض، تأتي هذه الآية لتؤكد أن هذا الملك ليس ملكاً غافلا ً، بل هو قائم على علم مطلق محيط بكل صغيرة وكبيرة. إنها إعلان من اللّه أنه يعلم خفايا الأرض وأسرار السماء، وهو ما يمهد بهدوء لإثبات قدرته على البعث والحساب.

تقوم الآية على ركنين عظيمين متلازمين:

.1إثبات العلم الإلهي المطلق والمحيط: من خلال ذكر أربعة مشاهد كونية يومية تعكس حركة الحياة

والكون.
.2ختام هذا العلم بالرحمة والمغفرة: لربط الإيمان بعلم الله بالرجاء في رحمته، وليس بالخوف و الفزع.
الأمر الأول:
دلالة علم الله المطلق (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

انظر كيف ينتقل بك الخطاب القرآني من مشهد الملك الواسع في الآية الأولى، إلى مشهد التفاصيل الدقيقة التي لا تراها العين المجردة.

· دلالة) يَعْلَمُ (و) مَا يَلِجُ(:
"يَعْلَمُ" فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد، فعلمه ليس ماضياً انقطع، بل هو علم حاضر ومستقبل، يحيط بكل حدث يقع الآن وسيقع غداً.
و"يلج" أبلغ من "يدخل" لأن "الولوج هو الدخول في ضيق" .فكأن الآية تقول لك: إن الله لا يعلم فقط ما يدخل في الأرض، بل يعلم تفاصيل ما ينفذ ويتغلغل في مسامها الضيقة وطبقاتها العميقة، ما لا يمكن لأحد تتبعه أو حصره .إنه علم بالخفايا التي تتحرك تحت أقدامنا.
· أمثلة تقريبية:
· عندما تشاهد قطرة المطر تسقط على الأرض وتتسلل بين حبات الرمل والطين، فالله يعلم عدد تلك القطرات ومسار كل قطرة، ويعلم أيها ستنبت زرعاً وأيها سيكون في باطن الأرض مخزوناً.
· حين ترمي بذرة في التراب، فالله يعلم مكانها، ويعلم متى ستشق قشرتها، وكيف سينمو جذرها في الظلام، وكم ورقة ستخرج منها.
· إذا دفن ميت في قبره، فالله يعلم أين هو، ويعلم تفاصيل جسده وما يطرأ عليه، وهو وحده القادر على جمعه وإعادته يوم البعث.
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
.1 الطمأنينة على الرزق: إذا أيقنت أن الله يعلم كل حبة بذر بذرها الفلاح، وكل قطرة ماء تسقيها، ألا يطمئن قلبك أن رزقك بيد من لا يغفل ولا ينسى؟ تذكر أن كل جهد تبذله في عملك هو كالبذرة التي تضعها في الأرض، فالله يعلمها وسيخرج منها الخير.
.2 اليقين بالبعث: هذا المشهد للموتى في باطن الأرض هو أكبر دليل على البعث .فالله الذي يعلم مكان كل ذرة من أجسادهم، ويعلم كيف تفرقت، قادر على جمعها وإعادتها .فإذا نظرت إلى قبر، فلا تنظر إليه نظرة يائس، بل نظرة موقن بأن الله يعلم ما فيه وسيعيده.
.3 مراقبة الخفايا: إذا كان الله يعلم "ما يلج في الأرض" من أسرار، فهو حتماً يعلم ما "يلج" في قلبك من نيات وأفكار .هذا يزرع فيك جهاز مراقبة داخلي، فتستحي أن يراك الله وأنت تبيت سوءاً أو تخفي حقداً .فكما أن البذرة لا تخفى عليه، فإن سريرتك لا تخفى عليه.
الأمر الثاني:
دلالة العلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن طاف بك في باطن الأرض، يصعد بك الخطاب الإلهي إلى أعالي السماء، في مشهد عظيم يربط الأرض بالسماء.

· دلالة) وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ (و) وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا(:
الآية تجمع بين اتجاهين متعاكسين: "ينزل" و"يعرج" .فمن السماء ينزل المطر والرزق والملائكة و الكتب السماوية والأقدار .وإلى السماء تعرج الملائكة وأعمال العباد الصالحة وأرواحهم .إنها صورة حية لحركة الكون المستمرة بين الخالق ومخلوقاته.
· أمثلة تقريبية:
· عندما ترى السحب تمطر، فاعلم أن الله يعلم وزن كل قطرة، ومكان سقوطها، ومن سيروي زرعه . إنه لا ينزل مطراً عبثاً، بل بقدر معلوم.
· حين تدعو الله في جوف الليل، فاعلم أن كلماتك الطيبة "تعرج" إلى السماء، ويحملها الملائكة إلى الله، وهو يعلمها ويسمعها .يقول الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر:.[10
· عندما تتصدق بصدقة سراً، فاعلم أن هذا العمل الصالح "يعرج" في سجل أعمالك عند الله، ولا يضيع عنده شيء.
· عندما يقبض ملك الموت روح إنسان، فهذه الروح تعرج إلى السماء، والله يعلم مصيرها ومآلها.

· لمسة بيانية بديعة) يعرج فيها وليس إليها(:
لقد تأمل المفسرون في سر استخدام "في" بدلا ً من "إلى" في قوله "وما يعرج فيها" .قالوا إن "إلى" تدل على انتهاء الغاية، فلو قال "وما يعرج إليها" لكان المعنى أن السماء هي نهاية المطاف .أما "في" فتفيد الظرفية والنفوذ، أي أن الأعمال والأرواح تخترق السماوات وتنفذ خلالها صاعدة إلى بارئها .إنه تعبير يدل على أن الطريق إلى الله لا ينتهي عند السماء الدنيا، بل يتجاوزها إلى أعلى، مما يشعر المؤمن بسمو الهدف وعظمة المقصد.
الأمر الثالث:
دلالة ختام الآية باسمي "الرحيم الغفور"

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

لاحظ هذا المزيج العجيب! بعد أن يخبرك الله أنه يعلم كل حركة وسكون في الأرض والسماء، يعلم سرك ونجواك، يعلم ما يلج في الأرض وما يعرج في السماء، يختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ﴾. لم يقل: "وهو العليم الخبير" كما توقعنا، بل قال: "الرحيم الغفور".

· دلالة الاقتران وارتباطه بما قبله:
هذا الاقتران هو منتهى اللطف الإلهي .يقول الإمام الرازي: "رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال، فرحم أولا ً بالإنزال وغفر ثانياً عند العروج" .فكل ما ينزل من السماء من رزق ومطر هو رحمة، وكل ما يعرج إليها من أعمال صالحة يتبعه مغفرة . فكأن الآية تقول لك: لا تخف من إحاطة علمي بك، فذلك العلم محفوف بالرحمة والمغفرة.
· لمسة بيانية فريدة) تقديم الرحيم على الغفور(:
هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي اجتمع فيها الاسمان "الرحيم" و"الغفور" وتم فيها تقديم "الرحيم" على "الغفور" .في جميع المواضع الأخرى، يأتي التعبير "الغفور الرحيم" .فما السر؟
يقول العلماء: إن السياق هنا سياق رحمة وإنزال أرزاق، فقدم ما يناسب السياق وهو "الرحيم" .كما أن تقديم الرحمة على المغفرة هو تطمين للعبد، فكأن الله يقول لك: رحمتي وسعت كل شيء، ومن رحمتي أن أغفر لك .إنه ترتيب بديع يملأ القلب رجاءً وأملا ً.
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
.1 الأمان في ظل العلم الإلهي: هذا الختام يزيل أي شعور بالخوف قد يتسرب إلى قلبك وأنت تستمع إلى سعة علم الله .فهو لا يعلم ليعذب، بل يعلم ليرحم ويغفر .عندما تستشعر أن الله "رحيم" بعباده، فإنك تشعر بالأمان، وتقبل عليه بالطاعة حباً لا خوفاً .يقول ابن كثير: "الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه".
.2 تجديد الأمل وباب التوبة: إذا كنت قد أخطأت، فلا تقنط .تذكر أن الذي يعلم سرك ونجواك هو "الغفور" .ما أعظمها من بشارة! كلما تذكرت ذنباً، فاستحضر فوراً أن الله "غفور"، فتُقبل عليه تائباً راجياً مغفرته .وهذا هو جوهر العلاقة بين العبد وربه، علاقة قائمة على الرجاء لا اليأس.
.3 تحويل العلم إلى قوة دافعة للخير: إيمانك بأن الله يعلم كل عمل صالح يصعد إليه يجعلك حريصاً على أن يكون لك في كل يوم عمل صالح يعرج إلى السماء .فكما تحرص على أن ينزل لك الرزق من السماء، احرص على أن يصعد لك العمل الصالح إليها .فالصدقة، والذكر، والقرآن، والدعاء، كلها أرزاق روحية تصعد إلى بارئها، وهو يعلمها ويقبلها.
الأمر الرابع:
علاقة الآية بما قبلها وما بعدها ومفاهيمها في حياتنا

أولا ً: علاقة الآية بما قبلها:

كما ذكرنا في ختام الآية الأولى، فإنها وصفت الله بأنه "الحكيم الخبير". والآن تأتي هذه الآية لتفصل وتبين معنى "الخبير". فقوله "يعلم ما يلج..." هو تفسير عملي لكيفية كونه خبيراً، خبيراً ببواطن الأ رض والسماء. فالآية الأولى تمنحك الإطار العام، والثانية تملؤه بالتفاصيل الدقيقة التي تبني يقينك.

ثانياً: كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (مع أمثلة تقريبية)

.١مفهوم "اليقين بعلم الله المطلق" في مواجهة المشكلات:

· التطبيق: عندما تشعر بالظلم، أو ترى أن عملك الصالح لم يُعرف، أو أن جهدك لم يُقدر، تذكر هذه الآ ية .كل ما تفعله من خير "يعرج" إلى السماء، مسجل عند الله الذي لا يخفى عليه شيء .فلا تحزن إن لم يعرفه الناس، فالذي يعرفه هو أكرم الأكرمين.

· مثال عملي: موظف مجتهد يعمل بصمت وإتقان، لكن مديره لا يلاحظه ويرقي زملاءه المهملين لأنه لا يعرف حقيقة عملهم .هذا الموظف إذا استحضر أن الله "يعلم" حقيقة عمله وجهده، اطمأن قلبه، وعلم أن أجره عند الله لن يضيع، واستمر في إخلاصه.

.٢مفهوم "رحمة الله في تفاصيل حياتنا":

· التطبيق: انظر حولك .كل ما "ينزل من السماء" هو رحمة .المطر رحمة، والهواء رحمة، والرزق رحمة . تدرب على ربط هذه النعم باسم الله "الرحيم" .عندما تشرب الماء، قل في نفسك: "هذا من رزق السماء، أنزله الرحيم بي".
· مثال عملي: عندما تمطر السماء، لا تقل فقط "مطرنا بفضل الله ورحمته"، بل فكر في كل قطرة "تلِجُ" في الأرض، وكيف أنها تحيي بذرة، وتسقي نبتة، وتفجر ينبوعاً .هذا التأمل يحول الظاهرة الكونية إلى مدرسة إيمانية تعمق شعورك بالامتنان.

.٣مفهوم "التوبة والأمل" من اسم "الغفور":

· التطبيق: إذا كنت تعاني من الإحباط بسبب ذنوبك السابقة، فهذه الآية لك .الله يعلم ذنوبك، ولكنها لا تمنعه من أن يكون "غفوراً" .بل إن علمه بضعفك هو من مقتضيات رحمته.
· مثال عملي: إنسان غارق في المعاصي، ثم يسمع هذه الآية، فيدرك أن الله يعلم بمعاصيه، ولكن الختام "الرحيم الغفور" يفتح له باب الأمل .فيقول لنفسه: "ربي يعلم ذنبي، ولكنه رحيم غفور، فأنا لن أيأس من رحمته، بل سأتوب إليه وأعود" .هذا هو التحول العظيم الذي تحدثه الآية في النفس.
الامر الخامس:
دور مفاهيم الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

إن هذه الآية، بهذا النظم البديع، تبني في الإنسان والمجتمع أركاناً متينة.

.١في بناء الإنسان) عقيدة ونفساً(:

· اليقين والرقابة الذاتية: الإيمان بأن الله يعلم ما يلج في الأرض وما يعرج في السماء يغرس في الإ نسان شعوراً عميقاً بالرقابة الإلهية، فيستقيم سلوكه في السر والعلن.
· الأمل والرجاء: الختام بـ "الرحيم الغفور" يغرس في النفس الأمل الدائم في رحمة الله، ويقضي على اليأس والقنوط، مما يجعل الإنسان يعيش في حالة من السلام الداخلي والرضا.
· الطمأنينة في مواجهة تقلبات الحياة: اليقين بأن الأرزاق تنزل من السماء بعلم الله وقدره، يمنح الإ نسان طمأنينة عظيمة في مواجهة الأزمات الاقتصادية والقلق على الرزق.

.٢في بناء المجتمع) قيم واجتماع(:

· الإتقان والإخلاص في العمل: عندما يستشعر كل فرد في المجتمع أن عمله "يعرج" إلى الله ويعلمه، فإنه يؤدي عمله بإتقان وإخلاص، مما ينهض بالمجتمع بأكمله .إنها ثقافة "إتقان العمل كعبادة" وليس مجرد وظيفة.
· العدالة والأمانة: الإيمان بأن الله يعلم خفايا الأرض وخفايا النفوس، يردع عن الظلم والغش والخيانة ، لأن الفاعل يعلم أن هناك من يعلم حقيقة فعله حتى لو أفلت من عدالة البشر.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية) منهج وغاية(:

· الربط بين المادة والروح: هذه الآية تقدم نموذجاً فريداً للحضارة، فهي تربط بين "ما يلج في الأ رض") وهي العلوم المادية من زراعة وصناعة وتعدين (وبين "ما يعرج فيها") وهي القيم الروحية والأ عمال الصالحة .(فالحضارة الحقيقية هي التي تزدهر فيها المادة والروح معاً .تقدم تقني مع قيم أخلا قية.
· نموذج البناء الحضاري: قصة سبأ التي سترد لاحقاً في السورة هي التطبيق العملي .هم قوم أنعم الله عليهم، فكان المفترض أن يعمروا الأرض ويشكروا .هذه الآية تضع الأساس النظري لهذه القصة، فتبين أن الله يعلم ما يخرج من الأرض من خيرات، ويعلم ما ينزل من السماء من أرزاق، وهو الرحيم الذي ساقها إليهم.

أيها القارئ الكريم، هذه الآية تريد أن تصنع منك إنساناً متصلا ً بالسماء وأنت تعيش على الأرض. إنساناً يبذر الخير وهو موقن أن الله يعلم بذرته، ويعمل الصالحات وهو موقن أنها تعرج إلى بارئها،

ويخطئ ويتوب وهو موقن أن بابه مفتوح لأنه "الرحيم الغفور".

اجعل هذه الآية زادك في كل يوم. استشعرها عندما تخرج إلى عملك (وما يخرج منها)، وعندما ينزل عليك المطر (وما ينزل من السماء)، وعندما تدعو الله (وما يعرج فيها). فإذا فعلت ذلك، تحولت حياتك كلها إلى عبادة حية، وامتلأ قلبك أمناً وطمأنينة، وتحررت من الخوف على الرزق ومن اليأس من الذنب، وأصبحت حراً بعبوديتك لله العليم، الرحيم، الغفور.

ثالثا

أيها القلب المتدبر، والعقل الباحث عن الحقيقة، لقد أبحرنا معاً في الآيتين الأوليين من سورة سبأ، فشاهدنا في الأولى ملك الله المطلق الذي يستوجب الحمد، وفي الثانية علم الله المحيط الذي يغمره الرحمة والمغفرة. والآن، نقف على شاطئ آية ثالثة، كأنها الصاعقة التي توقظ الغافلين، والبرهان الذي يخرس المنكرين، إنها قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3].

تأمل هذا المشهد القرآني العجيب: الكفار في غمرة غفلتهم يهزؤون بالبعث، يصرخون بإنكاره، وكأنهم يريدون طمس حقيقة النهاية. فيأتي الرد الإلهي ليس بالجدال العقلي المجرد، بل بقسَم يعز على الله أن يحلف به إلا في أعظم الأمور، قسَم يزلزل الوجدان، ثم يدعمه ببرهان عقلي كوني لا يدع مجالا ً للشك. هذه الآية ليست مجرد إخبار، بل هي دورة تدريبية إلهية في "اليقين بالآخرة"، تريد أن تنقلك من دائرة الشك والغفلة إلى رحابة الإيمان والاستعداد.

مقاصد السورة والأفكار الرئيسية للآية

سورة سبأ، كما علمنا، قطب رحاها يدور على أمرين جليلين: إبطال قواعد الشرك، وإثبات حقيقة البعث والجزاء. هذه الآية هي القلب النابض لإثبات البعث في السورة. فهي تسجل اعتراض الكفار الأساسي، ثم تفنده بأقوى الأساليب وأبلغها، رابطةً إثبات البعث بقدرة الله المطلقة وعلمه المحيط، اللذين تم بيانهما في الآيتين السابقتين. فكأنها تقول: من كان مالكاً لكل شيء، عالماً بكل شيء، أفيعجز عن أن يعيدكم بعد موتكم؟!

تقوم الآية على محاور أربعة رئيسية:

.1عرض شبهة المنكرين للساعة.
.2الرد القاطع بالقسَم المغلظ من الله على لسان نبيه.
.3إقامة البرهان العقلي على إمكانية البعث) وهو العلم الإلهي الشامل الذي لا يعزب عنه شيء.(
.4الإخبار عن "الكتاب المبين" الذي يحصي كل شيء.

الأمر الأول:
شبهة المنكرين (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

انظر إلى هذا التعبير القرآني الدقيق. لم يقل "وقال المشركون" أو "المنافقون"، بل قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. لماذا؟
لأن سبب إنكارهم للساعة هو الكفر. فالكفر هو الذي ستر عقولهم وأعمى بصائرهم. إنكار الساعة ليس ناتجاً عن بحث عقلي أو شك علمي، بل هو نتيجة حتمية للكفر بالله وبعلمه وقدرته. إنه يريد أن يقول لك: أصل المشكلة في القلب، فإذا كفر القلب بالله أنكر كل ما يخبر به من غيب.

ثم انظر إلى جملتهم القصيرة: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾. إنها جملة مطلقة، تنفي مجيء الساعة نفياً قاطعاً. لم يقولوا "لا نصدق أنها تأتينا"، بل أنكروا الفعل نفسه. إنه إنكار استكباري، يريدون به إغلاق باب التفكير تماماً. هذا هو حال الغافلين في كل زمان، يستبعدون الآخرة وكأن الدنيا هي دار الخلود.

· مثال تقريبي معاصر:
كثير من الناس اليوم يعيشون وكأنهم لا يموتون .غارقون في جمع المال، وبناء الأمجاد، وتحقيق الشهوات، وكأن الموت والحساب كذبة قديمة .فإذا دعوتهم إلى التفكر في المصير، قالوا لك: "دعنا من هذا الكلام الكئيب، نحن نعيش الحياة!" .هذا هو صوت الكفار نفسه يتردد عبر العصور، والقرآن يسجله ليكون لنا عبرة.
· الرسالة النفسية والتربوية:

الآية تفتح عينيك على حقيقة نفسية خطيرة: الغفلة والإنكار هما رد فعل طبيعي للقلب الغافل عن الله .فلا تتعجب إذا رأيت منكراً للبعث، فالسبب ليس في عقله، بل في غفلته عن ربه .وهذا يعلمك أن تكون رفيقاً في دعوتك، تبدأ بغرس الإيمان بالله وقدرته، حتى يتفتح القلب لقبول حقيقة الآخرة.
الأمر الثاني:
الرد الإلهي المزلزل (قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا يتحول الخطاب إلى المشهد الأهم في الآية. يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

· ﴿بَلَىٰ﴾: هي حرف إيجاب لما نُفي .أي نعم، لتأتينكم الساعة حتماً .إنها كلمة واحدة تنسف كل ما بنوه من شكوك.
· ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: هذا هو القسَم الإلهي .أقسم الله بربوبيته لنبيه، والنبي أقسم بربه .والرب هو المربي والمالك والمصلح .أقسم بربوبيته الشاملة، التي من مقتضياتها أن يبعث الخلق للحساب ليجازي المحسن والمسيء .ثم أكد هذا القسم بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وهو أقوى أساليب التوكيد في اللغة العربية .فكأنه يقول: والله الذي رباني ورباكم، لتأتينكم الساعة آتية لا محالة، إتياناً لا شك فيه ولا مرية.
· لمسة بيانية قلبية:
لاحظ كيف أن هذا القسَم لم يُطلب من النبي أن يقوله بلسانه فقط، بل أمر أن يقسم بالله أمامهم .تخيل موقف النبي ﷺ وهو يواجه هؤلاء المكذبين، فيرفع صوته قائلا ً: "بلى وربي لتأتينكم!" .إنها ثقة اليقين التي تملأ قلب النبي، فيواجه بها طوفان الشك والإنكار .هذا المشهد يزرع في قلب المؤمن القوة والثبات عند مواجهة الشبهات .فإذا قال لك المنكرون: لا حياة بعد الموت، فقل بكل يقين: بلى وربي لتأتيني ولتأتينكم.
· الرسالة النفسية والتربوية:
1. اليقين واجب الأنبياء وأتباعهم: هذا هو ميراث النبوة .اليقين الجازم باليوم الآخر .ليس مجرد معرفة نظرية، بل هو حقيقة قلبية تظهر على الجوارح .المؤمن الحقيقي يعيش وكأن الساعة تأتيه اليوم قبل غد.
2. القوة في مواجهة الشك: عندما تستمع إلى المشككين، لا ترهبك حججهم، فأنت تحمل في قلبك قسَم الله .سلاحك هو "بلى وربي" .رد واحد يكفي ليكسر كل جدران الشك إذا كان مصدره قلباً مؤمناً.
الأمر الثالث:
البرهان العقلي القاطع (عَالِمِ الغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن أقام الحجة بالنقل (القسم)، أقام الحجة بالعقل. فكأنه يقول: لماذا ستأتي الساعة؟ لأن من سيأتي بها هو ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾. ثم يشرح هذا العلم ببرهان كوني لا يُرد.

· ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾: صفة مشتقة من العلم، وهي نكرة لإفادة التعظيم .فهو عالم كل غيب، صغيره وكبيره، ماضيه وحاضره ومستقبله.
· ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: هذا هو صلب البرهان ."يعزب" بضم الزاي أو كسرها، ومعناها يغيب ويبعد .و"مثقال" أي وزن .و"الذرة" هي أصغر ما كان يعرفه العرب، قيل هي النملة الصغيرة، أو الهباءة التي ترى في شعاع الشمس .يقول ابن عباس: "لو وضعت كفك في التراب ثم رفعتها لوجدت ذرات كثيرة ملتصقة بها، كل واحدة منها معلومة عند الله بمكانها ووزنها وحالها".
تخيل هذا المشهد! الله لا يغيب عن علمه وزن ذرة من الغبار في هذا الكون الفسيح .أيعقل إذن أن تغيب عنه ذرات أجسادكم بعد أن تتحلل في التراب؟!
· ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾: هنا يبلغ الإعجاز البياني والعلمي ذروته .في زمن كانوا يظنون أن الذرة هي نهاية الصغر، يأتي القرآن ليقول: هناك ما هو أصغر من الذرة! واليوم، بعد أربعة عشر قرناً، أثبت العلم أن الذرة التي كانوا يظنونها أصغر شيء، تتكون من إلكترونات وبروتونات ونيوترونات، ثم اكتُشفت جسيمات أصغر منها) الكواركات .(إنه سبحانه يخبرنا بعلمه بما لا نعلم، تأكيداً على إحاطة علمه المطلقة.
· أمثلة تقريبية لتقريب المعنى:
· مثال الذرة في مملكة النمل: تخيل مملكة نمل ضخمة تحت الأرض، فيها ملايين النمل .أنت

كإنسان، لا يمكنك أن تعرف عددها، أو أين تذهب كل نملة، أو ماذا تحمل .لكن الله يعلم حركة كل نملة على حدة، ويعلم وزن ما تحمله، ويعلم أين ستموت وأين ستدفن .فكيف لا يعلم مكان كل ذرة من جسدك بعد موتك؟!

· مثال البيانات في الحاسوب: في جهاز حاسوب صغير، يمكن تخزين مليارات البيانات والصور و الملفات .أنت تعجز عن تذكر أين وضعت ملفاً معيناً .لكن صانع الحاسوب لديه القدرة على معرفة كل شيء فيه .فكيف بصانع الكون وخالقه؟ ألا يكون علمه بأجسادكم وذراتها أوسع وأكمل؟!

· الرسالة النفسية والتربوية والعقلية:

1. الطمأنينة على الحفظ والجمع: إذا أيقنت أن الله لا ينسى وزن ذرة، فكيف ينسى أعمالك؟ وكيف يضيع ذرات جسدك؟ هذا اليقين يورثك طمأنينة عظيمة في قلبك .لست مهملاً في هذا الكون، أنت محفوظ بعين الله التي لا تنام.

2. الرادع الأخلاقي الأعظم: إذا كان الله يعلم مثقال الذرة، فاعلم أن كل كلمة تقولها، وكل نظرة تنظرها، وكل نية تخطر ببالك، مسجلة في علم الله .هذا الشعور بالمراقبة الدقيقة هو أقوى رادع عن المعاصي، وأقوى دافع للطاعات .فلتستحِ من الله الذي يعلم حتى أصغر من الذرة!

3. إقامة الحجة على المنكرين: هذه الآية تقدم برهاناً عقلياً قاطعاً على قدرة الله على البعث .فإذا كان يعلم كل ذرة، فلماذا يستبعد العقل أن يجمع هذه الذرات مرة أخرى؟ إن العقل السليم إذا تأمل في سعة علم الله وقدرته، لا يجد صعوبة في الإيمان بالبعث.

الأمر الرابع:

الكتاب المبين (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن بيّن سعة علمه، يخبرنا أن لهذا العلم مظهراً وهو ﴿كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

· دلالة "كتاب مبين":

"الكتاب" هنا هو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض .وهو "مبين" أي واضح في نفسه، ومظهر للأشياء التي كتبت فيه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

يقول ابن كثير: "أي جميع ذلك مكتوب في كتاب مبين، هو أم الكتاب، وقد أحاط علمه بجميع ذلك، لا يغيب عنه شيء" .فهو سبحانه يعلم الأشياء في نفس الأمر، ويثبتها في كتاب لا يتبدل ولا يتغير.

· لمسة بيانية:

استعمال ﴿إِلَّا﴾ هنا للاستثناء المنقطع، وهو يفيد تأكيد الشمول .فكأنه قال: كل صغيرة وكبيرة هي في كتاب مبين، وما من شيء إلا وهو مثبت فيه .هذا الكتاب هو دليل إضافي على تمام علمه، فكأنه يقول: علمي ليس مجرد علم ذاتي، بل هو مدوّن في كتاب أحصي فيه كل شيء، حتى لا يكون للناس حجة يوم القيامة.

· أمثلة تقريبية:

· سجل الحسابات البنكي: كل معاملة مالية تجريها، مهما كانت صغيرة، تسجل في كشف حساب البنك بدقة متناهية: التاريخ، المبلغ، الجهة .هذا السجل هو "كتاب مبين" لحسابك المالي .فإذا كان البشر يستطيعون تسجيل كل صغيرة وكبيرة في حساباتهم، فكيف بالله العظيم الذي أحصى كل شيء في كتاب مبين؟!

· الصندوق الأسود للطائرة: هذا الجهاز يسجل كل كلمة وكل حركة وكل هزة في الطائرة طوال الرحلة .يوم القيامة، ستقف لتقرأ كتابك، كتاب أعمالك، الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

· الرسائل النفسية والتربوية:

1. العدل الإلهي المطلق: وجود "الكتاب المبين" هو ضمانة العدل الإلهي .فلا يمكن لأحد أن يجادل أو يدعي أن الله نسيه أو أخطأ في حسابه .كل شيء مسجل وموثق، حتى تكون الحجة دامغة يوم القيامة.

2. الشعور بالمسؤولية: عندما تعلم أن كل عمل، مهما صغر، هو مسجل في كتاب عند الله، فإنك ستتعامل مع الحياة بجدية أكبر .لن تستهين بصغيرة من الخير أو الشر .ستعلم أن كل شيء محسوب عليك.

اهم المواضيع

أبعاد الآية والقيم التي تدعو إليها

بعد هذا التحليل العميق، يمكننا أن نستخلص الأبعاد الكبرى لهذه الآية والقيم التي تريد أن تغرسها فينا:

أولاً: الأبعاد العقدية والفكرية:

.1بعد الإيمان بالغيب: الآية ترسخ أن حقيقة الساعة من الغيب الذي لا يُعلم إلا بالوحي، وأن العقل لا يستطيع إدراكه بنفسه، لكنه يستطيع فهم البراهين الدالة عليه.
.2بعد الجمع بين النقل والعقل: تقدم الآية منهجاً فريداً في الإقناع، يجمع بين قوة الخبر الإلهي)القسم (وقوة البرهان العقلي) سعة العلم(، مما يجعل الإيمان بالبعث قضية راسخة في الوجدان و العقل معاً.
.3بعد إثبات كمال علم الله وقدرته: الآية تفصّل في صفة العلم الإلهي تفصيلا ً يورث الهيبة و التعظيم في قلب المؤمن، ويُفحم المنكرين.

ثانياً: الأبعاد النفسية والوجدانية:

.1بعد الأمان والاطمئنان: الشعور بأننا في علم الله وحفظه، وأن مصيرنا معلوم ومقدر، يمنح النفس سكينة عجيبة في خضم فوضى الحياة.
.2بعد تحرير الإنسان من العبثية: من ينكر الآخرة يعيش في عبث، فالموت هو النهاية المطلقة .أما هذه الآية فتمنح الحياة معنى وهدفاً، لأن هناك آخرة وحساباً، فكل عمل له قيمة وأثر.
.3بعد المراقبة الذاتية: اليقين بأن الله لا يعزب عنه مثقال ذرة، يحول الإنسان إلى رقيب على نفسه، فلا يحتاج إلى شرطي يراقبه، بل ضميره الحي المستمد من يقينه بالله هو رادعه وموجهه.

ثالثاً: الأبعاد الاجتماعية والأخلاقية:

.1بعد العدالة المطلقة: الإيمان بالآخرة وبالكتاب المبين يزرع في المجتمع شعوراً عميقاً بأن العدالة آتية لا محالة، فإذا فات الظالم عقاب الدنيا، فلن يفوته عقاب الآخرة .هذا الشعور يخفف من حدة التوتر واليأس في المجتمع، ويمنع الناس من أخذ القانون بأيديهم.
.2بعد المسؤولية الفردية والجماعية: كل فرد مسؤول عن عمله أمام الله، وهذا يحفز على إتقان العمل والإخلاص فيه، مما ينهض بالمجتمع اقتصادياً وحضارياً.

رابعاً: القيم التي تدعو إليها الآية:

.1قيمة اليقين: أن تجعل إيمانك بالآخرة يقيناً جازماً، لا يتزعزع أمام شبهة أو إنكار.
.2قيمة الاستعداد: أن تعيش حياتك وأنت مستعد للقاء الله، تضع الآخرة نصب عينيك في كل خطوة تخطوها.
.3قيمة المسؤولية: أن تدرك أن كل عمل صغير أو كبير أنت مسؤول عنه، فهو محفوظ في "كتاب مبين".
.4قيمة التواضع أمام عظمة الله وعلمه: أن تستشعر ضآلتك أمام عظمة الله الذي يعلم ما لا تدركه عقولنا، فتتواضع وتخضع له.
.5قيمة الشجاعة في الحق: أن تكون كالنبي ﷺ، تواجه منكري الحقائق الكبرى بيقين لا يتزعزع، قائلا ً: "بلى وربي".

***كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟

الآن، دعنا ننزل بهذه المعاني السامية من السماء إلى أرض الواقع، لتصبح منهج حياة:

.١في مواجهة وساوس الشك:

· التطبيق: عندما يأتيك الشيطان بوسوسة: "من أين لي أن الساعة حق؟"، لا تدخل في جدال عقلي مع نفسك، بل استحضر هذه الآية فوراً .قل بلسانك وقلبك: "بلى وربي لتأتيني الساعة" .هذا الرد الإ يماني الحاسم يطرد الوسواس ويقوي اليقين.
· مثال عملي: طالب جامعي يدرس نظريات تنكر الخالق والآخرة، فبدأ الشك يتسرب إلى قلبه .لكنه عندما تذكر هذه الآية، قال في نفسه: "ربي أقسم، وعقلي يصدق، فكيف أشك؟" .فعاد إليه يقينه وثباته.

.٢في معالجة القلق من المستقبل:

· التطبيق: إذا كنت قلقاً على رزقك، أو على أولادك، أو على صحتك، فاستحضر أن الله "عالم الغيب"، وأن كل ما سيحدث لك مكتوب في "كتاب مبين" .هذا لا يعني التواكل، بل يعني أن تبذل السبب

وتتوكل على الله، وتطمئن أن ما قدره الله لك خير.
· مثال عملي: أم تخاف على أولادها من المستقبل، فتظل قلقة ليل نهار .إذا استحضرت هذه الآية، ستقول: "أولادي في علم الله، وما قدره لهم هو الخير، وسأربيهم وأدعو لهم، ثم أكل أمرهم إلى عالم الغيب".

.٣في محاسبة النفس يومياً:

· التطبيق: اجعل هذه الآية برنامجاً يومياً للمحاسبة .قبل أن تنام، اسأل نفسك: "ماذا سجلت في كتابي المبين اليوم؟" .استحضر أن كل كلمة قلتها، وكل نظرة أطلقتها، وكل فكرة خطرت ببالك، هي مسجلة بعلم الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة.
· مثال عملي: موظف يغتاب زميله أثناء العمل .إذا استحضر أن هذا الكلام يُكتب في كتاب مبين، وأن الله يعلمه، فسيستحي ويترك الغيبة فوراً، وربما يستغفر الله ويتوب.

.٤في تقوية الدافع للإنجاز:

· التطبيق: بدلا ً من أن تكون الآخرة سبباً للقعود عن العمل، هي الدافع الأكبر له .أنت تعمل وتجتهد لأنك تعلم أن عملك مسجل وسيُعرض عليك يوم القيامة .هذا يحول العمل إلى عبادة، والإتقان إلى قربة.
· مثال عملي: طبيب يعالج مريضاً فقيراً مجاناً .دافعه ليس المال، بل هو يستحضر أن هذا العمل الصالح "في كتاب مبين"، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين.
**
علاقة الآية بما قبلها وما بعدها ودورها في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: علاقة الآية بما قبلها (الآيتين 1 و 2):
انظر إلى هذا البناء القرآني المحكم:

· الآية الأولى: ﴿الحَمْدُ لِلهِ الذِي لهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أثبتت الملك المطلق.(
· الآية الثانية: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أثبتت العلم المحيط.(
· الآية الثالثة: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الغَيْبِ﴾ استخدمت الملك والعلم لإثبات البعث.(
فكأنه يقول: من كان مالكاً لكل شيء، وعالماً بكل شيء، أليس بقادر على أن يبعثكم؟! إنها حجة دامغة لا يستطيع العقل السليم ردها .فالآية الثالثة هي الثمرة الطبيعية للآيتين السابقتين.

ثانياً: دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

.1بناء الإنسان المتوازن: هذه الآية تبني إنساناً يجمع بين اليقين الغيبي) الإيمان بالساعة (والنظرة العقلية) التأمل في سعة علم الله(، وبين الخوف والرجاء) علمه بكل شيء ورحمته(، وبين العمل للدنيا والاستعداد للآخرة .إنها معادلة التوازن النفسي والعقلي.
.2بناء المجتمع الراقي: مجتمع يعيش أفراده وهم موقنون أن هناك يوماً للحساب، هو مجتمع تسوده الأخلاق والفضيلة .لا يظلم القوي الضعيف، ولا يأكل الغني حق الفقير، لأنهم يعلمون أن هناك "كتاباً مبيناً" لا يغادر صغيرة ولا كبيرة .إنه مجتمع العدالة والمسؤولية والأمانة.
.3بناء الحضارة الشامخة: الحضارة الحقيقية لا تُبنى بالعمران المادي فقط، بل تُبنى بالإنسان المتوازن .
هذه الآية، وما فيها من يقين بالبعث وإحاطة العلم الإلهي، تنتج إنساناً:
· مبدعاً ومنتجاً: لأنه يعلم أن وقته وعمله محسوبان، فيستثمرهما فيما ينفع.
· عادلا ً وأميناً: لأنه يخشى الحساب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.
· صبوراً ومتفائلا ً: لأنه يوقن أن العدالة المطلقة آتية في الآخرة، فلا ييأس من ظلم واقع في الدنيا.
وهذه الصفات هي اللبنات الأساسية لأي حضارة إنسانية راقية.

وفي الختام، أيها القارئ الكريم، هذه الآية ليست مجرد نص يُتلى، بل هي منظومة إيمانية متكاملة، تريد أن تنتشلك من غفلتك، وتوقظك من سباتك، وتزرع في قلبك يقيناً راسخاً بالآخرة. إنها تريد أن تجعلك تعيش في هذه الدنيا وأنت تنظر إليها على أنها مزرعة للآخرة، وأن كل لحظة فيها هي استثمار ليوم الحساب.

فاستشعر قول الله لك: "قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ"، واجعلها شعار حياتك. وعش على يقين أن كل ذرة من جهدك، وكل لحظة من عمرك، وكل خاطر في قلبك، معلوم عند الله، مسجل في كتاب مبين. فإما

أن تكتب فيه ما يسرك يوم تلقاه، وإما أن تكتب فيه ما يسوؤك. والخيار لك،

رابعا

أيها السائر في دروب الحياة، لقد قادتنا الآيات الأولى من سورة سبأ في رحلة إيمانية عظيمة: وقفنا على ملك الله المطلق، ثم على علمه المحيط، ثم جاءت الآية الثالثة لتثبت حقيقة البعث بأقوى البراهين. والآن، وبعد أن رسخ اليقين بالساعة في القلب، تنزل بنا الآيتان الرابعة والخامسة لتجيبا على السؤال المصيري: لماذا تأتي الساعة؟ ما الهدف من البعث والحساب؟

تأمل معي قول الله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: 4]

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: 5]

هاتان الآيتان الكريمتان هما المعادلة الإلهية للوجود الإنساني. إنهما تكشفان عن سر الحياة وغايتها، وتضعان أمام عينيك خارطة الطريق بوضوح تام: هناك طرفان، هناك سبيلان، وهناك مصيران. وكأن الله يقول لك بعد أن أيقنت بالبعث: "هذه هي تفاصيل ما سيجري فيه، فاختر لنفسك أين تريد أن تكون".

مقاصد السورة والأفكار الرئيسية للآيتين

في سياق سورة سبأ الذي يهدف إلى إثبات البعث والجزاء، تأتي هاتان الآيتان لتكونا التطبيق العملي المباشر لهذا الإثبات. لقد قال في الآية الثالثة: "لَتَأْتِيَنَّكُمُ السَّاعَةُ"، فجاءت هاتان لتقولا: "لماذا تأتي؟" ﴿لِيَجْزِيَ﴾. إنها غاية عادلة وحكيمة، فالدنيا دار ابتلاء، ولا بد من دار للجزاء يُوفّى فيها كل عامل أجره.

تقوم الآيتان على محاور رئيسية:

1.بيان الغاية من خلق الساعة والبعث) الجزاء العادل.(
2.تحديد معايير النجاة والفوز) الإيمان والعمل الصالح.(
3.وصف الجزاء الأوفى للمحسنين) مغفرة ورزق كريم.(
4.بيان صفات الخاسرين وجزائهم) السعي في آيات الله بالتعجيز والعذاب الأليم.(

الأمر الأول:

الغاية من الساعة والبعث (لِيَجْزِيَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هي لام التعليل، أي أن العلة والغاية من مجيء الساعة هي الجزاء. وهذا يرد على سؤال فطري يثور في النفوس: إذا كان الله عالماً بكل شيء، ومالكاً لكل شيء، فلماذا خلق الموت و الحياة والبعث؟ الجواب القرآني موجز وبليغ: ليجزي.

· دلالة الفعل) لِيَجْزِيَ(:

الجزاء هو المقابل العادل للعمل .والله سبحانه هو الذي يتولى الجزاء بنفسه) لِيَجْزِيَ .(وهذا فيه تشريف عظيم للمؤمنين بأن الله يتولى مكافأتهم، وتنكيل عظيم بالكافرين بأن الله يتولى عقابهم . فليس الجزاء من ملك أو وزير، بل من مالك الملك.

· لمسة بيانية:

لاحظ أن الآية بدأت بـ ﴿لِيَجْزِيَ﴾، ثم ذكرت الفريقين: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين سعوا في آياتنا معاجزين .الترتيب هنا عجيب! لقد بدأ بذكر جزاء المؤمنين قبل ذكر جزاء الكافرين .لماذا؟ يقول العلماء: في هذا إشارة إلى أن رحمة الله سبقت غضبه، وأن جانب الرجاء والأمل هو الأصل في التعامل مع الله .فحتى في سياق الحديث عن الحساب والجزاء، يُقدم جزاء الرحمة على جزاء العذاب، ليكون ذلك بشرى للمؤمنين، ودعوة للكافرين للدخول في هذا الفريق المرحوم.

· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

1. العدل أساس الكون: هذه الآية تؤكد أن الحياة ليست عبثاً، بل تقوم على قانون إلهي عادل .لا يمكن أن يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين سعوا في الأرض فساداً .الجزاء هو مقتضى الحكمة والعدل الإلهي.

2. هدفية الحياة: إذا فهمت أن الغاية هي الجزاء، تغيرت نظرتك للحياة كلها .ستصبح كل لحظة وكل عمل له قيمة ووزن عند الله .لم تعد الحياة مجرد أكل وشرب ونوم، بل هي فرصة ثمينة لتحصيل "المغفرة والرزق الكريم".

3. قوة الدافع: معرفة أن هناك جزاءً ينتظرك هو أقوى محرك ودافع للعمل الصالح .إنه يمنحك طاقة هائلة لتحمل المشاق، والتضحية في سبيل الله.

الأمر الثاني:

طريق الفوز (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا، يضع القرآن الكريم معيار النجاة في كلمتين راسختين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

· دلالة اقتران الإيمان بالعمل الصالح:

هذا المزيج هو دستور النجاة .فالإيمان وحده، وإن كان أصلاً، لا يكفي دون عمل يثبته .والعمل وحده، مهما كان صالحاً في ظاهره، لا يُقبل دون إيمان بالله .الإيمان هو الروح التي تحيي العمل، و العمل الصالح هو الجسد الذي يترجم الإيمان إلى واقع .يقول الإمام الرازي: "اعلم أن الله تعالى جمع في هذا الوصف بين الحالة النفسانية التي هي الإيمان وبين الحالة البدنية التي هي العمل الصالح".

· أمثلة تقريبية للحياة العملية:

· الموظف المؤمن: موظف في شركة يعمل بإتقان وأمانة) عمل صالح(، ليس خوفاً من المدير فقط، بل لأنه يؤمن بأن الله يراه وسيسأله عن وقته وعمله .هذا المزج بين الإيمان والعمل يجعله نموذجاً فريداً في بيئته.

· الطالب المجتهد: طالب يذاكر دروسه بجد) عمل صالح (وهو يؤمن أن طلب العلم فريضة وأنه بذلك يخدم أمته) إيمان .(هذا الطالب لا يذاكر للنجاح في الامتحان الدنيوي فقط، بل للنجاح في الا متحان الأخروي أيضاً.

· الأم المربية: أم تصبر على تربية أولادها وتعليمهم الخير) عمل صالح(، وهي تحتسب ذلك عند الله وتؤمن بأنها مأجورة على كل قطرة عرق) إيمان .(هذا الصبر والاحتساب يحول مهمة التربية الشاقة إلى عبادة ممتعة.

· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

1. التكامل الإنساني: الإسلام لا يقبل الإنسان الناقص، الذي يكون إيمانه معطلاً عن العمل، أو عمله بلا روح إيمانية .إنه يدعو إلى التكامل بين الباطن والظاهر، بين العقيدة والسلوك.

2. ترجمة العقيدة إلى سلوك: هذه الآية تعلمنا أن الإيمان ليس مجرد شعور قلبي، بل هو قوة محركة تدفع إلى العمل والإنتاج .إذا كنت مؤمناً حقاً، فسيظهر أثر إيمانك في سلوكك وأخلاقك ومعام لاتك.

الأمر الثالث:

الجزاء الأول للمؤمنين (مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن ذكر العمل، ذكر الجزاء. ولكن انظر إلى لطف التعبير: ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

· دلالة تقديم المغفرة على الرزق الكريم:

هذا منتهى الكرم الإلهي .قبل أن يعطيهم الرزق والنعيم، غفر لهم .لماذا؟ لأن العبد مهما عمل من الصالحات، فإنه مقصر، وقد يعتري عمله نقص أو رياء أو غفلة .فرحمة الله تبدأ بستر العيوب ومحو الذنوب قبل العطاء .إنه يشعر المؤمن بأنه مقبول، وأن عيوبه قد غُفرت، ثم بعد ذلك يُمنح الرزق الكريم .هذا يملأ القلب فرحاً وسروراً وامتناناً.

· دلالة وصف الرزق بأنه "كريم":

وصف الرزق بالكرم يدل على عظمته وفضله ."كريم" في اللغة صفة مشبهة تدل على الثبوت، أي أن هذا الرزق كريم في ذاته، وكريم في صفاته، وكريم في دوامه .قال المفسرون: هو رزق الجنة، وهو كريم لأنه دائم لا ينقطع، ولأنه يأتي بلا تعب ولا نصب، ولأنه خالص من كل شائبة وكدر .في الدنيا، قد يكون رزقك طيباً ولكن يعقبه مرض، أو يكون كثيراً ولكن تنغصه هموم .أما رزق الآخرة فهو كريم مطلق.

· أمثلة تقريبية لتقريب المعنى:

· الملك إذا أكرم أحداً: تخيل أنك مذنب لدى ملك عظيم، وعندما تقف بين يديه، بدلاً من أن يحاسبك، يأمر بالعفو عنك أولاً، ثم يخلع عليك خلعة سنية، ويقطع لك أرضاً خصبة دائمة العطاء . هذا هو الفرق بين أن يعاقبك أو يغفر لك ثم يعطيك .وهذا هو شعور المؤمن في الآخرة.

· صاحب العمل المخلص: صاحب مصنع يعمل بإخلاص، فيبتدئه الله بالمغفرة فيغفر له ما قد يكون من تقصير أو هفوات في عمله، ثم يكافئه بـ"الرزق الكريم" الذي هو الجنة .فكم سيكون شعوره بالا

امتنان والرضا!
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. باب الأمل مشرع: هذه الآية تفتح باب الأمل على مصراعيه .فحتى لو كنت مقصراً، فإن الله يبدأ بالمغفرة .هذا يشجعك على العمل والإقبال على الله، بدلا ً من اليأس والقنوط.
2. الحافز للعمل الدؤوب: وعد الله بالرزق الكريم يجعل كل تعب في الدنيا يهون .فأنت تعمل وأنت تعلم أن هناك راحة أبدية، ورزقاً لا ينفد ينتظرك .هذا هو وقود الصبر والثبات.
3. إعادة تعريف النجاح: النجاح الحقيقي ليس في جمع المال والجاه في الدنيا، بل هو نيل "المغفرة والرزق الكريم" في الآخرة .هذا المفهوم يحررك من الضغط النفسي الذي يمارسه عليك المجتمع المادي، ويجعلك تسعى نحو هدف أسمى وأبقى.
الأمر الرابع:
طريق الخسران (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

الآن، ينتقل الخطاب إلى الفريق الآخر: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾.

· دلالة "سَعَوْا":
السعي هو المشي السريع مع بذل الجهد .ويدل على الاجتهاد والمثابرة والحرص .فكما اجتهد المؤمنون في العمل الصالح، اجتهد الكافرون في محاربة آيات الله .وهذا يدل على أن الكفر ليس مجرد جهل، بل هو عمل وسعي وجهد يبذله أهله لإبطال الحق وإطفاء نور الله.
· دلالة "فِي آيَاتِنَا":
آيات الله تشمل الآيات الكونية) الخلق (والآيات الشرعية) القرآن .(وسعيهم في آيات الله يكون بمحاولة تعجيزها وإبطالها .فمنهم من يسعى لتكذيب القرآن والطعن فيه، ومنهم من يسعى لصرف الناس عنه، ومنهم من يبذل جهده لإنكار وجود الخالق من خلال آياته في الكون.
· دلالة "مُعَاجِزِينَ":
اسم فاعل من "عاجز" أي حاول أن يُعجز غيره، أو نسبه إلى العجز .والمعنى: أنهم يسعون في آيات الله معتقدين أنهم سيعجزون الله ويفلتون من عقابه، أو يسعون في إبطالها معاندين معتقدين أن الله لن يقدر عليهم .وقرئت أيضاً "مُعَجِّزين" بتشديد الجيم، أي مثبطين غيرهم عن الإيمان، يضعون العوائق والعقبات في طريق الدعوة .إنه سعي حثيث يبذلونه ظانين أنهم قادرون على الهرب أو التعجيز.
· أمثلة تقريبية للحياة العملية:
· المدير المتسلط: مدير يستخدم سلطته لمنع الموظفين الملتزمين من أداء صلاتهم في وقتها، أو يضطهدهم بسبب تدينهم .هذا سعي منه في آيات الله ليصرف الناس عنها، ظاناً أن سلطته تحميه.
· الإعلامي المضلل: صحفي أو إعلامي يبذل جهده في بث الشبهات حول الإسلام والقرآن، ويسعى لتشويه صورته، وهو يظن أنه بذلك يعجز دين الله ويصد الناس عنه.
· العالم المادي الملحد: عالم يبذل سنوات عمره في أبحاثه ليصل إلى نظرية تنفي وجود الخالق، متوهماً أن علمه سيعجز قدرة الله أو يفسر الكون بدونه.
الأمر الخامس:
الجزاء للكافرين (أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

ثم يأتي البيان الإلهي الحاسم: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

· دلالة تنكير "عَذَاب":
التنكير للتعظيم والتهويل .فليس عذاباً عادياً، بل هو عذاب لا يُتصور مداه، عذاب مهول عظيم.
· دلالة "مِّن رِّجْزٍ":
"من" للتبعيض أو لبيان الجنس ."الرجز" هو أشد العذاب وأفظعه، وهو العذاب الذي تضطرب له النفوس وترتجف منه الأبدان .وقيل هو الرجس والعذاب المهين .فكأن هذا العذاب الأليم مأخوذ ومستخلص من أشد أنواع العذاب وأفظعها.
· دلالة "أَلِيمٌ":
صفة مؤكدة، أي مؤلم موجع بذاته، لا يوصف ألمه .وهو مقابل "الرزق الكريم" في الآية السابقة . فكما أن رزق المؤمنين كريم دائم، فإن عذاب الكافرين أليم دائم.
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

1. العدالة الإلهية: كما أن المؤمنين ينالون جزاءهم العادل على سعيهم في الخير، فإن الكافرين ينالون جزاءهم العادل على سعيهم في الشر .فلا يظلم ربك أحداً.
2. تحذير وتخويف: هذا الوصف للعذاب هو تحذير للغافلين، ودعوة لهم للعودة قبل فوات الأوان . إنه رحمة من الله بعباده أن بين لهم سوء المصير قبل أن يقعوا فيه.
3. تثبيت المؤمنين: عندما يرى المؤمنون ما ينتظر أعداء الله من عذاب، فإن ذلك يزيدهم ثباتاً ويقيناً بأنهم على الحق، ويخفف عنهم ما يرونه من تسلط الكافرين في الدنيا.
**أبعاد الآيتين والقيم التي تدعوان إليها

بعد هذا التحليل، تتضح لنا الأبعاد العظيمة لهاتين الآيتين:

أولا ً: الأبعاد العقدية والفكرية:

1.بعد الربط بين الإيمان والعمل: الآية ترسخ قاعدة عقدية كبرى: الإيمان يثمر عملا ً، والعمل الصالح دليل على صحة الإيمان .فلا انفصال بينهما.
2.بعد إثبات الحكمة والعدل الإلهي: خلق الساعة للجزاء هو الدليل القاطع على أن الله حكيم عادل، لا يترك الخلق سدى.
3.بعد تحديد معيار التفاضل الحقيقي: التفاضل عند الله ليس بالمال أو النسب، بل ب-) آمنوا وعملوا الصالحات.(

ثانياً: الأبعاد النفسية والوجدانية:

1.بعد الأمل والرجاء: تقديم جزاء المؤمنين وتفصيله بالمغفرة والرزق الكريم يملأ القلب رجاءً وطمعاً في رحمة الله.
2.بعد الخوف والخشية: وصف عذاب الكافرين بالرجز الأليم يزرع في النفس خشية من الله، ورغبة في الفرار منه إلى طريق الإيمان والعمل.
3.بعد الرضا والطمأنينة: اليقين بأن الجزاء العادل آتٍ، يجعل المؤمن يعيش في طمأنينة ورضا، لأنه يعلم أن الله لن يضيع أجر المحسنين.

ثالثاً: القيم التي تدعوان إليها:

1.قيمة الإيمان والعمل المتلازمين.
2.قيمة المسؤولية الفردية) كل ساع سيجازى بسعيه.(
3.قيمة الأمل والتفاؤل) باب المغفرة والرزق الكريم مفتوح.(
4.قيمة الصبر والثبات) في مواجهة سعي المعاجزين.(
5.قيمة العدل والإنصاف) في الحكم على الأمور وفق معايير الآخرة.(
**كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

والآن، كيف نعيش هاتين الآيتين في تفاصيل حياتنا اليومية والمهنية؟

١.في بيئة العمل والوظيفة:

· تطبيق) آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(: اجعل إيمانك هو بوصلتك في العمل .إذا كنت محاسباً، فإيمانك يمنعك من التلاعب بالأرقام .إذا كنت مهندساً، فإيمانك يدفعك لإتقان البناء وعدم الغش .إذا كنت طبيباً، فإيمانك يحملك على رحمة المرضى وإخلاص النصح لهم .اعمل وكأنك تعمل لترى ثمرة عملك في ميزان "المغفرة والرزق الكريم"، وليس فقط في رضا المدير أو زيادة الراتب.
· تطبيق) سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ(: في كل بيئة عمل، يوجد من يسعى للإفساد وتعطيل الإنتاجية ونشر السلبية .هؤلاء يمثلون نموذجاً من "السعي في الآيات معاجزين" .فكن أنت النموذج المضاد، الذي يسعى في الخير والإصلاح.

٢.في التعامل مع وسائل التواصل والإعلام:

· تطبيق) سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ(: في عالم السوشيال ميديا، ترى جيوشاً إلكترونية تسعى لنشر الشبهات والطعن في الدين والقيم، وتسعى بكل جهدها لتضليل الناس .هؤلاء هم "الذين سعوا في آياتنا معاجزين" .دورك أن تكون إيجابياً، تنشر الخير، وتدافع عن الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تكن متلقياً سلبياً.

· تطبيق) آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(: يمكنك أن تجعل من منصات التواصل منبراً للعمل الصالح: نشر آية، أو حديث، أو قصة مؤثرة، أو نصيحة نافعة .هذه كلها أعمال صالحة تُكتب في سجل "المغفرة والرزق الكريم".

.٣في التربية الأسرية:

· تطبيق) لِيَجْزِيَ(: ربِّ أبناءك على أن الحياة دار جزاء .لا تقل لهم فقط "افعل الخير"، بل علمهم لماذا ؟ قل لهم: لأن الله سيجزيك عليه الجنة .وازرع فيهم أن كل تعب في الدراسة، وكل جهد في مساعدة الآخرين، هو استثمار في "الرزق الكريم" المنتظر.
· تطبيق) مَّغْفِرَةٌ(: علمهم أنه لا يوجد إنسان كامل، وكلنا نخطئ، لكن الله غفور رحيم .هذا يمنعهم من اليأس والقنوط، ويشجعهم على التوبة والرجوع إلى الله.

.٤في التخطيط الشخصي والأهداف:

· تطبيق) أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(: لا تجعل كل أهدافك دنيوية .ضع ضمن قائمة أهدافك اليومية والأسبوعية هدفاً مثل: "اليوم سأتصدق بصدقة سر"، أو "سأقرأ جزءاً من القرآن بتدبر"، أو "سأصل رحمي" .هذه الأعمال هي رأس مالك الحقيقي الذي سينجيك يوم الجزاء .اجعل الآخرة هي الهدف الأكبر الذي تسعى إليه بكل أعمالك.
**دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

هاتان الآيتان الكريمتان لا تقدمان مجرد وعظ فردي، بل تضعان أساساً صلباً لبناء حضارة إنسانية راقية.

.١في بناء الإنسان) عقيدة وسلوكاً(:

· إنسان متوازن: الآيتان تبنيان إنساناً يجمع بين الرجاء والخوف) مغفرة ورزق كريم مقابل عذاب أليم(، وبين الإيمان والعمل .هذا التوازن هو سر الصحة النفسية والعقلية للإنسان.
· إنسان فاعل ومنتج: التركيز على "وعملوا الصالحات" يجعل الإيمان محركاً للإنتاج والعمل، وليس قعوداً وتواكلا ً .إنه يصنع إنساناً يبني ويعمر، لأنه يريد أن يرى أثر عمله في الآخرة.

.٢في بناء المجتمع) قيم وأخلاقاً(:

· مجتمع العدالة والمسؤولية: إذا استقر في نفوس أفراد المجتمع أن هناك يوماً للجزاء، وأن الله سيجزي كل إنسان بما كسبت يداه، فإن ذلك يغرس قيماً عظيمة مثل: العدل، والأمانة، وإتقان العمل، واحترام حقوق الآخرين .فيصبح المجتمع كله متعاوناً على البر والتقوى.
· مجتمع متفائل ومتسامح: الإيمان بالمغفرة يجعل المجتمع متسامحاً، يعفو عن المخطئ، ويقبل التائب .كما أن اليقين بالجزاء العادل يمنح المجتمع تفاؤلا ً وأملا ً في مستقبل أفضل.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية) منهج وغاية(:

· حضارة ربانية الغاية: الحضارة التي تبنيها هذه المفاهيم هي حضارة لا تنفصل فيها الدنيا عن الآ خرة .الإنجاز المادي والعمران هو جزء من "العمل الصالح" الذي يُبتغى به "الرزق الكريم" في الآخرة .ف المهندس الذي يبني جسراً آمناً، والطبيب الذي يداوي المرضى، والعالم الذي يكتشف دواءً، كلهم يعملون وهم يستحضرون غاية الآخرة .هذا هو سر دوافع الحضارة الإسلامية وقوتها.
· حضارة إنسانية أخلاقية: لأن الغاية هي الآخرة والجزاء على العمل، فإن هذه الحضارة تقوم على الأ خلاق والقيم .فهي حضارة لا تبيح الوسائل من أجل الغايات، بل العمل الصالح هو الذي يوصل إلى الغاية النبيلة .وهذا ما يميز الحضارة الإسلامية عن الحضارات المادية البحتة.

وفي الختام، أيها القارئ الكريم، هاتان الآيتان بمثابة البوصلة التي لا تخطئ. إنهما تضعان أمامك خيارين واضحين: طريق الإيمان والعمل، ونهايته مغفرة ورزق كريم، وطريق السعي في آيات الله بـ التعجيز، ونهايته عذاب من رجز أليم.

والآن، والسؤال موجه إليك أنت، نعم إليك أنت أيها المخاطب بهذا القرآن: أين ترى نفسك في هاتين الآيتين؟ في أي الفريقين تحب أن تكون؟ إنها فرصتك الذهبية، فما زالت الدنيا دار عمل، وما زال باب المغفرة مفتوحاً، وما زال الرزق الكريم ينتظر من يسعى له بصدق. فاختر لنفسك، واجعل حياتك

ترجمة عملية لـ "آمنوا وعملوا الصالحات"، واعلم أن كل خطوة تخطوها في هذا الطريق تقربك من المغفرة والرزق الكريم.

خامسا

أيها السائر في دروب الحياة، الباحث عن اليقين في زمن الشكوك، المتعطش إلى نور الحقيقة وسط عتمة الأهواء، تعال بقلبك وعقلك ووجدانك، ودعنا نقف معاً في رحاب آية هي من أعظم آيات القرآن في بيان العلاقة الوثيقة بين العلم والهداية، بين المعرفة الصحيحة والطريق إلى الله. إنها الآية التي تكشف لك سر القلوب المستنيرة، وتجيب عن سؤال لطالما شغل ألباب المفكرين: ما هو العلم الحقيقي ؟ وما ثمرته؟

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يفتح لك كنزاً من كنوز الفهم: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6].

هذه الآية الكريمة، وإن كانت مختصرة في ألفاظها، إلا أنها موسوعة إيمانية متكاملة. إنها ترسم لك صورة العالم الرباني الحق، وتفرق بين علم هو نور وهدى، وعلم هو غرور وعمى. إنها تدعوك أن تكون من "الذين أوتوا العلم" الذين أبصرت قلوبهم الحق فاتبعوه، فكان جزاؤهم أن اهتدوا إلى صراط العزيز الحميد.

مقاصد السورة وموقع هذه الآية

في سياق سورة سبأ، وبعد أن أثبتت الآيات السابقة حقيقة البعث والجزاء، وذكرت مصير المؤمنين و الكافرين، تأتي هذه الآية لتبين موقف أهل العلم والبصيرة من هذا القرآن الذي جاء به النبي ﷺ. فبينما يكابر الكافرون ويسعون في آيات الله معاجزين، يقف أهل العلم موقفاً آخر تماماً: ﴿يَرَى﴾ بقلوبهم وعقولهم أن هذا القرآن هو الحق، وأنه يهدي إلى الصراط المستقيم. إنها آية تضع الميزان الدقيق للتمييز بين من ينتفع بالعلم ومن يضل به، وبين نور الهداية وظلمة الضلال.

الأمر الأول:

دلالة ربط المعرفة بالإيمان (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

انظر إلى هذه البداية العجيبة: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. الفعل "يَرَى" هنا ليس مجرد رؤية بصرية، بل هو رؤية قلبية وبصيرة عقلية، وهي أعلى درجات العلم والمعرفة. إنها الرؤية التي تفضي إلى اليقين الجازم الذي لا يتزعزع.

· دلالة) يَرَى (بصيغة المضارع:

صيغة المضارع تفيد الاستمرار والتجدد .فرؤية أهل العلم للحق ليست لحظة عابرة، بل هي رؤية مستمرة متجددة، كلما تدبروا آية ازدادوا يقيناً، وكلما تأملوا حكمة ازدادوا إيماناً .إنها حالة دائمة من البصيرة والوعي.

· دلالة) الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ(:

هذا التعبير القرآني البديع يكشف عن حقيقة العلم النافع .إنهم لم يقولوا "الذين تعلموا" أو "الذين حفظوا"، بل "أُوتُوا الْعِلْمَ" أي أنهم أعطوا العلم عطاءً وهبةً من الله بعد سعيهم وأخذهم بالأسباب . وهذا يعني أن العلم الحقيقي هو:

1. منحة إلهية: فهو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده.
2. مرتبط بالأدب مع الله: فالمؤمن لا ينسب العلم لنفسه، بل يرى أنه أوتيه من فضل الله.
3. مقرون بالمسؤولية: فمن أوتي علماً، فهو مؤتمن عليه، ومسؤول عنه أمام الله.

· لماذا خص الله "الذين أوتوا العلم" بالذكر؟

الإجابة تكمن في أن العلم الصحيح هو الذي يكشف حقيقة الأشياء .الكافر قد يرى القرآن فلا يرى فيه إلا كلاماً، أما العالم المؤمن فيرى فيه الحق والهدى والنور .فالفرق بينهما هو العلم النافع الذي يزيل الغشاوة عن البصائر .يقول قتادة رحمه الله: "أولئك علماء اليهود والنصارى الذين كانوا يعلمون أن ما جاء به محمد حق قبل أن يبعثه الله، فآمنوا به حين بعث" .فالعلم الحقيقي يقود إلى الإيمان بالحق لا محالة.

· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

1. العلم الشرعي هو منبع البصيرة: الآية تضع قيمة عظيمة للعلم الشرعي المؤدي إلى معرفة الله . إنه العلم الذي ينير الطريق، ويجعل الإنسان يميز الحق من الباطل في خضم فتن الحياة وشبهاتها.
2. مكافأة العلم الحقيقي: الله يجازي العلماء بأن يفتح بصائرهم لرؤية الحقائق التي يغفل عنها

غيرهم .فرؤية أن القرآن حق هي هبة إلهية تتنزل على القلوب العامرة بالعلم النافع.
3. التواضع لله: شعور العالم بأنه "أوتي" العلم يجعله متواضعاً لله، شاكراً لنعمته، فلا يتكبر بعلمه، بل يزداد خشية.

الأمر الثاني:

ما هو "الحق" الذي يراه أهل العلم؟ (الذي أنزلَ إليكَ من ربّكَ هُوَ الحَقّ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن ذكر الفاعل (الذين أوتوا العلم)، ذكر المفعول الذي يرونه: ﴿الذي أنزلَ إليكَ من ربّكَ هُوَ الحَقّ﴾.

· دلالة) الذي أنزلَ إليكَ(:

هو القرآن الكريم .وتعبير "أنزل" يدل على أنه نزل من علو، من عند الله العلي العظيم، وليس من عند بشر .فهو وحي إلهي خالص .وقوله "إليكَ" خطاب للنبي ﷺ، فيه تشريف له، وتثبيت لقلبه بأن هذا الحق الذي يراه العلماء هو ما أُنزل عليه.

· دلالة) من ربّكَ(:

إضافة الرب إلى النبي ﷺ "ربك" فيها أعظم تكريم وأبلغ تطييب لخاطره .فكأن الله يقول له: لا تحزن لتكذيب الكافرين، فهؤلاء العلماء يرون أن ما أنزل إليك هو الحق من ربك الذي رباك واصطفاك . إنها لمسة حانية من الله لنبيه.

· دلالة) هُوَ الحَقّ(:

تعريف الخبر "الحق" بأل، وتقديم الضمير "هو"، يفيد الحصر والقصر .أي أن ما أنزل إليك هو الحق الكامل الذي لا يشوبه باطل، وكل ما عداه مما يعارضه فهو الباطل .فرؤية أهل العلم أنه الحق تعني:

1. حق في أخباره: فكل ما أخبر به عن الله والملائكة واليوم الآخر هو حق لا مرية فيه.
2. حق في أحكامه: فكل ما شرعه من أوامر ونواهي هو الحق والعدل والصلاح للعباد.
3. حق في ذاته: فالقرآن نفسه هو الحق، تنزيل من حكيم حميد.

· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:

1. معيار الحق: الآية تضع معياراً واضحاً للحق: هو ما أنزله الله على رسوله .فكل فكرة أو عقيدة أو نظام يجب أن يعرض على هذا الميزان، فما وافقه فهو حق، وما خالفه فهو باطل.
2. الثقة المطلقة بالقرآن: عندما تتيقن أن القرآن هو "الحق"، فإنك تتعامل معه بثقة مطلقة .تثق في وعده ووعيده، وتثق في قصصه وأخباره، وتثق في تشريعاته وأحكامه .هذه الثقة هي أساس الإيمان والهداية.
3. الشفاء من الشكوك: في عصر تكثر فيه الشبهات، هذا الإعلان الإلهي "هُوَ الحَقّ" هو الترياق الشافي .إذا دخلت شبهة إلى قلبك، فعد إلى هذا الأصل: القرآن حق، وسيظهر لك بطلان كل ما يخالفه.

الأمر الثالث:

ثمرة العلم الحقيقي ورؤية الحق (وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي الثمرة الكبرى، والنتيجة الطبيعية: ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾.

· دلالة الفعل) يَهْدِي(:

الفعل مضارع يفيد الاستمرار .فالقرآن لا يهدي مرة واحدة ثم يتوقف، بل هو هداية متجددة دائمة . كلما قرأته وتدبرته، وجدت فيه هداية جديدة تناسب حالك وتجيب عن أسئلتك.

· وصف الصراط: ﴿صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾:

الصراط هو الطريق الواضح المستقيم .وإضافته إلى اسمين عظيمين من أسماء الله: "العزيز" و "الحميد" ، يحمل دلالات باهرة:

· العزيز: الغالب القوي الذي لا يُغلب، العزيز الذي لا يذل من استمسك بصراطه .فمن سار على هذا الطريق، فهو في عز وحصانة، لا يضره كيد الكائدين .هذا يمنح المؤمن قوة وثقة وشجاعة.

· الحميد: المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله، المستحق للحمد كله .فالصراط الذي يهدي إليه القرآن يؤدي إلى الله الحميد، فيكون السائر عليه محمود العاقبة، مستوجباً لحمد الله وثنائه .وهذا يملأ قلب المؤمن أملاً وسعادة.

· الربط بين الهداية والعزة والحمد:

هذا الربط هو درس عظيم .الطريق إلى الله ليس طريق ذل وهوان، بل هو طريق عزة وكرامة . ليس طريق شقاء وتعاسة، بل هو طريق حمد وسعادة .فمن ظن أن التدين يقيد حريته أو يضيق

عليه دنياه، فليتأمل هذه الآية: صراط العزيز الحميد.
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. العلم النافع يهدي إلى الله: هذه هي العلامة الفارقة للعلم الحقيقي .العلم الذي لا يهدي إلى الله، ولا يزيد صاحبه خشية وإيماناً، هو علم لا قيمة له في ميزان الآخرة، وقد يكون وبالاً على صاحبه .كما قال النبي ﷺ:» اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع.«
2. القرآن منهج حياة: الآية تؤكد أن القرآن ليس كتاباً للتبرك فقط، بل هو منهج هداية يهدي إلى الصراط المستقيم في كل جوانب الحياة: العبادة، الأخلاق، المعاملات، الاقتصاد، السياسة.
3. الشعور بالعزة والكرامة: عندما تجعل القرآن هاديك، فإنك تستمد عزتك من الله العزيز، فلا تخضع إلا له، ولا تذل لمخلوق .وتستشعر حمد الله لك وتوفيقه، فتعيش حياة طيبة مطمئنة.
ثانيا المحاور تفصيلية:
المحور الاول : أسئلة جوهرية وإجابات من صميم الآية

١.ما هي العلاقة بين العلم والهداية في الآية؟
العلاقة هي علاقة سبب ونتيجة، وعلاقة نور وطريق. العلم النافع هو النور الذي يضيء الطريق، و الهداية هي السير على ذلك الطريق. "الذين أوتوا العلم" يرون الحق، فتهديهم هذه الرؤية إلى الصراط المستقيم. فالعلم بلا هداية عمل هو وبال، والهداية بلا علم صحيح ضلال. إنها معادلة متكاملة: علم يقود إلى عمل (هداية)، وعمل يثمر عن علم جديد ويقين متجدد.

٢.لماذا خص الله "الذين أوتوا العلم" بالرؤية؟
لأنهم هم الذين طهروا عقولهم وقلوبهم بمعرفة الله وتدبر آياته. الكافر يرى القرآن بسطحية أو بعين الحقد، فلا يرى حقيقته. أما العالم المؤمن فينظر إليه بعين البصيرة التي أنارها الله بالعلم، فيرى الحق جلياً. كما قال الشاعر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد *** وينكر الفم طعم الماء من سقم

٣.ما المقصود بـ "الحق" في الآية؟
المقصود بالحق هو القرآن الكريم بكل ما فيه: عقائده، وشرائعه، وأخباره، وأخلاقه. إنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكل ما سواه مما يعارضه فهو باطل زاهق.

٤.كيف تصف الآية الصراط الذي يهدي إليه القرآن؟
تصفه بأنه ﴿صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾. إنه صراط:

· قويم معتدل: لا إفراط فيه ولا تفريط.
· عزيز: من سار فيه فهو في حرز الله وعزه، لا يخاف ظلماً ولا هضماً.
· محمود العاقبة: نهايته رضا الله وحمده، والجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

٥.ما الفرق بين العلم الذي يهدي والعلم الذي يضل؟
هذا سؤال جوهري، والآية تضع الميزان الدقيق:

· العلم الذي يهدي) العلم النافع(: هو العلم الذي يقود صاحبه إلى رؤية الحق) القرآن وما جاء به النبي ﷺ (والاهتداء به إلى صراط الله .ثمرته: خشية الله، التواضع، العمل الصالح، الإخلاص، خدمة الخلق.
· العلم الذي يضل) العلم غير النافع(: هو العلم الذي يورث صاحبه كبراً وغروراً وصدوداً عن الحق .قد يكون علماً دنيوياً) كعلوم الطبيعة والفلك (يُستخدم لإنكار الخالق والطعن في الدين، أو قد يكون علماً شرعياً سطحياً يُستخدم للمراءاة والجدال الباطل .ثمرته: القسوة، الغرور، البعد عن الله .وقد قال النبي ﷺ:» إن أخوف ما أخاف عليكم منافق عليم اللسان .«فالعلم الذي لا يهدي إلى الله هو حجة على صاحبه يوم القيامة.
المحور الثاني
كيف أجعل نفسي من "الذين أوتوا العلم" المشار إليهم في الآية؟

هذا هو السؤال العملي، والوصفة القرآنية واضحة:

1.الإخلاص في طلب العلم: أن تطلب العلم لترفع الجهل عن نفسك، وتعبد الله على بصيرة، وتنفع الناس، لا لتنال جاهاً أو شهرة.
2.تدبر القرآن وتلقي العلم الشرعي من منابعه الصافية: اجعل لك ورداً يومياً من القرآن بتدبر، واطلب

العلم الشرعي على أيدي العلماء الربانيين الثقات، بعيداً عن أهل الأهواء والبدع.
.3العمل بالعلم: هذه هي العلامة الفارقة .هل ما تعلمته من القرآن والسنة يغير سلوكك؟ هل يزيدك خشوعاً في الصلاة؟ هل يمنعك من الغيبة والكذب؟ هل يحملك على صلة الرحم وبر الوالدين؟ إذا كان الجواب نعم، فأنت على طريق "الذين أوتوا العلم".
.4الدعاء واللجوء إلى الله: سل الله أن يهبك علماً نافعاً، وقل كما علمنا النبي ﷺ:» اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً.«
.5التواضع وعدم الاغترار: تذكر دائماً أنك "أوتيت" هذا العلم من فضل الله، فكن متواضعاً، وكلما ازددت علماً ازددت خشية لله.

المحور الثالث

ماذا أستفيد من ربط الهداية بـ "العزيز الحميد"؟

ربط الهداية بهذين الاسمين الجليلين ليس مجرد إخبار، بل هو تربية للوجدان وبناء للشخصية:

· الشعور بالعزة والكرامة: إذا كنت تسير على صراط العزيز، فأنت في حماه .لا تخف من بطش الطغاة ، ولا تحزن على مكر الحاقدين .أنت عبد للعزيز القوي، فكن عزيزاً بدينك، شامخاً بإيمانك .هذه العزة تمنعك من التذلل لغير الله في طلب الرزق أو المنصب.
· استشعار الحمد والامتنان: صراط الحميد يذكرك بأن الله محمود في كل حال، فتحمده على السراء والضراء .وإذا شعرت بأن الله يحمدك على سيرك في صراطه) كما في قوله: "يدخلهم مدخلا ً يرضونه"(، فإن ذلك يملأ قلبك فرحاً وسكينة ورضاً عن الله.
· تحقيق التوازن النفسي: الجمع بين العزة والحمد يخلق شخصية متوازنة: قوية في الحق، لينة في الخلق، لا تطغى بالقوة، ولا تذل بالضعف.

المحور الرابع

كيف يظهر يقيني بأن القرآن هو الحق في سلوكي وتعاملي المالي والاجتماعي؟

اليقين ليس مجرد كلمة تقال، بل هو سلوك عملي يترجم في كل حركة وسكون. وإليك تطبيقات عملية:

أولا ً: في التعامل المالي:

· الأمانة في الكسب: إذا كنت تاجراً أو موظفاً، فإن يقينك بأن القرآن حق يمنعك من الغش، والرشوة، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل .تعلم أن الله حرم ذلك في كتابه، فتطيعه طاعة يقين.
· الإنفاق في وجوه الخير: تخرج الزكاة طيبة بها نفسك، وتتصدق لأنك توقن أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الله وعدك بالخلف .فلا يغلبك الشح، ولا يمنعك الخوف من الفقر عن العطاء.
· التوكل على الله في الرزق: تسعى في طلب الرزق، ولكنك لا تقلق ولا تحزن، لأنك موقن أن رزقك بيد الله، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها.

ثانياً: في التعامل الاجتماعي:

· الصدق والأمانة في الحديث: لا تكذب، ولا تخلف الوعد، ولا تخن الأمانة، لأن القرآن نهاك عن ذلك، وأنت موقن أنه الحق.
· العفو والتسامح: إذا أخطأ في حقك أحد، فأنت تعفو وتصفح، لأن القرآن حثك على العفو، ووعدك بأجر عظيم .يقينك بهذا الوعد يجعلك تتجاوز عن الإساءة.
· العدل والإنصاف: تقف مع الحق ولو على نفسك أو أقرب الناس إليك، لأن القرآن أمرك بالعدل، وهو الحق.
· حسن الخلق: تبتسم في وجه الناس، وتلين جانبك، وتحسن إلى جارك، وتصل رحمك، لأن هذه هي أخلاق القرآن، وأنت موقن أن الالتزام بها هو طريق الفلاح.

المحور الخامس

هل أسعى إلى. تعلم الحقائق القرآنية وتطبيقها أم أكتفي بالقراءة السطحية؟

الجواب في الآية نفسها: ﴿يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. الرؤية العميقة هي ثمرة العلم العميق. القراءة السطحية قد لا تتجاوز الحناجر، أما التدبر والفهم والتطبيق فهو الذي يجعلك من "الذين أوتوا العلم".

· ماذا تعني القراءة السطحية؟ هي قراءة هَمُّها ختم السورة أو الجزء، دون تفكر في المعاني، ودون وقوف عند الأوامر والنواهي، ودون محاولة ربط الآيات بالواقع .هي كمن يقرأ وصفة دواء دون أن يتناول الدواء!

· ماذا تعني القراءة الواعية؟ هي قراءة المتدبر الذي يسأل نفسه: ماذا يريد الله مني في هذه الآية؟ كيف أطبقها؟ هل أنا ممن ينطبق عليهم هذا الوصف أم لا؟ إنها قراءة تغير السلوك وتصنع الرجال.

فاسأل نفسك دوماً، واجعل شعارك: "اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً".
المحور السادس

كيف أرى القرآن هداية في حل مشاكلي الشخصية والمهنية؟

القرآن ليس كتاباً للشعائر فقط، بل هو دليل المستخدم للحياة . للوصول إلى هذه المرحلة، تحتاج إلى:

.1حسن الظن بالقرآن: أن تؤمن أن فيه حل كل مشكلة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل:.[89
.2التدبر المباشر: عندما تواجهك مشكلة مالية، أو أزمة عائلية، أو ضائقة نفسية، أو تحدي في العمل، ارجع إلى القرآن .ابحث عن الآيات التي تتحدث عن الصبر، أو التوكل، أو الكسب الحلال، أو الإصلاح بين الناس.
.3التطبيق العملي: بعد أن تجد الهداية في الآية، طبّقها فوراً.
· مثال عملي لمشكلة مهنية: مدير ظالم في العمل .القرآن يهديك إلى الصبر، وإتقان العمل، والدعاء ، وفي نفس الوقت يعطيك العزة بأن لا ترضى بالظلم، وتسعى لتغييره بالطرق المشروعة .هذا التوازن تجده في قصص الأنبياء مع أقوامهم.
· مثال لمشكلة نفسية) قلق واكتئاب(: القرآن يهديك إلى كثرة الذكر، والتوكل، واليقين بأن مع العسر يسراً، ويربطك بالآخرة فتهون الدنيا .قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد:.[28
المحور السابع
كيف أجعل من أوامر القرآن ونواهيه منهجاً لتربية النفس وتزكيتها؟

هذا هو جوهر التدين. اتبع هذه الخطوات العملية:

.1جرد الأوامر والنواهي: اجعل لك دفتراً تسجل فيه ما تمر به من أوامر قرآنية) مثل: أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، اعدلوا، اعفوا (ونواهي) مثل: لا تقربوا الزنا، لا تأكلوا الربا، لا تغتابوا.(
.2المجاهدة التدريجية: لا تحاول تطبيق كل شيء دفعة واحدة، بل ابدأ بالأهم فالمهم .جاهد نفسك على أداء الصلاة في وقتها، ثم جاهدها على منع اللسان من الغيبة، وهكذا.
.3محاسبة النفس اليومية: قبل النوم، راجع يومك .اسأل نفسك: هل امتثلت لأوامر القرآن اليوم؟ هل اجتنبت نواهيه؟ فإن وجدت خيراً فاحمد الله، وإن وجدت تقصيراً فتب واستغفر.
.4الرفقة الصالحة: الصاحب الذي يذكرك بالقرآن ويحثك على تطبيقه هو خير معين لك في هذا الطريق.
المحور الثامن
هل أشعر بعزة الله وحمده في تفاصيل يومي؟ (ما تدعو إليه الآية: صراط العزيز الحميد)

نعم، هذا هو مقصد الآية العظيم. أن تنتقل من المعرفة الذهنية إلى الحياة الوجدانية التي تستشعر فيها هذه الصفات في كل لحظة:

· في الصباح: عندما تستيقظ، احمد الله) الحميد (على أن رد إليك روحك .واشعر بعزة الإيمان وأنت تتوضأ وتصلي الفجر، فأنت في ذمة الله) العزيز.(
· في عملك: عندما تشعر بالضغط أو الخوف من رئيسك، تذكر أنك تسير على صراط) العزيز(، فلا تذل ولا تخضع إلا للحق .وعندما تنجز عملك، احمد الله) الحميد (الذي وفقك.
· في الأزمات: عندما تمر بمرض أو ضيق، تذكر أن الله) العزيز (قادر على كشفه، وهو) الحميد (المحمود على كل حال، فتصبر وتحمد.
هذا الشعور الدائم يحول حياتك كلها إلى عبادة حية متصلة بالله.
المحور التاسع
ما هو العلم الحقيقي وعلاقته بالعمل وأداة الإنسان للصراط المستقيم؟

العلم الحقيقي كما صورته الآية هو العلم الذي يقود إلى العمل. إنه ليس مجرد معلومات تُخزن في العقل، بل هو نور في القلب يدفع إلى الحركة والسير على الصراط المستقيم.

· العلم بلا عمل: هو كالشجرة التي لا تثمر، حجة على صاحبها .قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ

تقولونَ مَا لَا تفعَلونَ * كبُرَ مَقتًا عِندَ اللهِ أن تقولوا مَا لَا تفعَلونَ}:] الصف:2 -.[3
· العلم مع العمل: هو الذي يجعل من الإنسان أداة للسير على الصراط المستقيم .فالعلم يريه الطريق)يهدي إلى صراط العزيز الحميد(، والعمل يجعله يخطو فيه خطوة بعد خطوة .فإذا انفصل العلم عن العمل، تاه الإنسان أو توقف.

ما هو العلم الذي لا قيمة له ولا يُسمى صاحبه عالماً؟
في ضوء هذه الآية، العلم الذي لا قيمة له هو:

· العلم الذي لا يؤدي إلى معرفة الله وخشيته.
· العلم الذي لا يهدي صاحبه إلى صراط العزيز الحميد.
· العلم الذي يورث صاحبه كبراً وغروراً وجدالاً بالباطل.
· العلم الذي يُتخذ وسيلة للدنيا والتكالب عليها.
وقد كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من هذا العلم، فيقول:» اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها .«فليس كل من يحمل شهادة أو يحفظ نصوصاً يُسمى "عالماً" بالمفهوم القرآني، بل العالم الرباني هو من خشي الله وعمل بعلمه وكان علماً على الهدى.
المحور العاشر
دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

هذه الآية الكريمة، وهي تضع هذا الميزان الدقيق، تؤسس لمنظومة حضارية كاملة:

.١في بناء الإنسان) العقيدة والفكر والسلوك(:

· إنسان ذو بصيرة: يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، فلا تلتبس عليه الأمور.
· إنسان هادف: يعيش وله هدف واضح هو الوصول إلى صراط العزيز الحميد، فتكون كل أعماله موجهة لتحقيق هذا الهدف.
· إنسان متوازن: يجمع بين العزة والكرامة) من "العزيز"(، والشكر والامتنان) من "الحميد".(
· إنسان متجدد اليقين: يزداد يقينه بالقرآن كلما تدبره، ويجد فيه هداية متجددة لكل مشاكله.

.٢في بناء المجتمع) قيم وتعاملات(:

· مجتمع الحق والعدل: إذا أصبح أفراده يرون القرآن حقاً، فسيدينون به، ويسود فيهم العدل والأمانة والصدق.
· مجتمع العلم النافع: تسوده ثقافة العلم الذي يهدي إلى الله، وليس العلم المادي المجرد عن القيم.
· مجتمع العزة والكرامة: ينعم أفراده بالعزة بالإسلام، فلا يخضعون لغير الله، ولا يذلون لأعدائه.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية) منهج وغاية(:

· حضارة الهداية الربانية: أساس هذه الحضارة هو القرآن الذي يهدي إلى صراط العزيز الحميد .إنها حضارة تنطلق من الوحي، وتستمد قيمها وأهدافها منه.
· حضارة العلم والعمل: لا تعرف هذه الحضارة الفصل بين العلم النظري والتطبيق العملي .فكل علم يقود إلى عمل صالح، وكل عمل صالح يزيد من العلم بالله.
· حضارة التوازن: تجمع بين القوة المادية) العزة (والقيم الروحية والأخلاقية) الحمد .(فلا تطغى القوة على الأخلاق، ولا تهمل القوة بحجة الروحانية.

وفي الختام، أيها القارئ الكريم، ها أنت ذا تقف على أعتاب هذه الآية العظيمة، وقد تجلت لك معانيها، واتضحت لك سبل الهداية فيها. إنها تدعوك إلى أن تنضم إلى ركب "الذين أوتوا العلم"، أولئك الذين فتح الله بصائرهم، فرأوا الحق حقاً، فساروا على صراطه، وعاشوا حياتهم في عزة لا ذل فيها، وحمد لا كفر فيه.

فابدأ من الآن. اسأل الله أن يجعلك منهم. واجعل القرآن ربيع قلبك، ونور صدرك، وجلاء حزنك، وذهاب همك. عش معه، تخلق بأخلاقه، واجعل تعاملاتك ترجمة عملية ليقينك بأنه الحق. وتذكر دائماً أن الطريق الذي تدعوك إليه هو صراط العزيز الحميد، فأي عز تبتغيه بعده؟ وأي حمد ترجوه سواه؟
القسم الثاني
موقف الكفار

أيها المتدبر لكتاب الله، لقد أوقفتنا الآية السادسة على مشهد عظيم: مشهد أهل العلم الذين فتح الله بصائرهم، فرأوا أن القرآن حق وهدى. والآن، وكأن الصورة تكتمل بالضد، تنقلنا الآية السابعة إلى المشهد المقابل تماماً: مشهد الذين كفروا وهم في غمرة غفلتهم، يتبادلون الاستهزاء والسخرية، ويحاولون صرف الناس عن رسول الله ﷺ وعن حقيقة البعث.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يعرض عليك هذا المشهد المثير للشفقة والسخرية في آن واحد:
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: 7].

هذه الآية ليست مجرد حكاية عن الماضي، بل هي مرآة تعكس لك ما يحدث في كل زمان ومكان. إنها تكشف لك عن حيلة المبطلين في مواجهة الحق: حين يعجزون عن الرد بالحجة والبرهان، يلجؤون إلى السخرية والاستهزاء والتنفير. إنها آية تضع يدك على مصدر الشكوك التي قد تهاجم قلبك، وتدربك على كيفية مواجهتها باليقين والعلم.

السياق القرآني وموقع الآية

بعد أن بينت الآية السادسة أن "الذين أوتوا العلم" يرون الحق ويتبعونه، تأتي هذه الآية لتصور الطرف الآخر: الذين كفروا الذين لم يؤتوا العلم النافع، فلم يروا الحق، بل رأوا في الدعوة إلى البعث مادة للسخرية. إنها مقابلة رائعة بين بصيرة العلم و عمى الكفر. فبينما العلم يهدي إلى رؤية الحق و اليقين به، يقود الكفر إلى الاستهزاء بالحق وإنكاره بأسلوب طفولي مستفز.
الأمر الأول:
دلالة قولهم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

انظر كيف يبدأ المشهد: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وصفهم بالكفر مباشرة، ليبين أن إنكارهم للبعث ليس عن دليل أو برهان، بل هو نتيجة طبيعية لكفرهم بالله. فمن كفر بالله العظيم القادر، سهل عليه أن يكذب بالبعث بعد الموت.

ثم يأتي أسلوبهم في الطرح: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾. هذا الأسلوب يحمل في طياته كل معاني التحقير والتهكم والاستخفاف.

· "هَلْ" للعرض، لكنه هنا عرض ساخر، كما يعرض عليك أحدهم أمراً تافهاً في نظره ليثير الضحك.
· "رَجُلٍ" نكرة، ولم يقولوا "محمد" أو "الرسول". إنهم يتعمدون تنكيره لتحقير شأنه، وكأنهم يقولون: "مجرد رجل منا، بشر مثلنا، يدعي هذه الدعوى العجيبة!".
· "يُنَبِّئُكُمْ" أي يخبركم إخباراً عجيباً غريباً. وهنا مكمن سخريتهم.
· أمثلة تقريبية من واقعنا:
· في بيئة العمل: مجموعة من الموظفين المهملين، يأتي زميل لهم مجتهد ويحثهم على تطوير العمل. بدلا ً من أن يناقشوا أفكاره، يقول أحدهم للآخرين بصوت ساخر: "يا جماعة، ما رأيكم؟ هل نستمع لهذا 'الموظف' الذي يخبرنا أننا إذا عملنا بجدية سنصبح مدراء؟!". إنه نفس الأسلوب: تحقير الشخص، وتجاهل مضمون الرسالة.
· في الإعلام: صحيفة أو قناة توجه سهام النقد لداعية أو مصلح، فلا تناقش مضمون ما يقول، بل تكتفي بوصفه بأنه "رجل دين" أو "شيخ" أو "واعظ" بأسلوب يقلل من شأنه، ثم تتهكم على أفكاره. إنه أسلوب "هل ندلكم على رجل".
· الرسالة التربوية والنفسية:
1. لا تنخدع بالأسلوب: الآية تعلمك أن أسلوب الاستهزاء والسخرية هو سلاح العاجز عن الإقناع بـ الحجة. فإذا رأيت أحداً يسخر من الحق وأهله، فاعلم أن الحجة معهم وليست معه.
2. ثبات الموقف الإيماني: كما صبر النبي ﷺ على هذا الاستهزاء، يجب عليك أنت أيضاً أن تصبر و لا تتراجع عن الحق إذا تعرضت للسخرية. فما هذا إلا دليل على أنك على طريق الأنبياء.
الأمر الثاني:
فحوى التهكم (يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والردود العلمية:

هنا يكشفون عن سبب سخريتهم: إخباره لهم بالبعث بعد أن يصبحوا تراباً وعظاماً ممزقة.

· دلالة (إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ):
هذا التعبير القرآني البليغ يصور حالة التحلل الكامل بعد الموت. "مزقتم" من التمزيق، وهو التقطيع والتفريق. و"كل ممزق" تأكيد على شدة التفرق وبلوغه الغاية. إنهم يتصورون أجسادهم وقد تحولت إلى ذرات متناثرة في الأرض، أكلتها الدواب، وفرقتها الرياح. وفي تصورهم القاصر، كيف يمكن أن يعاد جمع هذه الذرات مرة أخرى؟!
إنه نفس المنطق الذي حكاه القرآن عنهم في موضع آخر: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: 10]. "ضللنا" أي غبنا واختلطنا بالتراب.
· دلالة (إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ):
هذا هو ما ينبئهم به النبي ﷺ. وهم يستخدمون أداة التوكيد "إنّ" واللام "لَفِي" ليس على سبيل الإقرار، بل على سبيل الحكاية الساخرة. كأنهم يقولون: "انظروا إلى هذا الرجل، إنه يؤكد لنا بكل ثقة أننا سنُخلق خلقاً جديداً بعد أن نصير هباءً!".
· الرد على هذه الشبهة من خلال الآيات السابقة:
الآية لا تذكر الرد مباشرة، لأن الرد قد سبق وتكرر في الآيات السابقة وفي مواضع كثيرة من القرآن. لكن يمكننا استخلاص الرد من سياق سورة سبأ نفسها:
1. الرد من ملك الله المطلق (آية 1): إذا كان لله ملك السماوات والأرض، فكيف يعجز عن إعادة خلقكم؟! إن إعادة الخلق أهون من ابتدائه.
2. الرد من علم الله المحيط (آية 2 و 3): إذا كان الله يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ويعلم مثقال الذرة، أفلا يعلم أين تفرقت ذرات أجسادكم؟! إن جمعها عليه يسير.
3. الرد العقلي (آية 3): أليس الذي خلقكم أول مرة بقادر على أن يعيدكم؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].
· أمثلة تقريبية من العلم الحديث:
· البيانات الرقمية: تخيل أن لديك مقطع فيديو على هاتفك. إذا مسحته، فهل يعني ذلك أن المعلومات التي كانت فيه قد فنيت تماماً؟ كلا، فبإمكان خبراء استعادة البيانات استرجاعه ولو بعد حذفه، لأنه ترك أثراً. فكيف بالله الذي خلق كل شيء من العدم، ألا يكون قادراً على إعادته وهو أعلم بكل ذرة فيه؟!
· بصمة الـ DNA: حتى لو تحلل الجسد تماماً، يمكن للعلم الحديث استخلاص بصمة وراثية (DNA) من عظم أو شعرة واحدة بعد آلاف السنين. فإذا كان البشر استطاعوا حفظ "خريطة" الإنسان في خلايا، فكيف بالله الخالق الذي أودعها هذه الخريطة؟ إن إعادته لخلقهم أيسر بكثير.
**إجابات عن تساؤلات جوهرية تثيرها الآية

١.لماذا ينكر الكفار البعث مع وضوح الأدلة عليه؟
الجواب من الآية نفسها: لأنهم "كفروا". الكفر غطاء على القلب والعقل. هم لا يريدون أن يوقنوا بالبعث، لأن الإيمان به يترتب عليه مسؤوليات أخلاقية: ترك الشهوات المحرمة، والالتزام بالعدل، والخوف من الحساب. نفسياتهم الضعيفة لا تريد أن تتحمل هذا العبء، فأسهل طريقة للتخلص منه هي إنكار الآخرة أصلاً. كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: 5].

٢.كيف نرد على هذه الشبهة) شبهة إعادة الخلق بعد التمزق (بأسلوب معاصر؟
يمكن الرد بثلاثة محاور:

· المحور العقلي: قياس الإعادة على البدء. هل بدء الخلق من عدم أصعب أم إعادته من مادة موجودة؟ العقل السليم يقر بأن الإعادة أهون. فإذا كان الله قادراً على البدء، فهو قادر على الإعادة من باب أولى.
· المحور العلمي: قانون حفظ المادة والطاقة. المادة لا تفنى ولا تستحدث، بل تتحول من صورة إلى أخرى. ذرات أجسادكم لا تفنى، بل تتحلل وتصبح جزءاً من التربة والهواء. فإعادتها هي مجرد جمع لهذه الذرات وإعادة تشكيلها بقدرة الله.
· المحور الوجداني: إنكار البعث يجعل الحياة عبثاً بلا هدف، ويجعل الظالم والمظلوم سواء. العدالة الإلهية تقتضي وجود يوم للحساب والجزاء. فالإيمان بالآخرة هو الذي يعطي للحياة معنى وقيمة.

٣.ما الفرق بين الاستهزاء والنقد العلمي؟
هذا سؤال مهم في عصرنا. الفرق كبير:

· النقد العلمي: يقوم على احترام الفكرة وصاحبها، ويقدم حججاً وبراهين وأدلة مضادة. هدفه الوصول إلى الحقيقة.
· الاستهزاء: يتجاهل مضمون الفكرة، ويركز على تحقير الشخص أو السخرية من الفكرة دون تقديم

أي دليل. هدفه التنفير والإثارة وليس البحث عن الحقيقة.

المشركون في الآية لم يقدموا دليلا ً واحداً على استحالة البعث، كل ما فعلوه هو الاستهزاء بـ الشخص (رجل) وبالفكرة (ينبئكم...). هذا هو ديدن المبطلين في كل زمان.
الأمر الثالث:
كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (دروس عملية وتطبيقات)

هذه الآية ليست فقط للاطلاع التاريخي، بل هي دورة تدريبية في الثبات على الحق، وإليك تطبيقاتها العملية:

١.في التعامل مع السخرية من دينك أو قيمك:

· التطبيق: قد تتعرض للسخرية في الجامعة أو العمل بسبب التزامك بالصلاة، أو رفضك للاختلاط المحرم، أو تمسكك بقيمك. تذكر هذه الآية. لا تحزن، ولا تتراجع. هذه السخرية هي تكرار لسخرية كفار قريش من النبي ﷺ. رد عليهم بالحسنى، وبالحكمة، واثبت. اعلم أنهم بسخريتهم إنما يعلنون إفـ لاسهم الفكري.
· مثال تقريبي: طالب جامعي محجبة، يسخر منها زملاؤها: "لماذا كل هذا التزمت؟ أنت في عصر النور!". ترد بابتسامة واثقة: "نوري من نور القرآن، وهو أهدى وأبقى". هذا الرد المبني على يقين، لا جدال.

٢.في مواجهة الشبهات الفكرية حول البعث والآخرة:

· التطبيق: إذا وقعت في يدك مقالة أو فيديو يشكك في حقيقة البعث، ويعرضه كخرافة، لا تبتلعه دون تفكير. تذكر الآية، وقل لنفسك: "هؤلاء هم نموذج (الذين كفروا) في عصرنا، سلاحهم السخرية لا الدليل". ثم ارجع إلى القرآن، واقرأ الآيات التي تثبت البعث (مثل أول سورة سبأ)، وستجد برد اليقين في قلبك.

٣.في تعزيز يقينك بالبعث وتأثيره على سلوكك اليومي:

· التطبيق: استحضر هذا المشهد المهين للمنكرين كلما شعرت بالغفلة. قل لنفسك: "لن أكون مثل هؤلاء الذين يسخرون من آيات الله، بل سأكون من (الذين أوتوا العلم) الذين يرون الحق ويتبعونه". هذا الا ستحضار يدفعك للعمل الصالح والاستعداد للقاء الله.
· مثال عملي: تاجر يغريه الغش ليربح أكثر. قبل أن يفعل، يتذكر أنه سيُبعث وسيسأل عن ماله من أين اكتسبه. هذا التذكر يمنعه من الغش. إنه انتصار عملي للإيمان بالبعث.

٤.في أسلوب الدعوة إلى الله:

· التطبيق: عندما تدعو غير المسلمين إلى الإسلام، أو تنصح مسلماً غافلا ً، تجنب أسلوب السخرية و الاستفزاز. استخدم الحجة والبرهان واللين. كن مثل "الذين أوتوا العلم" الذين يرون الحق فيهدون إليه برفق، لا مثل "الذين كفروا" الذين يستهزئون.
الأمر الرابع
أبعاد الآية والقيم التي تدعو إليها

أولا ً: الأبعاد العقدية والفكرية:

· بعد إثبات البعث رغم إنكار المنكرين: الآية تسجل إنكار الكفار للبعث بأسلوبهم الساخر، وهذا التسجيل في حد ذاته هو تأكيد من الله أن هذا هو موقفهم، مما يزيد المؤمن يقيناً بأن البعث حق، وإلا لما كان هذا الإنكار المتكرر.
· بعد كشف نفسية المبطلين: الآية تفضح الأسلوب النفسي للمبطلين، وهو أسلوب الاستهزاء بدل الحجة.

ثانياً: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· بعد الثبات وتقوية المناعة النفسية: الآية تعد المؤمن نفسياً لمواجهة السخرية، وتعلمه أنها سنة ماضية في دعوة الأنبياء.

· بعد الشفقة على الكافرين: عندما تقرأ قولهم، لا تشعر بالغضب فقط، بل بالشفقة أيضاً. شفقة على عقول عطلها الكفر عن رؤية الحقائق الساطعة.

ثالثاً: القيم التي تدعو إليها الآية:

1.قيمة الثبات على الحق.
2.قيمة عدم الاكتراث بسخرية المبطلين.
3.قيمة اليقين بالبعث واليوم الآخر.
4.قيمة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك أسلوب الاستهزاء.
الأمر الخامس
دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

١.في بناء الإنسان:

· إنسان قوي الإرادة: لا تهزه السخرية، ولا تثنيه عن الحق حملات الاستهزاء. شخصيته مستقرة، ومبادئه راسخة.
· إنسان ذو بصيرة: يدرك أن أسلوب الاستهزاء هو دليل ضعف الخصم لا قوته، فلا ينخدع بالمظاهر.
· إنسان مستعد للآخرة: يعيش حياته وهو يضع نصب عينيه حقيقة البعث، فيسعى للعمل الصالح.

٢.في بناء المجتمع:

· مجتمع متماسك في وجه حملات التشويه: عندما يتربى المجتمع على مثل هذه الآيات، فإنه يكتسب مناعة ضد الحملات الإعلامية التي تسخر من قيمه وثوابته. يصبح مجتمعاً واثقاً من نفسه، لا تهزه الشبهات.
· مجتمع يقوم على الحوار الراقي: يتجنب أسلوب الاستهزاء، ويسود فيه النقد العلمي البناء.

٣.في بناء الحضارة الإسلامية:

· حضارة اليقين لا الشك: الحضارة الإسلامية قامت على يقين لا يتزعزع بالغيب (الله، الملائكة، اليوم الآخر). هذا اليقين هو الذي أمدها بالطاقة الهائلة للانطلاق والفتوحات والإبداع. أما الحضارات المادية القائمة على الشك والعبثية، فإنها سرعان ما تصاب بالتصدع والانهيار النفسي. هذه الآية، بإظهارها سخافة موقف المنكرين، تثبت قاعدة أساسية في الحضارة الإسلامية: الإيمان بالآخرة هو مصدر القوة والعزة والاستمرارية.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، ها أنت قد عشت لحظات مع هذا المشهد القرآني. لقد رأيت كيف كان الكفار يتبادلون أطراف الحديث، ساخرين من النبي ﷺ ومن فكرة البعث، ظانين أنهم بهذا يطفئون نور الله. ولكن الله أظهر سخريتهم في كتابه الخالد، لتكون لك عبرة وعظة.

فإذا جاءك في زمانك من يسخر من دينك، أو يشكك في يوم الحساب، فاستحضر هذه الآية. تذكر أنهم ليسوا أول من فعل ذلك، ولن يكونوا آخرهم. تذكر أن سلاحهم الوحيد هو السخرية، لأنهم لا يملكون حجة ولا برهاناً.

وأما أنت، فاثبت على يقينك. كن من "الذين أوتوا العلم"، الذين يرون الحق حقاً، ويسيرون على صراط العزيز الحميد. واجعل من استهزائهم دافعاً لك لمزيد من الإيمان والعمل الصالح. فالعاقبة للمتقين، والموعد يوم القيامة، حيث سيرى أولئك المستهزئون حقيقة ما كانوا به يستهزئون، وحينها لا ينفعهم الندم.
المبحث الثاني
أيها الباحث عن الحق، أيها الساعي إلى نور اليقين، ها نحن نمضي معاً في رحاب سورة سبأ، نستنطق آياتها ونستلهم هداياتها. لقد رأينا في الآية السابقة كيف استخدم الكفار سلاح السخرية والاستهزاء، قائلين: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾. والآن، في هذه الآية، يكشف لنا القرآن عن المرحلة التالية في حربهم على الحق، مرحلة أخطر وأعمق، مرحلة الحرب النفسية والشخصنة. إنها مرحلة لا يواجهون فيها الحجة بالحجة، بل يطعنون في شخص الداعية نفسه، في عقله ومصداقيته، ليمنعوا الناس حتى من مجرد الجلوس إليه والاستماع له.

تأمل معي هذا المشهد القرآني البليغ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: 8].

هذه الآية هي تشريح دقيق للنفس البشرية المعاندة. إنها تضع يدك على جذور المشكلة، وتكشف لك عن السبب الخفي وراء كل حرب تشن على الدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان. إنها تدعوك إلى رحلة في أعماق نفسك أنت أيضاً، لتسألها: هل أنت ممن يقبل الحق، أم ممن يبحث عن مبررات لرده؟

موقع الآية في سياق السورة

بعد أن حكى الله قول الكفار في الآية السابقة بطريق الاستهزاز، يأتي هنا ليحكي ما قالوه عن النبي ﷺ فيما بينهم، أو ليكشف عن الشبهة التي يبثونها في قلوب الأتباع والعامة. إنهم لم يكتفوا بـ السخرية العلنية، بل بدأوا حملة تشويه منظمة تستهدف شخص النبي ﷺ. فهذه هي المرحلة الحرجة التي يواجهها كل داعية إلى الله: مرحلة الصد عن السبيل بضرب المصداقية.
الأمر الأول:
دلالة التهم الموجهة للرسول ﷺ (أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

انظر إلى هذا الأسلوب الاستفهامي: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾. "أم" هنا هي "أم" المنقطعة، وتفيد الإضراب والانتقال من احتمال إلى آخر. فكأنهم وضعوا أمر النبي ﷺ بين احتمالين لا ثالث لهما في نظرهم القاصر:

· الاحتمال الأول: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.
أي أنه يتعمد الكذب على الله، وينسب إليه ما لم يقله. وهذه تهمة خطيرة، تهدف إلى هدم مصداقيته الأخلاقية. فإذا كان كذاباً على الله، فكيف يُؤتمن على خبر السماء والأرض؟ وكيف يُصدق في دعوته؟
· الاحتمال الثاني: ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾.
أي أنه مجنون، به مس من الشيطان. وهذه تهمة تستهدف هدم مصداقيته العقلية. فإذا كان مجنوناً ، فكلامه غير معقول ولا يُلتفت إليه، وهو غير مسؤول عما يقول. إنها محاولة لعزله فكرياً عن الناس.
· لماذا يضطر أعداء الحق لاستخدام الشخصنة؟
هذا سؤال جوهري، والآية تجيب عنه ضمناً. إنهم يلجؤون إلى هذا الأسلوب عندما يعجزون عن مواجهة الحجة بالحجة. لقد وقفوا أمام القرآن، فلم يجدوا فيه مطعناً، فوقفوا أمام النبي ﷺ، فلم يجدوا في سيرته وخلقه مطعناً. فما بقي لهم إلا أن يختلقوا تهمة من فراغ، تمنع الناس من مجرد التفكير في الاستماع إليه. وكأنهم يقولون: "لا تقتربوا منه، ولا تسمعوا له، فهو إما كذاب يريد خداعكم ، أو مجنون لا يدري ما يقول!".
مثال تقريبي من واقعنا:
في سوق العمل، عندما يتقدم موظف كفؤ بمشروع إصلاحي كبير يهدد مصالح بعض المتنفذين، ولا يستطيعون نقد المشروع لكونه متقناً، ماذا يفعلون؟ يشنون حرباً على شخصه: "هذا متعجرف"، "هذا له أهداف شخصية"، "هذا غير متوازن". لماذا؟ لأنهم عجزوا عن مواجهة الفكرة، فلجأوا إلى تشويه الشخص.
· الرسائل النفسية والتربوية:
1. هذا هو طريق الأنبياء: إذا كنت داعية إلى الله، ووُجّهت إليك تهم شخصية، فاعلم أنك على طريق الأنبياء. لا تحزن، ولا تتراجع. فهذا دليل على أن خصومك قد عجزوا عن مواجهة ما تقدمه من حق.
2. عدم الخلط بين الشخص والفكرة: الآية تعلمنا أن نفصل بين تقييم الأشخاص وتقييم الأفكار. لا ترفض فكرة صحيحة لأن صاحبها وقع في خطأ ما، ولا تقبل فكرة باطلة لأن صاحبها شخص محبوب. الميزان هو الحق نفسه.
الأمر الثاني:
الجواب الإلهي القاطع (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

الدلالة واللمسات البيانية والربط بالواقع المعاصر:

بعد عرض تهمتهم الباطلة، يأتي الرد الإلهي الحاسم، ليس بتبرئة النبي ﷺ فقط، بل بكشف الدافع الحقيقي الخفي وراء تلك التهم. إنه سبحانه لا يقول: "كلا، بل هو صادق أمين"، بل ينتقل إلى تحليل

نفسية المتهمين، ليكشف عن أصل الداء: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

· "بَل" حرف إضراب، ينفي ما قبله ويثبت ما بعده. فهو ينفي احتمال الافتراء والجنون، ويثبت أن المشكلة الحقيقية ليست في النبي ﷺ، بل في هم أنفسهم.
· المشكلة ليست عقلا ً ولا أخلاقاً، بل إيماناً: إنهم لم يتهموه لأنه كذاب أو مجنون حقاً، بل لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. هذا هو جذور المشكلة. فمن لا يؤمن بيوم الحساب، لا يهمه أن يكذب أو يصدق، لا يهمه أن ينصف أو يظلم. إيمانه بالآخرة هو الضمانة الأخلاقية التي تمنعه من اتباع الهوى والوقوف ضد الحق.
· إشكال واقعي معاصر وحله من الآية:
قد يقول قائل: "ولكننا نرى في واقعنا ومجتمعاتنا أناساً يقفون ضد الدعوة والدعاة، وهم يدعون الإ يمان بالله واليوم الآخر. فكيف نفسر ذلك؟"
الجواب القرآني عميق ودقيق: هؤلاء لا يؤمنون باليوم الآخر إيماناً حقيقياً يقينياً، بل هو إيمان شكلي، أو إيمان تهزه الشبهات، أو إيمان لم يصل إلى القلب ليسيطر على الجوارح. فـ لو كانوا يؤمنون حقاً بأنهم سيقفون بين يدي الله للحساب على كل صغيرة وكبيرة، لما تجرأوا على محاربة الحق وأهله.
أمثلة تقريبية توضح الفكرة:
· مثال السم في العسل: شخص جائع أمامه إناء من العسل، وقيل له: "في هذا العسل سم قاتل". لو كان موقناً بوجود السم، فهل سيشربه؟ بالتأكيد لا، مهما كان جائعاً. أما إذا شربه، فدليل على أنه لم يصدق الخبر، أو شك فيه. فكذلك الذي يرتكب المعاصي ويقف ضد الحق، هو يشك في حقيقة العذاب الأخروي، أو استبعده، ولذلك أقدم على ما يغضب الله.
· مثال الطريق الموحش: رجل يريد الذهاب إلى مدينة، وقيل له: "في نهاية هذا الطريق غابة مليئة بالوحوش المفترسة والثعابين القاتلة". إن كان مصدقاً يقيناً، فسيبحث عن طريق آخر ولو كان أطول. أما إذا سار فيه، فدل على أنه لم يصدق الخبر. هكذا من يسير في طريق محاربة الدين وأهله، هو لا يصدق يقيناً أن نهاية هذا الطريق هي العذاب الأليم.
· العناد غطاء على البصيرة:
ثم تأتي الآية لتكمل التحليل: ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾. هم ليسوا فقط لا يؤمنون بالآخرة، بل هم غارقون في العذاب والضلال البعيد في الدنيا قبل الآخرة. "العذاب" هنا هو العذاب النفسي و المعنوي الذي يعيشونه من الحقد والقلق والحيرة. و"الضلال البعيد" هو ضلالهم عن الحق، وبُعدهم الشديد عن طريق الهداية. وهذا الوصف ينطبق تماماً على من يحاربون الحق في عصرنا. انظر إلى ح الهم النفسية: قلقون، متوترن، سعارهم على محاربة الدين لا يهدأ. هذا هو "العذاب" الذي يتحدث عنه القرآن.
الأمر الثالث: أسئلة تدبرية للنفس في ضوء الآية

والآن، وقد فهمت دلالات الآية، دعني أوجه إليك هذه الأسئلة التي يجب أن تسألها لنفسك بكل صدق:

.١هل أؤمن باليوم الآخر إيماناً يقينياً يظهر في سلوكي؟

· اسأل نفسك: هل أنا متيقن أنني سأقف بين يدي الله للحساب، كما أنا متيقن أنني أتنفس الآن؟ إذا كان الجواب نعم، فهل يظهر أثر هذا اليقين في ورعي عن الشبهات، وفي خوفي من المعاصي، وفي حرصي على الطاعات؟
· مثال عملي: عندما تهم بالكذب، أو الغيبة، أو النظر المحرم، هل تستحضر في تلك اللحظة أن الله يراك، وأنك ستسأل عن هذا يوم القيامة؟ إذا كنت تفعل ذلك وتنتهي عن المعصية، فهذا دليل على يقينك. أما إذا كنت تفعل المعصية وأنت تعلم أنها حرام، فراجع يقينك بالآخرة، فقد دخله الشك أو الغفلة.

.٢هل أقدم سوء الظن بأهل الحق والداعين إليه بدلا ً من قبول الحق؟

· اسأل نفسك: عندما يأتيني الحق على لسان داعية أو مصلح، هل أبحث عن مبررات لرده؟ هل أقول: "هذا متشدد"، أو "هذا يبحث عن الشهرة"، أو "هذا متناقض"؟ أم أني أنظر إلى الحق نفسه بغض النظر عن الشخص الذي جاء به؟
· تطبيق على الواقع: كثير من الناس اليوم يرفضون التوجيهات الشرعية بحجة أن "الشيخ فلان" قالها ، وهو "متطرف" أو "متساهل"! هذا هو بالضبط أسلوب الكفار في الآية: الشخصنة بدل مناقشة الحجة. كن منصفاً. خذ الحق من أي وعاء خرج منه، وارفض الباطل ولو جاءك من أعز الناس إليك.

.٣هل أعيش في غفلة بسبب انشغالي بنعم الدنيا ورخائها؟

· اسأل نفسك: هل أنعم الله عليّ بالصحة والمال والرفاهية، فجعلتني هذه النعم أنسى الآخرة وأظن أن الله لن يحاسبني؟ ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: 37]. النعم استدراج وابتلاء، وليست دليل رضا مطلق.
· علامة الخطر: إذا وجدت نفسك تقول بلسان حالك أو مقالك: "لن يحاسبني الله على هذا العمل الصغير، فأنا أعيش في نعيم وهذا دليل على رضاه عني!"، فاعلم أنك على شفا خطر عظيم. هذا هو منطق الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35].

.٤كيف أقابل الحق الذي يأتيني؟ هل أتلقاه بالقبول أم أبحث عن تمريرات لرفضه؟

· اسأل نفسك: عندما أقرأ آية أو حديثاً يخالف هواي، ماذا أفعل؟ هل أقول: سمعنا وأطعنا، وأجاهد نفسي على التطبيق؟ أم أبدأ في البحث عن تأويلات بعيدة أو فتاوى شاذة تُرَخِّص لي ما أريد؟ هذه هي "التمريرات" التي يبحث عنها من لا يؤمن بالآخرة إيماناً صادقاً.
· مثال تطبيقي: آية تحريم الربا. المؤمن الصادق يقول: سمعت وأطعت، وأبحث عن بديل حلال ولو كان ربحي أقل. أما من يريد تمريراً، فيقول: "هذا رأي بعض العلماء، وهناك رأي آخر!"، ويتمسك بالرأي الشاذ ليبرر لنفسه التعامل بالربا. فأي الفريقين أنت؟

.٥كيف أراجع نواياي وأستحضر الآخرة في كل حركة أقوم بها؟

· تطبيق عملي: قبل أي عمل، اسأل نفسك: "لماذا أفعل هذا؟". قبل أن تتكلم: "هل سأسأل عن هذه الكلمة يوم القيامة؟". قبل أن تنام: "هل أنهيت يومي بما يرضي الله؟". هذه المراجعة الدائمة تجعلك تعيش الآخرة في الدنيا، وتجعل سلوكك منضبطاً بضوابط الشرع.
الأمر الرابع
كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (دروس وتطبيقات)

.١في مواجهة حملات التشويه الشخصي:

· للدعاة والمصلحين: إذا وُجّهت إليك تهم شخصية (مجنون، كذاب، متطرف، عميل، ...) فاعلم أنك في الطريق الصحيح. هذا هو ميراث الأنبياء. لا تنشغل بالرد على التهم الشخصية بقدر انشغالك بتقديم الحق. دع أخلاقك وسيرتك ترد عنك. وثق أن الله هو الذي يتولى الدفاع عن أوليائه.
· لعامة الناس: إذا سمعت اتهاماً موجهاً لداعية أو مصلح، فلا تبتلعه دون تمحيص. اسأل نفسك: هل ا لاتهام يتعلق بجوهر ما يدعو إليه من حق، أم هو طعن في شخصه؟ فرق بين الأمرين، وكن منصفاً.

.٢في تقوية يقيننا باليوم الآخر:

· زيارة القبور: قال النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة». زيارة المقابر تدريب عملي على تذكر الموت والبعث.
· قراءة القرآن بتدبر: خاصة الآيات التي تصف مشاهد القيامة والجنة والنار. عش معها بقلبك، وتخيل نفسك في تلك المواقف.
· مجالسة الصالحين: الذين يذكرونك بالله والدار الآخرة، فهم خير معين على تقوية اليقين.

.٣في التعامل مع من يحاربون الدين وهم يدعون الإيمان:

· لا تنخدع بالمظاهر: قد يكون أحدهم يصلي ويصوم، ولكنه في نفس الوقت يحارب الدعاة ويصد عن سبيل الله. هذا النموذج موجود في كل عصر. تذكر الآية: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. إيمانهم بـ الآخرة إيمان شكلي لم يصل إلى أعماق قلوبهم.
· ادعُ لهم بالهداية: بدلا ً من أن يملأك الحقد عليهم، ادعُ الله أن يفتح بصائرهم. فما هم إلا ضحايا لضلال بعيد وعذاب نفسي يعيشونه.
الأمر الخامس
دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

.١في بناء الإنسان:

· إنسان صادق مع نفسه ومع الله: يراجع نيته باستمرار، ولا يخدع نفسه بالادعاءات.

· إنسان يقظ البصيرة: لا ينخدع بحملات التشويه، ويميز بين الحق وأهله والباطل وأهله.
· إنسان يعيش الآخرة في الدنيا: يستحضر الحساب في كل تصرفاته، مما يجعله منضبطاً أخلاقياً، بعيداً عن العبثية والضياع.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع يقوم على الحجة والبرهان: لا على الشائعات والتهم الشخصية. فيه يسود النقد العلمي البناء، وتُحترم فيه الكفاءات والعقول.
· مجتمع منيع ضد حرب الشائعات: عندما يتربى أفراده على مثل هذه الآيات، يكتسبون مناعة ضد الإ علام المضلل الذي يهدف إلى تشويه صورة المصلحين.

.٣في بناء الحضارة:

· حضارة اليقين والمبدأ: الحضارة الإسلامية قامت على يقين جازم بالآخرة، جعل المسلمين يضحون بأرواحهم وأموالهم في سبيل الله، لأنهم يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى. أما الحضارة التي لا تؤمن بالآخرة، فهي حضارة استهلاكية أنانية، تنهار عند أول اختبار أخلاقي، لأن أفرادها لا يخافون حساباً ولا يرجون ثواباً.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، هذه الآية مرآة صافية، ضع نفسك أمامها. إنها تكشف لك عن حقيقة نفسك وعن حقيقة من حولك. إنها تطرح عليك السؤال الأهم: هل أنت ممن يؤمن بالآخرة إيماناً يغير سلوكه، أم أنت ممن يدّعون الإيمان وهم في شك من أمرهم؟

لا تكن كالذين قالوا عن النبي ﷺ ما قالوا، وصدوا عن سبيل الله بغير علم ولا هدى. بل كن من "الذين أوتوا العلم" الذين يرون الحق فيتبعونه، ويوقنون بالآخرة فيعملون لها. راجع نفسك، جدد إيمانك، واستحضر الآخرة في كل لحظة. فالعمر قصير، والموعد الجنة أو النار، والجزاء هناك، في دار القرار.
القسم الثالث
أيها المتأمل في ملكوت السماوات والأرض، أيها الباحث عن الأمان في زمن المخاوف، أيها الحائر الذي تطحنه هموم الحياة وتقلباتها، تعال بقلبك وروحك لنقف معاً على أعتاب آية من أعظم آيات التذكير و التربية. إنها الآية التي تأخذ بيدك من غفلتك، وتفتح عينيك على ما حولك، وتعيد لك البوصلة التي قد تكون أضعتها في زحام الدنيا.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يخاطبك أنت بكل حنان الأب المشفق، وبكل هيبة الملك القادر: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: 9].

هذه الآية الكريمة هي صيحة إيقاظ في أذن الغافل، وبلسم طمأنينة في قلب المؤمن. إنها تريد أن تنقلك من حالة السكون والجمود إلى حالة اليقظة الدائمة، وتريد أن تحوّل نظرك من سطح الأشياء إلى عمق الحقائق. إنها آية جامعة بين التأمل في آيات الله المنظورة، والخوف من عقابه المباغت، و الرجاء في رحمته للمنيبين.

موقع الآية وسياقها في السورة

بعد أن عرضت الآيات السابقة موقف الكافرين من البعث، وسخريتهم من النبي ﷺ، واتهامهم إياه ب الكذب والجنون، تأتي هذه الآية لتنتقل من الجدال النظري إلى المشاهدة الحسية. وكأن الله يقول لهؤ لاء المكذبين: دعوا الجدال، وانظروا بأعينكم إلى ما حولكم. انظروا إلى السماء فوقكم والأرض تحتكم، أليس في ذلك دليل على قدرة خالقكم على كل شيء؟ إنها دعوة إلى التفكر الذي هو مفتاح الإيمان، قبل أن يأتي العذاب الذي لا يُرد.
الأمر الأول:
دلالة الاستفهام التوبيخي (أَفَلَمْ يَرَوْا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بهمزة الاستفهام والفاء العاطفة ولا النافية: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾. هذا الاستفهام ليس استفهاماً حقيقياً ، بل هو استفهام توبيخي وإنكاري، فيه معنى التعجب من حالهم، وفيه حث وتحريض على النظر و التأمل.

· دلالة (يَرَوْا):
الرؤية هنا ليست مجرد رؤية بصرية سطحية، بل هي رؤية بصرية تقود إلى رؤية بصرية (بصيرة). إنها دعوة إلى النظر الذي يثمر التفكر والاعتبار. فكم من ناظر بعينه لا يرى بقلبه، وكم من أعمى البصر بصير البصيرة. المطلوب هو رؤية الآيات في السماء والأرض، لا مجرد رؤية السماء والأرض.
· لمسة بيانية:
لاحظ كيف عبر بالفعل المضارع "يروا" ولم يقل "ينظروا". الفعل "رأى" أبلغ، لأنه يدل على العلم بـ الشيء وإدراكه على حقيقته. فكأنه يقول: ألم يصلوا إلى علم اليقين بقدرتنا من خلال ما يشاهدونه كل يوم؟!
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. اليقظة الدائمة: الآية توقظ فيك ملكة التأمل والتفكر. لا تعش كالبهائم، تأكل وتشرب ولا تتفكر فيمن خلقك. انظر حولك؛ كل ما تراه هو آية على الله.
2. التفكر طريق الإيمان: الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو ثمرة نظر وتفكر. هذه الآية تعلمك منهجاً: أن تبدأ بالنظر الحسي، ثم تنتقل إلى التفكر العقلي، ثم تصل إلى اليقين القلبي.
الأمر الثاني:
المشهد الكوني المهيب (إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

ثم يرسم القرآن أمام ناظريك مشهداً كونياً شاملاً: ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

· دلالة الشمول (ما بين أيديهم وما خلفهم):
هذا التعبير يشمل كل الاتجاهات، الأمام والخلف، واليمين والشمال تبعاً. إنه إحاطة كاملة. فالإنسان أينما توجه يجد نفسه محاطاً بآيات الله في السماء والأرض. لا يستطيع أن يخطو خطوة إلا ويرى فيها صنع الله وقدرته.
· دلالة (مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ):
السماء بمعناها الواسع تشمل كل ما علاك: الشمس، القمر، النجوم، السحب، المطر، الفضاء الواسع. وا لأرض تشمل كل ما تحتك: الجبال، الوديان، البحار، النبات، الحيوان، المعادن. وهذا يشير إلى أن الكون كله كتاب مفتوح يدل على الخالق العظيم.
· أمثلة تقريبية تعيشها كل يوم:
· في الصباح الباكر: تخرج من بيتك متجهاً إلى عملك (ما بين يديك). تنظر إلى السماء (ما فوقك) فترى الشمس قد أرسلت خيوطها الذهبية، وترى الطيور تسبح في الفضاء. وتنظر إلى الأرض (ما تحتك) فترى الطرق الممهدة، والأشجار المثمرة. كل هذا من آيات الله.
· في الليل: تنظر خلفك فترى القمر والنجوم قد زينت السماء. تنظر إلى الأرض فترى الهدوء و السكون. أليس في تعاقب الليل والنهار آية؟
· في السفر: عندما تسافر بالطائرة وتنظر من النافذة، ترى الأرض تحتك شاسعة، والسماء فوقك ممتدة. تشعر بضآلتك وعظمة الخالق. هذه هي رؤية "ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض".
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. الشعور برقابة الله وقدرته: عندما تستشعر أنك محاط بآيات الله من كل جانب، فإنك تشعر أنه معك أينما كنت، وهذا يورثك الأنس والقرب.
2. التواضع: هذا المشهد الكوني الواسع يذكرك بصغرك وضعفك، فيقضي على الكبر والغرور في نفسك.
3. الراحة النفسية: التأمل في الطبيعة وملكوت السماوات والأرض هو علاج نبوي للأزمات النفسية. فقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة والتأمل في آيات الله.
الأمر الثالث:
التهديد الإلهي المباغت (إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن دعاهم إلى النظر في آيات الرحمة والنعمة، ينقلهم إلى مشهد آيات الغضب والعذاب. فالأرض

التي تمشي عليها مطمئنة، والسماء التي تظلك آمنة، هما بيد الله، إن شاء جعلهما نقمة لا نعمة.

· دلالة (إن تشأ):
تعليق الأمر على المشيئة الإلهية. "إن" الشرطية تفيد أن هذا أمر ممكن في أي لحظة، ولكنه معلق بمشيئة الله وحده. وهو سبحانه لا يشاؤه إلا بحكمة.
· دلالة (نخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ):
الخسف هو أن تبتلعهم الأرض وتغور بهم في باطنها. وهذا مشهد مرعب تخيله: الأرض التي كنت تمشي عليها آمناً، تنشق فجأة وتبتلعك أنت وكل ما معك. وقد حدث هذا لأمم سابقة، كقارون الذي خسف الله به وبداره الأرض.
· دلالة (نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ):
الكسف هي القطع العظيمة من السحاب أو من العذاب. وفي آية أخرى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92]. أي أن تسقط عليهم قطعاً من العذاب من السماء. وهذا يذكرنا بما حدث لأصحاب الأيكة الذين أخذهم عذاب يوم الظلة، وما قد يحدث في شكل نيازك أو صواعق مدمرة.
· لمسة بيانية (الربط بين السماء والأرض):
لاحظ كيف قابل بين السماء والأرض في النعمة، وقابل بينهما في النقمة:
· النعمة من السماء: مطر، رزق. النقمة من السماء: كسف، صواعق.
· النعمة من الأرض: نبات، استقرار. النقمة من الأرض: خسف، زلازل.
هذا التناسق البديع يبين أن الأمر كله بيد الله، يقلبه كيف يشاء.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· الزلازل المدمرة: نشاهد اليوم زلازل تضرب مدناً بأكملها في ثوان، تخسف الأرض بمن فيها وبمبانيهم. إنها ليست مجرد ظواهر طبيعية، بل هي آيات من الله لتذكير عباده بقدرته.
· النيازك والصواعق: العلم الحديث يؤكد إمكانية سقوط نيازك ضخمة تسبب دماراً هائلا ً. و الصواعق تقتل وتحرق. هذه كلها "كسف من السماء" بأمر الله.
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. الخوف من الله وحده: هذه الآية تزرع في قلبك الخوف من الله، لا الخوف من البشر أو الفقر أو المستقبل. فالله هو الذي بيده الخسف والكسف، وهو الذي بيده الأمن والنجاة.
2. عدم الاغترار بالأمن: لا تغتر بالأمن والاستقرار الذي تعيش فيه. فالأرض التي تمشي عليها و السماء التي تظلك هما جند من جنود الله، يأتمرون بأمره. فكن دائماً على وجل، وادعُ الله أن يحفظك من عقابه.
3. اليقين بأن أسباب العذاب بيد الله وحده: لا تظن أن قوتك أو مالك أو علمك يحميك من قدر الله. خسف الأرض لا يفرق بين قوي وضعيف، غني وفقير. فالنجاة بيد الله وحده.
الأمر الرابع:
ثمرة الآية (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذا هو ختام الآية، وهو يحدد المستفيد الحقيقي من هذه الآيات الكونية والنذر الإلهية.

· دلالة (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً):
"إن" و"اللام" للتوكيد. "ذلك" إشارة إلى كل ما سبق: خلق السماوات والأرض، والقدرة على الخسف و الإسقاط. "آية" أي علامة واضحة ودلالة قاطعة على قدرة الله ووحدانيته.
· دلالة (لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ):
هذا هو القيد المهم. الآية ليست لكل أحد، بل لكل عبد منيب. المنيب هو الرجّاع إلى الله، التائب إليه، الذي يذكره في السراء والضراء، والذي إذا رأى آية من آيات الله تذكر وخاف ورجع. أما الغافل المعرض، فتمر عليه الآيات الكونية مر السحاب، لا ينتفع بها. كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105].
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. الآيات الكونية تحتاج قلباً منيباً: لكي تنتفع بآيات الله في الكون، تحتاج إلى قلب خاشع منيب. فجدد توبتك، وارجع إلى الله، وسترى الآيات تتجلى لك في كل شيء.
2. الإنابة شرط الهداية: الله يهدي من أناب إليه. هذه الآية تدعوك إلى ثقافة الإنابة، أي الرجوع الدائم إلى الله في كل شأنك.
3. التمييز بين الناظر والمبصر: الكافر يرى الزلزال فيقول: كارثة طبيعية! والمؤمن المنيب يراه فيقول: آية من الله، لعلها تذكرة وعظة.

اهم المواضيع والقضايا والفقرات في الايه
فقرة: ماذا يريد المولى منا من هذه الآية؟

هذا هو السؤال العملي الأهم، وهذا هو لب التدبر. إن الله سبحانه وتعالى لم ينزل هذه الآية لمجرد التلاوة، بل أراد منا أن نعيشها واقعاً، وأن نترجم معانيها إلى سلوك وحياة. وإليك ما يريده الله منا من خلال هذه الآية الكريمة:

.١يريد منا أن نرى قدرة الله في تفاصيل حياتنا كلها، وندرك أنه سبحانه قد سخر لنا كل شيء بأمره ، وأن كل شيء يتغير بقدرته.

· كيف يكون ذلك؟ بأن نفتح أعيننا وبصائرنا كل صباح. عندما نرى الشمس تشرق، نتذكر أن الله هو الذي سخرها، ولو شاء لأمسكها. عندما نمشي على الأرض، نتذكر أنه هو الذي جعلها لنا ذلولا ً، ولو شاء لخسفها بنا. عندما نشرب الماء، نتذكر أنه أنزله من السماء بقدرته. هذه النظرة الإيمانية تحول كل لحظة في حياتك إلى عبادة وتفكر، وتجعلك تعيش في حالة دائمة من الامتنان والخوف والرجاء.
· مثال: عندما تقود سيارتك، ترى الطريق ممهداً والسماء ممسكة. قل بقلبك: "الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين". هذا الذكر يربطك بالله في كل حركة.

.٢يريد منا أن نعيش بعقلية العبد المنيب، الذي يرجع إلى الله ويتوب إليه بصفة مستمرة عن كل ما غفل عنه فيها.

· عقلية العبد المنيب: هي عقلية اليقظة الدائمة. المنيب هو الذي لا يغفل، فإذا غفل تذكر ورجع. إنها حركة نفسية مستمرة: غفلة فانتباه فتوبة فرجوع. الله يريدنا أن نكون كذلك. لا يريد منا الكمال، فالغفلة طبيعة بشرية، لكنه يريد منا سرعة التذكر والإنابة.
· كيف نطبق هذا؟ في نهاية كل يوم، وقبل النوم، راجع يومك. أين غفلت؟ أين قصرت؟ أين أذنبت؟ ثم قل: "أستغفر الله وأتوب إليه". هذه هي الإنابة اليومية. وكلما رأيت آية كونية (زلزال، بركان، فيضان، موت فجأة) قل: "اللهم تب علينا، وارحمنا، ولا تؤاخذنا بما فعله السفهاء منا".

.٣يريد منا أن نخشى الله في السر والعلن، من خلال تدبر أن الخسف والكسف بيده سبحانه وحده، وليس في قوتنا أو مالنا ملاذ.

· الخشية الحقيقية: هي أن تخاف الله أينما كنت، في خلواتك كما في جلواتك. عندما تتأمل أن الله قادر على أن يخسف بك الأرض وأنت في بيتك الآمن، أو يسقط عليك كسفاً من السماء وأنت نائم، فإن هذا التأمل يزرع في قلبك المراقبة الدائمة.
· التحرر من أوهام القوة: هذه الآية تحررك من الوهم بأن مالك أو منصبك أو قوتك البدنية تحميك. فرعون قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ فأغرقه الله. قارون قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ فخسف الله به الأرض. أنت بدون الله ضعيف، ومع الله قوي. فاخشَ الله، وتوكل عليه، ولا تغتر بقوتك.

.٤يريد منا أن نعترف بنعمه ونشكره عليها قبل زوالها.

· الاعتراف بالنعمة: أن تنسب النعمة إلى الله وحده. هذه السماء التي تظلك، والأرض التي تقلك، و الهواء الذي تتنفسه، كلها نعم لا تقدر بثمن. الآية تذكرنا بأن هذه النعم قد تزول في أي لحظة (بالخسف أو الكسف). فماذا تنتظر حتى تشكر؟!
· الشكر قبل الزوال: الشكر على النعمة في وقت الرخاء هو الذي يحفظها. أما الشكر بعد زوالها فهو توبة وندم. الله يريد منا الشكر الوقائي، الذي يكون سبباً في دوام النعم ودفع النقم. قل في كل يوم: "الحمد لله على نعمة الأمن في الأرض والسماء". هذا الشكر هو العبادة التي يحبها الله.

.٥يريد منا أن نؤمن بقضائه وقدره.

· الإيمان بالقضاء والقدر: هذه الآية أصل عظيم في هذا الباب. فما يحدث من زلازل وخسف وفيضانات وموت، هو بقضاء الله وقدره. المؤمن يؤمن أن كل شيء يقع في هذا الكون هو بتقدير الله وحكمته. وهذا الإيمان يمنحه:
· الطمأنينة: فلا يجزع مما فات، ولا يفرح بما أتى فرح بطر.
· الصبر: عند المصائب، يعلم أنها من قدر الله فيسلم ويرضى.
· الرجاء: يرجو رحمة الله وثوابه، ويحسن الظن به في كل أقداره.
· كيف نطبق هذا؟ عندما تسمع بمصيبة في أي مكان، قل: "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في

مصيبتنا واخلفنا خيراً منها". هذه الكلمات تعبر عن إيمانك بالقدر وتعلقك بالله.

الموضوع الثاني

كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

١.تمرين التأمل اليومي:

· خصص خمس دقائق يومياً، ويفضل في وقت الصباح أو قبل الغروب، تنظر فيها إلى السماء والأرض. انظر إلى السماء: لونها، سحبها، طيورها. انظر إلى الأرض: جبالها، أشجارها، نملها. قل في نفسك: "هذا كله بيد الله، لو شاء لخسف بي الأرض أو أسقط عليّ كسفاً من السماء، لكنه برحمته أبقاها نعمة لي". هذا التمرين يجعلك تعيش الآية.

٢.مراجعة النفس عند رؤية الكوارث:

· عندما ترى خبراً عن زلزال أو إعصار أو بركان، لا تمر عليه مرور الكرام. قف عنده. تذكر هذه الآية. قل: "اللهم هذا تذكير منك، فاغفر لنا وارحمنا". ادعُ للمتضررين، وتصدق إن استطعت. هذا هو فعل "العبد المنيب".

٣.ثقافة الشكر والاستغفار:

· اجعل لسانك رطباً بـ "الحمد لله" و"أستغفر الله". هذه هي ترجمة عملية للإنابة والشكر. فهي تذكرك بالنعمة (فتحمد)، وتذكرك بتقصيرك (فتستغفر).

٤.التربية الأسرية:

· علم أولادك هذه الآية، واشرحها لهم بأسلوب مبسط. عندما تخرج معهم في نزهة، قل لهم: "انظروا إلى السماء، من خلقها؟ انظروا إلى الأرض، من مدها؟ إن الله قادر على كل شيء". هذا يغرس فيهم الإيمان بالله وقدرته منذ الصغر.

الموضوع الثالث

دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

١.في بناء الإنسان:

· إنسان متأمل: يرى آيات الله في كل شيء، فيعيش في حالة خشوع دائم.
· إنسان متواضع: لا يتكبر، لأنه يعلم أن الأرض التي يمشي عليها يمكن أن تنشق به في أي لحظة.
· إنسان آمن: خوفه من الله يمنحه أمناً من كل ما سواه، فلا يخاف إلا الله.
· إنسان شاكر: يدرك قيمة النعم قبل زوالها، فيشكر الله عليها.

٢.في بناء المجتمع:

· مجتمع قائم على الخشية والمراقبة: إذا تربى أفراده على أن الله قادر على الخسف والكسف، فإنهم يراقبون الله في تعاملاتهم، فيقل الظلم والفساد.
· مجتمع متكافل: عند رؤية الكوارث، يهبون لنجدة بعضهم، لأنهم يعلمون أنها آيات تذكير.
· مجتمع يقدس العلم والتفكر: لأن التفكر في ملكوت السماوات والأرض يحث على طلب العلم والمعرفة.

٣.في بناء الحضارة الإسلامية:

· حضارة الإيمان بالقدرة الإلهية: هذه الآية تربي في الأمة الإيمان بأن الله هو الفاعل المطلق. هذه العقيدة هي التي دفعت المسلمين قديماً لفتح البلاد ونشر الإسلام، وهم لا يخافون الموت ولا يبالون بالعدد والعدة، لأنهم يوقنون أن النصر من عند الله، وأن الموت بيده وحده. هذه هي قوة العقيدة التي تصنع الحضارات.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد تجولت بك هذه الآية في رحلة كونية إيمانية. لقد أرتك السماء والأرض من حولك، وأسمعتك زئير التهديد بالخسف والكسف، ثم فتحت لك باب الأمل بأن تكون "عبداً منيباً".

فلا تخرج من هذه الرحلة كما دخلت. اخرج منها وقد تغيرت نظرتك للكون من حولك. انظر إلى السماء فترى فيها قدرة الله، وانظر إلى الأرض فترى فيها رحمته أو نقمته. وعش دائماً بعقلية "العبد المنيب": ترجع إلى الله في كل حين، وتستغفره من كل ذنب، وتشكره على كل نعمة.

اجعل هذه الآية زادك في كل خطوة، وعدة لك في كل شدة، ونوراً لك في كل ظلمة. وتذكر أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يحفظك ويكلأك، وهو أرحم بك من أمك. ففر إليه، وتب إليه، وارجع إليه، تفز برضاه وجنته.

بسم الله الرحمن الرحيم
المقطع الثاني
القسم الاول

أيها القلب المتطلع إلى معالي الأمور، أيها العقل الباحث عن النموذج الكامل، أيها الوجدان المتعطش إلى القدوة الصالحة، تعال بنا لنقف في رحاب آيتين كريمتين من سورة سبأ، ليس لنقرأهما فحسب، بل لنعيشهما، ولنجعلهما دستوراً لحياتنا، ونبراساً لطريقنا .إنهما الآيتان اللتان تكشفان عن نموذج فريد من عباد الله الذين جمعوا بين القلب المنيب واليد العاملة، بين التسبيح في المحاريب وصناعة الحديد في المصانع .إنها الآيات التي تدعونا لنكون ورثة داود عليه السلام في الأرض.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يمنحك هذه اللوحة الإيمانية المتكاملة:
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سبأ:10 -.[11

هاتان الآيتان الكريمتان ليستا مجرد قصة من قصص الأنبياء، بل هما دعوة ربانية لنا جميعاً للاقتداء بسيدنا داود عليه السلام .إنهما تريدان أن تبنيا في كل واحد منا داود عصره: رجلا ً أو امرأة، يجمع بين صلاح القلب وإتقان العمل، بين تسبيح الخالق وصناعة الحياة .إنها وصفة إلهية متكاملة للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

موقع الآيتين في سياق السورة

بعد أن أثبتت الآيات السابقة قدرة الله المطلقة في ملكه، وعلمه المحيط، وحقيقة البعث، وموقف الكافرين منه، تأتي هاتان الآيتان لتقدما نموذجاً عملياً تطبيقياً للإنسان الذي آمن بهذه الحقائق فعاش بها .داود عليه السلام هو نموذج العبد المنيب الذي ذكرته الآية السابقة، فهو الذي رأى آيات الله في الكون فأناب إليه، فكافأه الله بهذه الفضائل العظيمة .إنها قصة نجاح إيماني مبهرة، يقدمها القرآن لتكون لنا منهجاً نسير عليه.

الأمر الأول:
بداية التشريف وبيان مصدر الفضل) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بالقسَم المقدّر ﴿وَلَقَدْ﴾، وهو أسلوب توكيد عظيم، للدلالة على أهمية الخبر وعظمته .ثم تذكر الفاعل ﴿آتَيْنَا﴾ أي الله سبحانه هو الذي أعطى، والمفعول ﴿دَاوُودَ﴾ وهو النبي الملك، والمفعول الثاني ﴿فَضْلًا﴾ وهو عطاء بلا مقابل.

· دلالة) مِنَّا(:
قوله "مِنَّا" له وقع خاص على القلب .فهو فضل مباشر من الله، وليس من أحد سواه .وفيه معنى التشريف العظيم، فكأن الله يقول: هذا الفضل هو من خزائن فضلي أنا، وليس من كسب أحد ولا من واسطة أحد .إنه يذكر داود) ويذكرنا معه (أن كل ما أنعم به عليه هو منّة إلهية خالصة.
· ما هو هذا "الفضل"؟
المفسرون أجمعوا على أن الفضل هنا شامل لعدة أمور عظيمة اجتمعت لداود عليه السلام:
1. النبوة والرسالة: فهو نبي مرسل، أنزل الله عليه الزبور.
2. الملك الواسع: كان ملكاً عادلا ً قوياً.
3. العلم والحكمة وفصل الخطاب.
4. ما ذكر بعدها في الآية: وهو تسخير الجبال والطير وإلانة الحديد .هذه كلها من الفضل.
· الرسائل النفسية والتربوية:
1. الفضل بيد الله: هذه أول رسالة وأعظمها .لا تحزن إن فاتك شيء من الدنيا، فالفضل الحقيقي بيد الله .اطلبه منه، واسأله من فضله .داود عليه السلام لم يصل إلى هذه المنزلة بذكائه أو قوته، بل بفضل الله.
2. التواضع عند النعمة: عندما يرزقك الله نعمة) علماً، مالا ً، جاهاً، موهبة(، تذكر أنها "مِنَّا فَضْلًا" أي منة من الله، فلا تتكبر بها على الناس، بل ازدد لله شكراً ولعباده تواضعاً.

الأمر الثاني:
تسخير الكون للمؤمن) يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا تظهر إحدى أعظم صور التكريم الإلهي لداود عليه السلام .إنه تسخير الجماد والطير ليكونوا شركاء له في عبادة الله.

· دلالة النداء) يَا جِبَالُ(:
نداء من الله العظيم للجبال الشامخة .هذا النداء يدل على أن الله قادر على أن يجعل الجماد يسمع ويطيع .والجبال هنا مأمورة أن تؤوب مع داود.
· دلالة) أُوِّبِي مَعَهُ(:
التأويب هو التسبيح والترجيع .كان داود عليه السلام إذا سبح الله وقرأ الزبور بصوته الشجي الخاشع، كانت الجبال ترجع معه التسبيح، أي ترددد وتجاوبه .وكأن الكون كله اشترك معه في مشهد تعبدي مهيب .يقول ابن عباس: "أوبي معه: سبحي معه".
· دلالة عطف) وَالطَّيْرَ(:
والطير كذلك مسخرة، تطير في السماء، فإذا سمعت صوت داود تقف في الهواء وتسبح معه .وفي آية أخرى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ ص: .[19 أي كل من الجبال والطير رجّاع إلى أمر الله، مسبح مع داود.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تسخير الكون للمؤمن المسبح: هذه الآية تعلمنا أن من كان مع الله، سخّر الله له كل شيء .داود بذكره وتسبيحه جعل الجبال والطير تسبح معه .نحن قد لا نسمع تسبيح الجماد، ولكن يقيناً بأن كل شيء يسبح بحمد الله، يجعلنا نعيش في كون عابد خاشع.
2. أهمية التسبيح والذكر: داود عليه السلام كان دائم التسبيح .كان يقوم الليل ويصوم النهار، وكان أشد الناس عبادة .هذه العبادة هي التي أكسبته هذا الفضل .علمنا أن نكون ذاكرين الله كثيراً، فبالذكر تُسخر لنا قوى الكون المعنوية، وتُفتح لنا أبواب الفتوح.
3. التناغم مع الكون: المؤمن الحق يعيش في تناغم مع الكون من حوله .فكما أن الكون يسبح لله، فأنت أيضاً تسبح، فتشعر أنك جزء من هذه المنظومة الإيمانية العظيمة.

الأمر الثالث:
المعجزة العلمية والعملية) وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي المعجزة الثانية لداود عليه السلام، وهي معجزة علمية وعملية، تتعلق بالصناعة والتقنية.

· دلالة) أَلَنَّا(:
الإلانة جعل الشيء ليناً طيّعاً .والحديد بطبيعته صلب عاس، يحتاج إلى أفران عالية الحرارة لتليينه وتشكيله .لكن الله جعله لداود كالشمع أو كالعجين، يشكله بيده كيف يشاء، دون حاجة إلى نار أو مطرقة.
· اللمسة البيانية:
هذا هو التكريم الإلهي للعمل والحرفة .الله لم يمن على داود فقط بتسخير الجبال والطير للتسبيح، بل منّ عليه أيضاً بتسخير الحديد ليكون أداة إنتاج وصناعة .وهذا يدل على أن العمل والكسب الحلا ل هو عبادة، وهو من مظاهر الفضل الإلهي.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الحث على العمل والإنتاج: هذه الآية ترد على كل من يظن أن التدين يعني الانقطاع عن الدنيا وترك العمل .داود عليه السلام كان نبياً ملكاً، وكان يعمل بيده ويأكل من كسب يده .قال النبي ﷺ: »إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ.«
2. ربط العبادة بالصناعة: "أوبي معه") عبادة + ("ألنا له الحديد") صناعة .(هذه هي المعادلة الإسلامية المتوازنة .كن عابداً في محرابك، وصانعاً ماهراً في مصنعك .لا تعارض بين الروح والمادة.
3. التيسير من الله: إذا أخلصت العمل لله، فالله ييسر لك الأسباب ويذلل لك الصعاب .فقد تكون هناك أمور صعبة في عملك أو دراستك، لكن بتقوى الله وإخلاصك، يلينها الله لك، ويفتح لك أبواباً لم تكن في الحسبان.

الأمر الرابع:
التوجيه الإلهي بالصنعة والإتقان) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن ألان الله له الحديد، وجهه إلى كيفية استعماله ."أن" تفسيرية، أي قلنا له: اعمل.

· دلالة) اعْمَلْ سَابِغَاتٍ(:
السابغات هي الدروع الواسعة الكاملة التي تغطي الجسم كله وتحميه .كانت الدروع تصنع من حلقات حديدية متشابكة .وداود عليه السلام هو أول من صنع الدروع بهذه الطريقة.
· دلالة) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ(:
هذا هو درس الإتقان العظيم ."السرد" هو نسج حلقات الدرع وإدخال بعضها في بعض ."وقدر" أي اجعل هذا النسج متناسباً متقناً .فلا تجعل الحلقات واسعة جداً فتضعف الدرع، ولا ضيقة جداً فتنكسر .بل قدر المسمار في الحلقة، واجعلها على قدر واحد من الإحكام والإتقان.
· أمثلة تقريبية من حياتنا العملية:
· المهندس: عندما يبني جسراً، فهو مطالب "بأن يقدر في السرد" .حسابات دقيقة، مواد مناسبة، إتقان في التنفيذ .أي خلل صغير قد يؤدي إلى كارثة.
· الطبيب: عندما يجري عملية جراحية، فكل غرزة هي "سرد" .يجب أن يقدر فيها بدقة متناهية، وإ لا أهلك المريض.
· المعلم: عندما يلقي درساً، يجب أن يقدر في "سرد" المعلومات، فيقدمها بطريقة منظمة ومتناسقة، تراعي مستوى الطلاب.
· ربة المنزل: عندما تطبخ طعاماً، تقدر في "سرد" المقادير، فتضع الملح والتوابل بقدر، ليكون الطعام متقناً لذيذاً.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 الإتقان عبادة: الآية تجعل الإتقان في العمل فريضة إلهية ."قدّر في السرد" أمر من الله .فمن يتقن عمله فهو يطيع أمر الله، ومن يهمل فهو يعصي الله .هذا المفهوم يغير نظرتنا للعمل تماماً.
.2 الحرفية والمهارة قيمة إسلامية: الإسلام يحترم الحرفي الماهر الذي يتقن صنعته .داود عليه الس لام كان نبياً، ولكن الله أثنى عليه بصنعته وإتقانه .فكن ماهراً في مجالك أياً كان.
.3 التخطيط والإحكام: حياتنا كلها تحتاج إلى "تقدير في السرد" .خطط ليومك، لأسبوعك، لحياتك . اجعل أمورك متناسقة متوازنة .الفوضى والارتجالية ليست من الإسلام.
الأمر الخامس:
التوجيه الجامع والخاتمة) وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا ينتقل الخطاب من الأمر الخاص لداود إلى الأمر العام لداود وآله وقومه، ولنا جميعاً .{وَاعْمَلُوا صَالِحًا}.

· دلالة الجمع بين الخاص والعام:
بعد أن أمر داود بصنع الدروع) عمل دنيوي(، أمره مع قومه بـ العمل الصالح) عمل أخروي .(وهذا دليل على أن العمل الدنيوي المتقن إذا صاحبه الإخلاص فهو من العمل الصالح .فالذي يصنع الدرع ليحمي به المجاهدين في سبيل الله، هو في عبادة .والذي يبني مدرسة لتعليم الناس الخير، هو في عمل صالح.
· دلالة) إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(:
هذه الجملة هي جهاز المراقبة الإلهي .تذكرك بأن الله يراك في كل لحظة .إنه بصير بصنعتك: هل أتقنتها أم أهملتها؟ بصير بنيتك: هل هي خالصة أم مشوبة؟ هذه الرقابة الذاتية هي سر الإخلاص والإ تقان .فمن أيقن أن الله يراه، أتقن عمله وأخلص نيته.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 شمولية العمل الصالح: العمل الصالح ليس محصوراً في الصلاة والصيام فقط، بل كل عمل نافع متقن يُبتغى به وجه الله هو عمل صالح.
.2 الإخلاص أساس القبول: قيمة العمل ليست في حجمه، بل في إخلاصه لله .صنع درع واحد بإتقان وإخلاص خير من صنع ألف درع برياء وتفاخر.
.3 الرقابة الذاتية دافع للإتقان: إذا استشعرت أن الله يراك وأنت تعمل، فستجتهد في إتقان عملك حتى لو لم يراقبك أحد من البشر .هذا هو ضمان الجودة في الحضارة الإسلامية.

اهم المحاور من الايه
محور الاقتداء: كيف نقتدي بسيدنا داود عليه السلام في ضوء الآيات؟

سيدنا داود عليه السلام ليس مجرد نبي نقرأ قصته، بل هو نموذج رباني أُمرنا أن نقتدي به .قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ص: .[17 وإليك كيف نقتدي به:

.١الاقتداء به في العبادة والإنابة:

· التطبيق: كن "أوّاباً" أي رجّاعاً إلى الله .اجعل لك ورداً من الذكر وتلاوة القرآن بصوتك، وخشوعك . قم الليل ولو بركعات يسيرة .اجعل قلبك يتجاوب مع آيات الله كما كانت الجبال تتجاوب مع داود . عندما تسمع القرآن، لا تكن كالحجارة الصماء، بل كن كالجبال التي تخشع وتسبح.

.٢الاقتداء به في العمل والإتقان:

· التطبيق: تعلم حرفة أو مهارة، واجتهد أن تكون من أمهر الناس فيها .إذا كنت نجاراً، فأتقن صنعتك . إذا كنت مبرمجاً، فاكتب كوداً نظيفاً متقناً .إذا كنت كاتباً، فصغ عباراتك بدقة .تذكر أن الله أمر داود أن "يقدر في السرد"، فهو يأمرك أن تقدر في عملك أنت أيضاً .اجعل الإتقان شعارك.

.٣الاقتداء به في الجمع بين الروح والمادة:

· التطبيق: لا تجعل عملك ينسيك عبادتك، ولا تجعل عبادتك عذراً للقعود عن العمل .خصص لله وقتاً في اليوم) الصلاة، الذكر، القراءة(، وخصص للدنيا وقتاً) العمل، طلب الرزق، الرياضة .(بهذا التوازن تصل إلى الكمال الإنساني الذي مثله داود عليه السلام.

.٤الاقتداء به في الشكر والتواضع:

· التطبيق: كلما ازددت علماً ومالاً وشهرة، تذكر قول الله: ﴿آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ .الفضل من الله، فلا تغتر بنفسك .اشكر الله على نعمه، واستخدمها في طاعته وخدمة خلقه .هذه هي أمانة الفضل.

المحور الثاني

أسئلة تدبرية: كيف نعيش الآية؟

هذه أسئلة تفاعلية، موجهة إليك أنت، لتنتقل من القراءة إلى المعايشة:

.1في ميدان فضل الله عليك: ما هي المواهب والقدرات التي أعطاك الله إياها) علماً، حرفة، صوتاً حسناً، قدرة على الإقناع،(... ؟ هل تستشعر أنها "مِنَّا فَضْلًا"؟ كيف تشكر الله عليها عملياً؟

.2في ميدان التسبيح والتأويب: هل تشعر أنك جزء من هذا الكون المسبح؟ عندما تسمع تغريد الطيور أو حفيف الأشجار، هل تتذكر أنها تسبح لله؟ كيف تجعل لسانك رطباً بذكر الله في كل وقت؟

.3في ميدان العمل والإتقان: ما هو "الحديد" الذي ألانه الله لك؟) قد يكون الحاسوب، أو القلم، أو أدوات الطبخ، أو آلات المصنع .(هل أنت ممن "يقدر في السرد" في عمله؟ راجع عملك اليوم: هل أتقنته أم أهملت فيه؟ هل تشعر أن الله يراك وأنت تعمل) إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(؟

.4في ميدان التوازن: هل أنت متوازن بين عبادتك وعملك؟ هل تفرط في أحدهما على حساب الآخر ؟ كيف تخطط ليومك ليكون شاملاً للطاعات والأعمال الدنيوية؟

.5في ميدان القدوة: إذا كنت أباً أو أماً، كيف تجعل من قصة داود عليه السلام قدوة عملية لأبنائك في الإيمان والعمل والإتقان؟

.6في ميدان التحديات: عندما تواجه صعوبة في عملك أو دراستك) كصلابة الحديد(، هل تلجأ إلى الله أن يلينه لك؟ هل توقن أن تيسير الأمور بيد الله وحده؟

المحور الثالث

أهم المفاهيم والدروس من الآيتين في حياتنا العملية

بعد هذا التحليل، يمكننا استخلاص مفاهيم عملية نعيشها في حياتنا اليومية:

المفهوم القرآني الدرس العملي في حياتنا

﴿آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ التواضع والشكر: كل نجاح تحققه هو فضل من الله، فلا تتكبر .استخدمه في الخير.

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ الأنس بالذكر: الذكر ليس مجرد كلمات، بل هو انسجام مع الكون .اجعله

غذاء روحك.
·{وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ}· طلب التيسير من الله: قبل أي عمل صعب، اسأل الله أن يلينه لك ويسهله.
·{اعْمَلْ سَابِغَاتٍ}· الإنتاج النافع: اسعَ أن يكون عملك ومنتجاتك نافعة للناس، تحميهم وتغنيهم.
·{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}· الإتقان والجودة: هذا هو معيار الجودة الإسلامي .أتقن عملك، واجعله على أحسن صورة.
·{وَاعْمَلُوا صَالِحًا}· شمولية الخير: أي عمل نافع متقن بنية صالحة هو عبادة.
·{إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}· المراقبة الذاتية: اعمل وكأنك ترى الله، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .هذا يمنع الغش والإهمال.
الجمع بين العبادة والعمل التوازن في الحياة: لا رهبانية في الإسلام .كن ربانيّاً في محرابك، محترفاً في مصنعك.

المحور الرابع

كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية(

.١في حياتك المهنية) الموظف/الحرفي/المدير(:

· تطبيق) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ(: تعلم مهارات جديدة في مجالك .احضر دورات تدريبية .لا ترضَ بالعمل المتوسط .اسعَ لأن تكون مرجعاً في مجالك .ضع معايير جودة لنفسك .قبل أن تسلم عملك، اسأل نفسك: "هل هذا يليق بأن يُعرض على الله البصير؟".
· تطبيق) اعْمَلْ سَابِغَاتٍ(: فكر كيف يمكن لعملك أن يحمي الناس وينفعهم .المهندس يبني بيوتاً آمنة)سابغات .(المبرمج يصنع تطبيقات تحمي بيانات المستخدمين) سابغات .(المعلم يربي جيلا ً واعياً محصناً) سابغات.(

.٢في حياتك الأسرية:

· تطبيق) يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ(: اجعل في بيتك جوّاً من الذكر والتسبيح .شغل القرآن في البيت .صلّ بأهلك جماعة .علم أولادك الأذكار .ليجتمع أفراد أسرتك على طاعة الله، كما اجتمعت الجبال والطير مع داود.
· تطبيق) آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا(: إذا رزقك الله أولاداً نجباء، أو زوجة صالحة، فاعلم أنه فضل من الله .لا تنسب ذلك إلى مجهودك فقط .اشكر الله، واطلب منه أن يديم فضله.

.٣في حياتك النفسية والروحية:

· تطبيق) إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(: استحضر هذه الآية عند كل همّ بالمعصية .وعند كل فتور عن الطاعة .عند كل إهمال في العمل .هذا الاستحضار هو العلاج الناجع للغفلة والتقصير.
· تطبيق) العبادة والعمل(: نظم وقتك بحيث لا يطغى جانب على جانب .اجعل لك حداً أدنى من العبادة اليومية) الفرائض، ورد قرآن، أذكار .(واجعل لك حداً أدنى من العمل المتقن .هذا التوازن هو سر الطمأنينة والنجاح.

المحور الخامس

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

.١في بناء الإنسان) عقيدة وسلوكاً(:

· إنسان رباني الإتقان: يرى أن الإتقان في العمل فريضة إلهية.
· إنسان متوازن الشخصية: يجمع بين صلاح القلب وقوة اليد.
· إنسان مستشعر للفضل: متواضع شاكر، لا يغتر بما عنده.
· إنسان ذو رقابة ذاتية: يعمل بإخلاص لأنه يشعر بمراقبة الله.

.٢في بناء المجتمع) قيم وأخلاقاً(:

· مجتمع الجودة والإنتاج: إذا تربى أفراده على "قدّر في السرد"، أصبح مجتمعاً منتجاً، يقدم أفضل السلع والخدمات، وينهض اقتصادياً.

· مجتمع الأمانة والإخلاص: إذا استشعر أفراده "إني بما تعملون بصير"، قل الغش والخداع، وسادت الأ مانة في الأسواق والمعاملات.
· مجتمع التكافل والتعاون: من يصنع "السابغات" لحماية الناس، هو في خدمة المجتمع.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية) منهج وغاية(:

· حضارة الجمع بين الروح والمادة: هذه الآيات تؤسس لحضارة فريدة، لا تقوم على المادة فقط، ولا على الروحانيات المنعزلة، بل تقوم على تزكية الروح بالعبادة، وعمارة الأرض بالصناعة والإتقان.
· حضارة الإتقان: الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها كانت حضارة إتقان في كل شيء: في بناء المساجد، في نسخ الكتب، في صناعة الأدوية، في الفلك .وهذا كله تطبيق عملي لـ "قدّر في السرد".
· نموذج داود الحضاري: داود عليه السلام هو النموذج الحضاري الكامل: ملك عادل، نبي مرسل، قائد عسكري، صانع ماهر، عابد أوّاب .هذه الأبعاد مجتمعة هي التي تصنع الإنسان الحضاري الذي تنهض به الأمم.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد فتح الله لك في هاتين الآيتين باباً من أبواب الفضل العظيم .لقد أراك نموذج داود عليه السلام، ليس لتقف عنده مبهوراً، بل لتسير على دربه .كل واحد منا يمكنه أن يكون داود زمانه، ليس في النبوة طبعاً، بل في الاقتداء به في صفاته وأعماله.

كن أوّاباً: كثير الرجوع إلى الله، كثير التسبيح والذكر.
كن صانعاً: تعلم حرفة، وأتقن عملك، واجعل منتجك "سابغات" نافعة.
كن متوازناً: وازن بين محراب عبادتك ومصنع عملك.
كن مراقباً: استشعر أن الله يراك في كل حين، في السر والعلن.

إذا فعلت ذلك، فستجد أن الله يلين لك الحديد في حياتك، أي ييسر لك الصعاب، ويفتح لك أبواب الرزق والنجاح من حيث لا تحتسب .وستجد أن حياتك تمتلئ بالبركة، وأن أعمالك الصالحة ترفعك درجات عند الله.

فانهض الآن، وابدأ من جديد .اجعل من هذه الآيات دستوراً ليومك .وابدأ عملك بقول: "بسم الله، اللهم إني أسألك فضلك، ويسّر لي أمري، واجعلني ممن يقدر في السرد، ويراقبك في كل عمل" .بهذا تكون قد دخلت مدرسة داود عليه السلام، وبدأت رحلة الاقتداء بالصالحين.
المبحث الثاني
أيها القلب المتطلع إلى معالي الأمور، أيها السائر في درب العبودية، تعال بنا لنقف على أعتاب آيتين كريمتين من سورة سبأ، تفيضان بالمعاني السامية، وترسمان لنا صورة مشرقة لنموذجين عظيمين: نموذج سليمان عليه السلام في تسخير الله له، ونموذج آل داود في شكرهم العملي .إنها الآيات التي تجيب عن سؤال جوهري: كيف يكون الشكر الحقيقي؟ وما هو جزاء الشاكرين؟ ولماذا قلّ الشكور؟

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يعرض علينا هذه النعم العظيمة التي أنعم بها على سليمان عليه السلام، ثم التوجيه الإلهي الخالد لآل داود ولنا جميعاً:
﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سبأ:12 -13].

هاتان الآيتان الكريمتان ليستا مجرد سرد تاريخي لمملكة سليمان، بل هما دستور الشكر العملي، ومرآة تكشف حقيقة أنفسنا، ودعوة مفتوحة لنا لنكون من "عبادي الشكور" .إنهما يضعان أمامنا قانوناً إلهياً ثابتاً: كلما زادت النعم، زادت مسؤولية الشكر.

الأمر الأول:
تسخير الريح لسليمان عليه السلام) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ .الواو عاطفة على ما سبق من فضل الله على داود عليه السلام .

فهنا فضل الله على ابنه سليمان.

· دلالة التسخير:
الريح مسخرة لسليمان بأمر الله .والريح قوة طبيعية هائلة لا تقهر، ولكن الله سخرها لنبيه، فكانت تجري بأمره حيث شاء .هذا التسخير هو معجزة إلهية وتكريم رباني.
· دلالة) غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ(:
الغدو هو السير من أول النهار إلى الزوال .والرواح هو السير من الزوال إلى الليل .فالريح كانت تقطع في نصف يوم مسافة شهرين كاملين) شهر ذهاباً وشهر إياباً .(وهذا يعني أن سليمان عليه السلا م كان بإمكانه أن يحكم مملكة واسعة جداً، ويصل إلى أطرافها بسرعة فائقة، دون تعب ولا مشقة . إنها سرعة فائقة لم يعرفها البشر إلا في عصر الطائرات والصواريخ، فكأنها طائرة سليمان الخاصة التي سخرها الله له.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· الطائرات الحديثة: اليوم، يقطع الإنسان المسافات الطويلة في ساعات، وهذا من تسخير الله لنا . ولكن هل نشكر الله على هذه النعمة كما شكر سليمان؟ أم نستخدمها في المعاصي والأسفار المحرمة؟
· الإنترنت: شبكة المعلومات العالمية جعلت العالم قرية صغيرة .تستطيع أن تصل إلى أي مكان في العالم بضغطة زر .هذا نوع من التسخير العصري .فهل نستخدمه في طاعة الله ونشر الخير، أم في نشر الفساد والضلال؟
· الرسائل النفسية والتربوية:
.1 التسخير نعمة تستوجب الشكر: كل ما سخر لك في هذا الكون من سيارات وطائرات واتصالات، هو من فضل الله .استخدمها في طاعته، واشكره عليها.
.2 سرعة العصر لا تعني الراحة النفسية: سليمان عليه السلام رغم هذه السرعة الفائقة، كان في قمة العبودية والشكر .ونحن اليوم رغم سرعتنا، نعيش في قلق وتوتر .لأننا نركب النعم ولا نركب الشكر.
الأمر الثاني:
تسخير عين القِطْر والجن) وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ۖ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا تتجلى نعم أخرى عظيمة، تسخر لسليمان عليه السلام:

· دلالة) وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ(:
"القطر" هو النحاس المذاب .أسلنا له عيناً من النحاس المذاب تتفجر من الأرض، دون حاجة إلى مناجم أو أفران صهر .إنها ثروة طبيعية هائلة سخرها الله له بلا عناء.
· دلالة) وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ(:
هذا هو التسخير الأعجب .الجن، وهم مخلوقات خفية قوية، سخرهم الله لسليمان يعملون تحت إمرته، طائعين لأمر الله .وهذا تكريم عظيم، حيث أصبحت قوى غيبية هائلة في خدمة نبي الله.
· دلالة التهديد للجن) وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(:
هذا يدل على أن طاعتهم لسليمان لم تكن عن حب واختيار، بل عن تسخير قهري بأمر الله، وأن من يخرج منهم عن الطاعة ينتظره عذاب النار .هذا التفصيل يبين عظمة قدرة الله التي سخرت حتى المتمردين من الجن لخدمة عبده الصالح.
الأمر الثالث:
تفصيل أعمال الجن لسليمان) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه الآية تفصّل ما كان يصنعه الجن لسليمان عليه السلام، وهي صورة من العمارة الحضارية التي كانت في مملكته.

· {مَحَارِيبَ}: جمع محراب، وهو المكان المرتفع للعبادة، أو القصور العالية والحصون.
· {وَتَمَاثِيلَ}: صور ورسومات ونقوش، وكانت في شريعتهم جائزة، وتستخدم للزينة والعمران .وقد قيل إنها تماثيل الأنبياء والعلماء لتكون تذكرة وعبرة، وليست للعبادة.
· {وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ}: الجفان هي الأواني الكبيرة للطعام، والجوابي هي الأحواض الضخمة التي تجمع الماء .أي كانوا يصنعون له أواني طعام ضخمة جداً كأحواض الماء، لإطعام جيوشه وعماله.

· ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾: قدور ثابتة لا تتحرك من مكانها لعظم حجمها وثقلها.
· اللمسة البيانية:
هذا الوصف يدل على عظمة المملكة وازدهارها العمراني والحضاري .إنها ليست مملكة فقر وزهد مادي، بل مملكة جمعت بين العبادة) المحاريب (والفن والجمال) التماثيل (والضيافة والكرم) الجفان (و القوة والثبات) القدور الراسيات .(إنه نموذج للدولة التي تستخدم النعم في إقامة حضارة شامخة.
· الرسائل النفسية والتربوية:
1. النعم وسيلة لا غاية: كل هذه الأعمال العظيمة كانت في مملكة نبي .فاستخدام النعم في العمران والتقدم الحضاري ليس مذموماً، بشرط أن يكون في طاعة الله وشكره، وألا يلهي عن العبادة.
2. التنوع الحضاري: الحضارة الإسلامية التي تمثلها مملكة سليمان تشمل العبادة) المحاريب(، والفن الراقي) التماثيل(، والاقتصاد والضيافة) الجفان(، والصناعة) القدور .(إنها حضارة متكاملة لا تعرف الفصل التعسفي بين الدين والدنيا.
الأمر الرابع:
الدستور الإلهي الخالد) اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا يصل الخطاب القرآني إلى ذروته، وإلى المغزى الأسمى من سرد هذه النعم كلها: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾.

· دلالة النداء) آلَ دَاوُودَ(:
النداء لآل داود، أي لأسرة داود وذريته، وعلى رأسهم سليمان عليه السلام .وهو نداء تكريم وتشريف لهم، وفيه تذكير بنعمة الله على أبيهم داود، ثم عليهم.
· دلالة الأمر) اعْمَلُوا(:
الشكر هنا لم يكن مجرد قول باللسان: "الحمد لله"، بل كان عملا ً بالجوارح ."اعملوا" أي اعملوا بطاعة الله، وأدوا فرائضه، واجتهدوا في عبادته، واستخدموا نعمه في مرضاته.
· دلالة) شُكْرًا(:
مفعول لأجله، أي اعملوا لأجل الشكر، أو شاكرين .فالشكر هو الغاية والعلة من كل هذه الأعمال و النعم .فكأنه يقول: يا آل داود، لقد أنعمنا عليكم بهذه النعم العظيمة) النبوة، الملك، تسخير الريح و الجن والقطر(، فقابلوا هذه النعم بالعمل شكراً لله.
· الشكر العملي: حقيقته وتطبيقاته
هنا يتجلى مفهوم الشكر الحقيقي الذي تريده الآية .الشكر ليس كلمة تقال فحسب، بل هو:
1. طاعة الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي.
2. استخدام النعمة فيما يرضي الله: فالعالم يشكر الله بنشر علمه، والغني بشكر الله بالصدقة، و القوي بشكر الله بنصرة المظلوم.
3. الاعتراف بالنعمة لله وحده، ونسبها إليه، والتحدث بها.
4. عدم استخدام النعمة في معصية الله.
· أمثلة تقريبية للشكر العملي في حياتنا:
· نعمة الصحة: شكرها أن تستخدم قوتك في طاعة الله: صلاة، صيام، حج، جهاد، خدمة للوالدين، سعي على الأرزاق الحلال.
· نعمة المال: شكرها أن تخرج الزكاة والصدقات، وأن تنفق على أهلك بالمعروف، وأن لا تبذر ولا تقتر.
· نعمة العلم: شكرها أن تعلم الناس الخير، وأن ترد على الشبهات، وأن تخدم أمتك بعلمك.
· نعمة الجاه والمنصب: شكرها أن تحكم بالعدل، وتنصف المظلوم، وتسهل أمور الناس.
· الرسالة التربوية العظمى:
الآية تنقلنا من شكر الأقوال إلى شكر الأفعال .كم منا يقول "الحمد لله" ثم يستخدم نعم الله في معاصيه؟ هذا ليس بشكر .الشكر الحقيقي هو الذي يظهر في سلوكك وأعمالك .وهذا هو ميراث آل داود الذي أمرنا أن نقتدي بهم فيه.
الأمر الخامس:
الخاتمة المبكية) وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد هذا الأمر العظيم، تأتي الخاتمة التي ينبغي أن تهز كيان كل واحد منا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

· دلالة) قَلِيلٌ(:
قلة الشاكرين حقيقة قرآنية .كثير من الناس ينعم الله عليهم، ولكنهم يغفلون عن الشكر، أو يشكرون بألسنتهم دون قلوبهم وجوارحهم .الشكور هو الذي يبذل غاية جهده في الشكر، وهذا مقام ع ال لا يصل إليه إلا القليل.
· لمسة بيانية في كلمة) الشّكورُ(:
صيغة "فعول" تدل على المبالغة والكثرة ."الشكور" هو كثير الشكر، الذي يرى النعمة في كل شيء، ويشكر الله عليها في كل حين .ليس فقط عند تلقي النعم الظاهرة، بل حتى في الابتلاءات، لأنه يرى فيها نعمة التكفير عن الذنوب ورفع الدرجات .وهذا هو مقام الصديقين.
· لماذا قلّ الشكور؟
· الغفلة: الإنسان بطبعه يغفل عن النعم حتى يفقدها.
· الاسترسال في النعم: النعمة قد تطغيه وتلهيه عن المنعم.
· اعتياد النعم: كثرة النعم تجعل الإنسان يراها أمراً عادياً مستحقاً، لا فضلا ً من الله.
· الجهل بحقيقة الشكر: كثيرون يظنون أن الشكر هو مجرد كلمة باللسان.
· الرسائل النفسية والتربوية:
.1 محاسبة النفس: هذه الجملة هي سؤال موجه لكل واحد منا: أين أنت من "عبادي الشكور"؟ هل أنت من القليل أم من الكثير الغافل؟!
.2 المنافسة في الشكر: إذا كان الشكور قليلا ً، فسارع لتكون منهم .نافس الصالحين في هذا المقام العظيم .ادعُ الله أن يجعلك من الشاكرين.
.3 الخوف من الغفلة: هذه الآية تزرع في قلبك الخوف أن تكون من الغافلين عن شكر نعم الله، فتجتهد في تذكر النعم وشكرها.
اهم المواضيع من الايه
الموضوع الأول1
ما الذي نتعلمه من الآيتين؟ وما الذي تدعوانا إليه؟

أولا ً: نتعلم حقيقة الشكر العملي:

· الشكر ليس كلمة "الحمد لله" فقط، بل هو ترجمة الإيمان إلى عمل صالح.
· كل نعمة هي مسؤولية .هل تستخدم نعمة السمع في سماع الغيبة أم في سماع القرآن؟ نعمة البصر في النظر إلى الحرام أم في التفكر في ملكوت الله؟ نعمة المال في التبذير والمعاصي أم في الإنفاق في الخير؟

ثانياً: نتعلم أن النعم ابتلاء واختبار:

· كثرة النعم ليست دائماً دليل رضا مطلق، بل هي اختبار .قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل:.[40

ثالثاً: نتعلم التواضع عند النعم:

· آل داود في قمة النعم) ملك، تسخير، ثروة(، ومع ذلك يوجههم الله إلى الشكر .لم يقولوا: "نحن أبناء داود، والنعم حق مكتسب لنا" .بل كانوا في قمة العبودية والخضوع .وهذا يعلمنا ألا نتكبر بما أعطانا الله.

رابعاً: تدعونا الآيتان إلى:

.1تدبر نعم الله علينا: أن نعيش بيقظة، فنرى نعم الله في كل لحظة) الصحة، العقل، المال، الأمن، التكنولوجيا.(...
.2تحويل النعم إلى طاعات: أن نجعل من كل نعمة وسيلة لطاعة الله.
.3الاجتهاد في سلوك طريق الشاكرين القليلين: أن ننضم إلى ركب "عبادي الشكور".
.4بناء حضارة الشكر: أن نبني مجتمعاً وحضارة تقوم على مبدأ "اعملوا آل داود شكراً"، أي استخدام النعم والموارد في عمارة الأرض وطاعة الله.
الموضوع الثانى

أسئلة تدبرية: كيف نعيش الآيتين؟

.1سؤال النعمة: ما هي "الريح" التي سخرها الله لك في حياتك) سيارة، إنترنت، وظيفة مريحة(؟ كيف تستخدمها؟ هل هي في طاعة أم في معصية؟
.2سؤال "عين القطر": ما هي مصادر الرزق الوفيرة التي أجراها الله لك) راتب شهري، تجارة رابحة، إرث(؟ كم منها يذهب في وجوه الخير شكراً لله؟ وكم يذهب في الإسراف والترف المذموم؟
.3سؤال "الجن العاملين": من هم "الجن" الذين سخرهم الله لخدمتك) عمال، موظفون، أجهزة إلكترونية(؟ هل تعاملهم برفق وإحسان شكراً لله على تسخيرهم لك؟ هل تؤدي لهم حقوقهم كاملة؟
.4سؤال المحاريب: أين هو "محرابك" في حياتك المزدحمة؟ هل لك مكان وزمان خاصان لعبادة الله والخلوة به؟
.5سؤال التماثيل: هل تستخدم الفن والجمال فيما يرضي الله) زينة المساجد، البيوت النظيفة المرتبة، جمال المظهر (دون إسراف أو مخيلة؟
.6سؤال الجفان والقدور: هل بيتك مفتوح للضيفان؟ هل تطعم الطعام وتحض على المسكين؟ أم أن خيراتك محصورة في أسرتك فقط؟
.7السؤال الأكبر والأهم) وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(: بعد هذا العدد من النعم التي تغمرك، وبعد هذا البيان لحقيقة الشكر، أجب بكل صدق: أين أنا من هذه الآية؟ هل أنا من هذا القليل؟ وما الدليل العملي على ذلك؟

الموضوع الثالث

كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية(

.١تمرين جرد النعم اليومي) دفتر الشكر(:

· في نهاية كل يوم، وقبل النوم، خذ ورقة وقلمًا، واكتب ثلاث نعم أنعم الله بها عليك في هذا اليوم)مثلا ً: استيقظت بصحة، وصليت الفجر، وصلت إلى عملي بسلام .(ثم اكتب بجانب كل نعمة: كيف كان شكري العملي عليها؟) مثلا ً: استخدمت صحتي في مساعدة فلان، شكرت الله بعد الصلاة، استخدمت سيارتي في توصيل زميلي .(هذا التمرين يجعلك تعيش الشكر العملي.

.٢تحويل النعم إلى مشاريع خير:

· فكر في كل نعمة كبيرة لديك، وحوّلها إلى مشروع شكر دائم.
· نعمة المال: خصص مبلغاً شهرياً ثابتاً لكفالة يتيم أو طالب علم.
· نعمة العلم: خصص ساعة أسبوعياً لتعليم أحد أبناء الجيران أو الأقارب القرآن أو مادة دراسية.
· نعمة الصحة: ساعد في حمل أغراض جارك المسن.

.٣ثقافة "الاعتراف بالنعمة":

· لا تقل عن نجاحك: "هذا بذكائي وجهدي" .بل قل: "هذا من فضل ربي" .علم أبناءك هذه الثقافة .إذا نجح ابنك، قل له: "الحمد لله، هذا فضل من الله، فاشكر الله بصلاة ركعتين".

.٤في بيئة العمل:

· إذا كنت مديراً، فتذكر أن الموظفين الذين يعملون بين يديك هم من تسخير الله لك .عاملهم بالعدل والرفق، وادفع لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، شكراً لله .وإذا كنت موظفاً، فتذكر أن وظيفتك هي نعمة من الله، اشكرها بإتقان العمل والإخلاص فيه.

الموضوع الرابع

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

.١في بناء الإنسان:

· إنسان شاكر: يرى النعمة في كل شيء، ويقابلها بعمل صالح .هذا الإنسان يعيش في حالة دائمة من الرضا والطمأنينة، لأنه يرى أن كل ما هو فيه هو فضل من الله يستوجب الشكر، حتى الابتلاء.
· إنسان منتج: الشكر العملي يجعله دائم الإنتاج والعمل، لأنه يريد أن يترجم شكره إلى أفعال نافعة.
· إنسان متواضع: يعلم أن الفضل كله من الله، فلا يغتر بما عنده.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع البر والإحسان: إذا سادت ثقافة "اعملوا شكراً"، انتشرت الصدقات، والتكافل، وإطعام الطعام،

وإغاثة الملهوف.
· مجتمع الجودة والإتقان: العامل الذي يعمل شكراً لله يتقن عمله ويخلص فيه.
· مجتمع العدالة: الحاكم الذي يعمل شكراً لله يحكم بالعدل، والتاجر الذي يعمل شكراً لله لا يغش ولا يحتكر.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية:

· حضارة الشكر: الحضارة الإسلامية في جوهرها هي حضارة شكر .فهي تقوم على استخدام نعم الله)الموارد، الطاقات، العقول (في عمارة الأرض وطاعة الله .والقرآن الكريم يقرر سنة إلهية: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: .[7 فالشكر هو مفتاح زيادة النعم واستمرار الحضارة وازدهارها .وحضارة سليمان عليه السلام هي النموذج الأسمى لهذه الحضارة الشاكرة.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد فتح الله لك في هاتين الآيتين خزائن من المعاني .لقد رأيت كيف سخر الله الكون كله لعباده الصالحين، وكيف أمرهم أن يقابلوا هذا الفضل العظيم بالشكر العملي .ثم فاجأك بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

هذه الجملة ليست للتثبيط، بل للاستفزاز الإيماني! إنها صرخة إيقاظ لكل غافل، ودعوة ملحة لكل مشتاق: "أسرع لتكون من هذا القليل! نافس على هذا المقام العظيم! لا ترضَ أن تكون من الكثرة الكافرة أو الغافلة!".

ابدأ من الآن .غير نظرتك للنعم .لا تراها حقاً مكتسباً، بل فضلا ً من الله .ترجم شكرك إلى عمل . اجعل حياتك كلها ترجمة عملية لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ .كن عبداً شكوراً، ترى النعمة في كل شيء، وتشكر الله عليها بكل جارحة، في كل حين .بذلك تنضم إلى ركب القليل الذين أثنى الله عليهم، وتكون وارثاً لآل داود في الشكر، كما كنت وارثاً لهم في الإيمان.
والمبحث الثالث.

أيها السائر في دروب الحياة، المأخوذ ببريقها وزخرفها، المتعلق بأسبابها الظاهرة، تعال بنا لنقف مع آية كريمة من سورة سبأ، آية تهز كيان الغافل، وتوقظ قلب المتكبر، وتعيد للإنسان رشده في زحمة الا نشغال بالدنيا .إنها الآية التي تروي مشهدًا مهيبًا، مشهدًا لا يتكرر إلا ليكون عبرة خالدة للبشرية جمعاء: مشهد موت نبي الله سليمان عليه السلام.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يعرض علينا هذا المشهد العجيب بكل أبعاده ودلالاته:
﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:.[14

هذه الآية الكريمة ليست مجرد مشهد من نهاية حياة نبي عظيم، بل هي درس إلهي عميق، ومدرسة تربوية متكاملة، تكشف عن حقائق كونية لا تتغير: حقيقة الموت الذي لا يفرق بين نبي وملك وفقير، وحقيقة أن علم الغيب لله وحده، وحقيقة أن القوة والسلطان زائلة لا محالة .إنها تدعونا إلى إعادة النظر في حساباتنا كلها، وإلى توجيه بوصلتنا نحو ما يبقى، لا نحو ما يفنى.
موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

في الآيات السابقة، رأينا كيف أنعم الله على سليمان عليه السلام بنعم عظيمة لم يعطها أحدًا من العالمين: تسخير الريح، وإلانة عين القطر، وتسخير الجن يعملون بين يديه كل ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان وقدور راسيات .لقد كان ملكًا عظيمًا لم يشاركه فيه أحد.

وهنا، في هذه الآية، يأتي المشهد الختامي لهذه المملكة العظيمة .إنه مشهد النهاية الحتمية لكل حي، حتى لو كان سليمان عليه السلام .فالآية تنتقل من سرد عظمة الملك إلى عرض حتمية الزوال، لتؤكد حقيقة قرآنية كبرى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:26 - .[27فبعد بيان فضل الله على سليمان، يأتي بيان أن هذا الفضل لم يمنع الموت، لأن الموت قضاء الله النافذ في جميع خلقه.

الأمر الأول:
قضاء الله بالموت على سليمان) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بالفاء العاطفة: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ﴾ .وهذا يدل على أن هذا الحدث هو النتيجة الطبيعية والحتمية لكل ما سبق من نعم وملك .فمهما عظم الملك، فإن النهاية هي الموت.

· دلالة) قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ(:
اختيار الفعل "قضى" دون "أمات" أو "توفى" له دلالات عميقة ."القضاء" يعني الحكم النافذ الذي لا يرد .فالموت هو قضاء إلهي محتوم على كل نفس، لا يملك أحد دفعه أو تأخيره .والتعبير ب- "عَلَيْهِ" يشير إلى أن الموت ينزل على الإنسان كأمر واقع من فوق، لا مهرب منه.
· لمسة بيانية:
الآية لا تذكر كيف مات سليمان، ولا كم كان عمره، ولا أي تفاصيل أخرى .لماذا؟ لأن التركيز ليس على تفاصيل الموت، بل على حقيقة الموت نفسها، وعلى ما بعد الموت من انكشاف الحقائق .فالقرآن ينتقل بنا سريعًا إلى العبرة الأساسية.
· الرسائل النفسية والتربوية والعقلية:
1. حتمية الموت للجميع: سليمان عليه السلام، بكل ما أوتي من ملك وقوة وتسخير، مات .هذه هي نهاية كل حي .فلا تغتر بقوتك أو مالك أو جاهك، فالموت قضاء نافذ لا يحابي أحدًا.
2. التذكرة الدائمة: هذه الآية تذكرنا أن نعيش حياتنا ونحن على يقين أن الموت قادم لا محالة . هذا اليقين يجعلنا نستعد له بالعمل الصالح، ونخفف من التعلق بالدنيا الفانية.
3. الموت نهاية الأجل: مهما طال العمر، ومهما بلغ الإنسان من القوة، فإن الأجل المحتوم سيأتي في وقته الذي قدره الله .فلا يظن أحد أنه بمنجى من الموت.

الأمر الثاني:
خفاء موته على الجن ووسيلة اكتشافه) مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا يكمن قلب المشهد وذروته العجيبة .لقد مات سليمان عليه السلام، وظل على كرسيه متكئًا على منسأته) عصاه(، والجن يعملون حوله منشغلين في المهام الشاقة التي كلفهم بها، وهم يظنون أنه حي يراقبهم.

· دلالة) مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ(:
الضمير "هم" يعود إلى الجن .لقد خفي عليهم موت سليمان مع أنهم كانوا حوله .لماذا؟ لأن الله أراد أن يظهر حقيقة كبرى، وهي أن الجن لا يعلمون الغيب .ولو كانوا يعلمون الغيب، لعلموا بموت سليمان في الحال.
· دلالة) دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ(:
"دابة الأرض" هي الأرضة، وهي حشرة صغيرة جدًا تأكل الخشب .و"المنسأة" هي العصا .هذه الحشرة الضعيفة الصغيرة كانت هي الأداة الإلهية لكشف الحقيقة .لقد أكلت عصا سليمان من الداخل بهدوء وبطء، حتى أصبحت ضعيفة مجوفة، وعندها انكسرت العصا، وخرّ جسد سليمان ساقطًا على ا لأرض.
· اللمسات البيانية والبلاغية:
· التضاد بين القوة والضعف: في هذا المشهد تضاد عجيب .مملكة سليمان قامت على تسخير الجن الأقوياء، وصناعة القدور الراسيات الضخمة، وبناء المحاريب الشامخة .ومع ذلك، فإن الحشرة الصغيرة الضعيفة) الأرضة (هي التي هدمت هذا البنيان وكشفت الحقيقة! إنه تذكير إلهي بأن القوة لله جميعًا، وأنه يمكن أن يسلط أضعف مخلوقاته على أعظم مخلوقاته.
· رمزية المنسأة: عصا سليمان كانت رمزًا لسلطانه وقوته وهيئته .فلما أكلتها الأرضة، انهار الرمز، وظهر الضعف البشري .وهذا درس لكل من يغتر بسلطانه أو قوته، فما هي إلا عصا تأكلها دودة الأ رض!
· أمثلة تقريبية من واقع الحياة:
· المباني الشاهقة: كم من مبنى شاهق بني بأحدث التقنيات، ثم انهار بسبب صدع صغير في أساساته أو بسبب حشرة النمل الأبيض) الأرضة (التي تنخر في أساساته الخشبية!
· صحة الإنسان: كم من إنسان قوي البنية، يمارس الرياضة ويأكل أفضل الطعام، فإذا بفيروس صغير جدًا لا يُرى بالعين المجردة يدخل جسده فينهكه ويقضي عليه!
· الشركات العملاقة: كم من شركة عظيمة لها فروع في كل العالم، تنهار بسبب خطأ إداري صغير أو

بسبب منافس غير متوقع! كل هذه أمثلة على أن القوة الظاهرة قد تزول بأضعف الأسباب، إذا أراد الله ذلك.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 التواضع وعدم الاغترار: هذه الآية تربي فينا التواضع لله، وعدم الاغترار بالقوة أو المال أو المنصب .فكل ما نحن فيه معرض للزوال في لحظة.
.2 عدم الاستهانة بالصغائر: "الأرضة" مخلوق صغير جدًا، لكنها فعلت فعلًا عظيمًا .وكذلك الأعمال الصغيرة، قد تكون سببًا في سعادة الإنسان أو شقائه .لا تستصغر حسنة ولا معصية.
.3 الأخذ بالأسباب مع التوكل: سليمان مات وهو متكئ على عصاه، وكأنه كان يعمل ويراقب مملكته حتى آخر لحظة .وهذا يعلمنا أن نأخذ بالأسباب ونجتهد في أعمالنا، ولكن مع التوكل على الله و اليقين بأن النهاية بيده وحده.
الأمر الثالث:
انكشاف الحقيقة للجن) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا تصل الآية إلى ذروة الدرس والعبرة، وإلى الهدف الأساسي من القصة.

· دلالة) فَلَمَّا خَرَّ(:
عندما سقط جسد سليمان على الأرض، عندها فقط تبينت الجن الحقيقة .لقد عرفوا أنه مات منذ مدة طويلة، وهم يعملون في الأشغال الشاقة وهم يظنون أنه حي.
· دلالة) تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ(:
هذا هو الدرس الأكبر .الجن الذين كانوا يعملون لسليمان، والذين يُظن أن لهم اتصالًا بالغيب، لم يعلموا بموته إلا بعد أن سقط جسده! إذن، فهم لا يعلمون الغيب .هذه الآية هي رد قاطع على كل من يدعي أن الجن أو الكهان أو السحرة يعلمون الغيب.
· دلالة) مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ(:
"العذاب المهين" هو الأشغال الشاقة والأعمال المرهقة التي كانوا يقومون بها لسليمان .والآية تقول: لو كانوا يعلمون الغيب، لعلموا بموت سليمان ولتوقفوا عن هذا العمل الشاق فورًا، ولما استمروا فيه كل هذه المدة .فاستمرارهم في العمل دليل على جهلهم بالغيب.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 علم الغيب لله وحده: هذه هي العقيدة الإسلامية الصافية .لا أحد يعلم الغيب إلا الله .لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا جني، ولا إنسي .من يدعي علم الغيب فهو كاذب أفاك .وهذه الآية تحصن المسلم من الذهاب إلى الدجالين والمشعوذين.
.2 بطلان ادعاءات الكهان: في عصرنا، هناك من يدعي قراءة الطالع ومعرفة المستقبل، ويزعم أن له اتصالًا بالجن .هذه الآية تفضحهم، فها هم الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب، فكيف بمن يدعيه من البشر ؟!
.3 التحرر من الخوف من الجن: بعض الناس يخافون من الجن خوفًا شديدًا، ويظنون أنهم يعلمون ما في قلوبهم أو ما سيحدث لهم .هذه الآية تحررك من هذا الخوف، فالجن لا يعلمون الغيب، ولا يملكون لك ضرًا ولا نفعًا إلا بإذن الله.
.4 الاعتماد على الله وحده في تدبير المستقبل: بما أن الغيب لله وحده، فعلينا أن نخطط للمستقبل ونجتهد، ثم نتوكل على الله، ونفوض أمرنا إليه، فهو وحده العالم بما سيكون.

***أبعاد الآية وقيمها وأفاقها التربوية والعملية

بعد هذا التحليل، تتضح لنا الأبعاد العظيمة لهذه الآية:

أولًا: الأبعاد العقدية والفكرية:

· إثبات حتمية الموت وقدرة الله المطلقة: الموت قضاء نافذ لا مفر منه.
· إثبات أن علم الغيب لله وحده: ونفي ذلك عن الجن وعن كل المخلوقات.
· التحذير من الاغترار بالقوة والسلطان: فكل ذلك زائل.

ثانيًا: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· الزهد في الدنيا: عندما ترى نهاية أعظم ملك، تهون في عينك الدنيا وزخارفها.
· التواضع والخضوع لله: فلا يتكبر الإنسان بما عنده من قوة أو نعمة.

· الطمأنينة والتحرر من الخوف: فالغيب بيد الله، والجن لا يعلمونه، فلا داعي للخوف منهم.

ثالثًا: القيم التي تدعو إليها الآية:

· قيمة التواضع: مهما بلغت من القوة، فأنت ضعيف.
· قيمة اليقين بالموت: والاستعداد له.
· قيمة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله.
· قيمة العلم واليقين بأن الغيب لله.

رابعًا: الآفاق التربوية والعملية:

· تربية النفس على عدم الاغترار بالنعم.
· تربية العقل على التفكر في نهاية الأمور.
· توجيه السلوك نحو العمل الصالح استعدادًا للآخرة.
· تحصين المجتمع من الدجل والشعوذة.
***كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية(

.١في مواجهة الغرور بالنعم:

· التطبيق: كلما شعرت بالغرور بسبب نجاحك أو مالك أو جاهك، تذكر هذه الآية .تذكر سليمان عليه السلام وهو ميت على كرسيه، والجن يعملون حوله لا يشعرون .قل لنفسك: "هذه النعم التي عندي هي عارية من الله، وستزول كما زال ملك سليمان".

.٢في التعامل مع الدجالين والمشعوذين:

· التطبيق: إذا حاول أحد إقناعك بأن فلانًا من الدجالين يعرف الغيب، أو أن لديه اتصالًا بالجن، فتذكر هذه الآية .وقل له بكل يقين: ﴿تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ﴾ .الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب، فكيف بمن يدعيه من البشر؟!

.٣في التخطيط للمستقبل مع اليقين بالله:

· التطبيق: خطط لمستقبلك، وادرس، واعمل، واجتهد .ولكن لا تنسَ أن تقول: "إن شاء الله" .وفوض أمرك إلى الله، فهو وحده يعلم ما هو آت .هذا التوازن بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله هو ثمرة الإيمان بأن الغيب لله.

.٤في التربية الأسرية:

· التطبيق: علم أبناءك هذه القصة بأسلوب مبسط .قل لهم: "انظروا، أعظم ملك في الدنيا مات، والذين كانوا يخدمونه لم يعلموا بموته إلا عندما أكلت حشرة صغيرة عصاه .هذه الحشرة الصغيرة هي التي هدمت مملكته! فلا تغتروا بالقوة أبدًا" .هذا الأسلوب القصصي يغرس فيهم القيم العظيمة.

.٥في بيئة العمل:

· التطبيق: إذا كنت مديرًا، فلا تتجبر على موظفيك بقوتك وسلطتك، وتذكر أن هذا السلطان زائل، وأن الحشرة الصغيرة) مرض، موت، ظرف طارئ (قد تنهي كل شيء .عامل الناس بالرفق والتواضع . وإذا كنت موظفًا، فاعلم أن مديرك مهما بلغت قوته فهو بشر ضعيف أمام قضاء الله، فلا تخف منه أكثر مما تخاف من الله.
***دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية

.١في بناء الإنسان:

· إنسان متوازن: يعمل للدنيا وكأنه يعيش أبدًا، ويعمل للآخرة وكأنه يموت غدًا .يجتهد في عمله، ولكنه متواضع لا يغتر بإنجازاته.
· إنسان حر غير خائف: لا يخاف من أحد إلا الله، لأنه يعلم أن الغيب والقضاء بيد الله وحده.
· إنسان مستعد للموت: يعيش حياته وهو يتذكر الموت دائمًا، فيستثمر وقته فيما ينفع.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع متواضع متكافل: لا تسوده الطبقية والغرور، لأن أفراده يعلمون أن الموت يسوي بين الجميع.
· مجتمع محصن ضد الدجل والشعوذة: لا مكان فيه للمشعوذين والكهان، لأن أفراده يعلمون يقينًا أن الغيب لله.
· مجتمع قائم على الأخذ بالأسباب والاجتهاد: لا يعتمد على التواكل وانتظار الغيب، بل يسعى ويعمل ويدع النتائج على الله.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية:

· حضارة اليقين بالموت والبعث: هذه الآية تؤسس لعقيدة راسخة بأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الحضارة الحقيقية هي التي تبنى على هذا الأساس، فتهتم بالإنسان والمجتمع والأخلاق، ولا تغرق في المادية البحتة.
· حضارة العلم الحقيقي: العلم الحقيقي هو الذي يقود إلى معرفة الله وقدرته، ويدرك محدودية قدرة البشر، ويؤمن بأن هناك غيبًا لا يعلمه إلا الله.
· حضارة التواضع: الحضارة الإسلامية في ذروة قوتها كانت متواضعة، لأنها كانت تستند إلى قوة الله، لا إلى قوة البشر المادية.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد مررنا معًا على مشهد من أعظم مشاهد القرآن .مشهد يذكرنا بأن الموت هو نهاية المطاف لكل حي، وأن الغيب لله وحده، وأن القوة والسلطان زائلان.

فلا تغتر بقوتك، ولا بمالك، ولا بجاهك .تذكر سليمان عليه السلام، الذي مات على عرشه، وظل جنوده من الجن يعملون حوله لا يشعرون، حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط، وعندها فقط عرفوا أنه مات.

اجعل هذه الآية نصب عينيك دائمًا .عش بها، واستحضرها كلما راودك الغرور، أو خفت من أحد، أو فكرت في المستقبل بقلق .وقل بقلبك ولسانك: "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا .وارزقنا الاستعداد للموت قبل نزوله، واجعل خير أعمالنا خواتيمها".
القسم الثاني.
المبحث الأول
أيها المتأمل في تقلبات الدهر، أيها المشدوه من سقوط الأمم واندثار الحضارات، أيها الباحث عن سر دوام النعم وزوالها، تعال بنا لنقف مع آيتين كريمتين من سورة سبأ، تختزلان قصة أمة كاملة، وتضعان بين أيدينا قانونًا إلهيًا ثابتًا لا يتغير ولا يتبدل .إنه قانون العلاقة بين النعمة والشكر، وبين الكفر وزوال النعم .إنهما آيتان تجعلان من قصة "سبأ" مرآة نرى فيها أنفسنا، ومدرسة نتعلم فيها كيف نحافظ على نعم الله التي تترى علينا.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يفتح أمامك سجل التاريخ لتقرأ فيه العبرة بكل وضوح:
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ سبأ:15 -.[16

هاتان الآيتان الكريمتان ليستا مجرد حكاية عن قوم سبأ، بل هما تحذير إلهي مباشر لنا جميعًا، وتذكير بأن ما نحن فيه من نعم ورخاء هو فضل من الله، وأن زوالها مرهون بموقفنا منها: شكرًا أم كفرًا، إيمانًا أم إعراضًا .إنهما قانون إلهي: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: 7].

موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن عرضت الآيات السابقة نموذجين عظيمين من الشكر العملي: داود عليه السلام الذي عمل شكرًا، وسليمان عليه السلام الذي سخرت له النعم العظيمة فاستخدمها في طاعة الله، تأتي هاتان الآيتان لتقدما النموذج المقابل: نموذج قوم سبأ الذين كفروا بالنعمة فأعرضوا عن شكرها، فكانت عاقبتهم أن سُلبت منهم وحل بهم الدمار.

وهذا الترتيب القرآني البديع يحمل رسالة واضحة: انظروا إلى الفريقين، وانظروا إلى العاقبة، واختاروا

لأنفسكم أي الفريقين تريدون أن تكونوا .إنه عرض لنموذج النجاح) آل داود وسليمان (ونموذج الفشل)قوم سبأ(، ليكون لنا عبرة ومنهاج حياة.
الأمر الأول:
النعمة التي كانت لسبأ) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بالتوكيد بالقسم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ ."لقد" تفيد توكيد الخبر وأهميته .و"كان" تدل على أن هذه النعمة كانت قائمة مستقرة.

· من هم سبأ؟
سبأ هو اسم جد عربي من نسل قحطان، وقوم سبأ هم أهل اليمن، وقد أقاموا حضارة عظيمة اشتهرت بسد مأرب العظيم .كانوا في غاية النعيم والرخاء.
· دلالة) فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ(:
الآية هنا هي العلامة الدالة على قدرة الله وفضله .وكانت هذه الآية في مسكنهم نفسه، أي أنهم لم يكونوا بحاجة إلى السفر بعيدًا لرؤية نعم الله، بل كانوا يرونها أمام أعينهم كل يوم في ديارهم .وهذا أبلغ في إقامة الحجة عليهم.
· دلالة) جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ(:
هذا وصف للنعمة التي كانت لديهم .تخيل واديًا عظيمًا، على جانبيه الأيمن والأيسر بساتين وجنات ممتدة، مثمرة بأنواع الفواكه والزروع، تسر الناظرين وتغني السكان .إنه مشهد من الجمال والرخاء و الوفرة .وقد كان سد مأرب ينظم مياه الأمطار والسيول، ويسقي هذه الجنات الشاسعة.
· أمثلة تقريبية من واقعنا المعاصر:
· وادي السيليكون في أمريكا: منطقة كانت فقيرة، ثم بفضل التكنولوجيا والاستثمارات أصبحت جنة من جنات الدنيا، تدر الأموال والرخاء على أهلها.
· دول الخليج العربي: قبل اكتشاف النفط كانت صحراء قاحلة، ثم أصبحت بفضل الله مدنًا عصرية وجنات خضراء، فيها الرفاهية والنعيم.
هذه الأمثلة تعطينا صورة مصغرة عن حال سبأ، وتجعلنا نتساءل: هل نحن شاكرون لهذه النعم أم كافرون؟
· الرسائل النفسية والتربوية:
1. النعم الظاهرة آيات من الله: كل ما حولك من خير ورخاء وأمن وصحة هو آية من الله، دليل على فضله وقدرته .فلا تمر عليها مرور الكرام.
2. قرب النعمة يزيد المسؤولية: نعمة سبأ كانت في مسكنهم، يرونها صباح مساء .وكذلك نعمنا معنا في بيوتنا، في أجسادنا، في أموالنا .قربها منا يوجب علينا شكرًا دائمًا.
الأمر الثاني:
التوجيه الإلهي لسبأ) كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد وصف النعمة، يأتي الأمر الإلهي لهم على لسان أنبيائهم: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

· دلالة الأمر) كُلُوا(:
إباحة التمتع بالنعمة .فليس مطلوبًا منهم الزهد فيها، بل الأكل منها والاستمتاع بها، ولكن بشرط.
· دلالة) رِّزْقِ رَبِّكُمْ(:
تذكيرهم بأن هذا الرزق هو من الرب، المربي والمنعم، وليس من كسبهم أو قوتهم .هذا يزرع في القلب المحبة والشكر للرزاق.
· دلالة الأمر الثاني) وَاشْكُرُوا لَهُ(:
هذا هو الشرط والمقابل .تمتعوا، ولكن اشكروا .والشكر هنا كما تعلمنا من قصة آل داود هو شكر عملي: بأن تؤدي حق الله في هذه النعمة، فتعطي منها الفقير، وتتقوى بها على طاعة الله، ولا تستخدمها في معصيته.
· دلالة التعليلين) بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(:
هذا ترغيب في الشكر .فبلدتهم بلدة طيبة: أرضها خصبة، وهواؤها معتدل، لا هوام ولا سباع مؤذية .وربهم غفور: فلو قصروا في الشكر ثم تابوا، فإن الله غفور يقبل توبتهم .فاجتمع لهم طيب المكان وكرم المنعم .فما أعظمها من دوافع للشكر!
· الرسائل النفسية والتربوية:

1. الشكر مفتاح دوام النعمة: الآية تربط بين الأكل من الرزق والشكر .فكأنها تقول: إذا أردتم أن يستمر رزقكم، فاشكروا .وإذا أردتم أن ينقطع، فاكفروا.
2. التذكير بمصدر النعمة: كلما تمتعت بنعمة، تذكر أنها "من رزق ربك"، فهذا يورثك محبة الله وخشيته.
3. سعة رحمة الله وفتح باب التوبة: قوله "ورب غفور" يعلمنا أننا مهما قصرنا في الشكر، فباب التوبة مفتوح، فلا نيأس، بل نعود ونجدد الشكر.

الأمر الثالث:

الإعراض واستحقاق العقوبة) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا تأتي نقطة التحول في القصة، وبداية المأساة: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ .كلمة واحدة تلخص موقفهم كله .لم يكفروا بالله فقط، بل أعرضوا عن النصيحة، وعن الشكر، وعن العبادة، وانشغلوا بالدنيا عن الآخرة.

· دلالة) فَأَعْرَضُوا(:
الإعراض هو الانصراف عن الشيء وعدم الالتفات إليه .لقد أعرضوا عن أمر الله، وعن شكره، وعن عبادته.
· دلالة) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ(:
"العرم" هو السد العظيم الذي بنوه لحجز المياه وتوزيعها .وقيل هو اسم الوادي .فأرسل الله عليهم سيلا ً عارمًا مدمرًا، ربما أرسل الله جرذانًا أو دابة الأرضة لتأكل السد حتى انهار، فاندفعت المياه تجرف كل شيء .إنها نفس القصة: أضعف المخلوقات تدمر أعظم الحضارات عندما يأذن الله بذلك.
· دلالة) وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ(:
هذا هو التبديل العكسي .بعد أن كانت جناتهم فواكه يانعة ونعيمًا مقيمًا، أصبحت:
· أُكُلٍ خَمْطٍ: ثمر مر كريه الطعم، وقيل هو الأراك المر.
· وَأَثْلٍ: شجر الطرفاء، وهو شجر لا ثمر له، صلب الخشب، قليل النفع.
· وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ: قليل من شجر النبق، وهو خير ما فيها، ولكنه قليل جدًا.
فتحولت الجنة إلى أرض سبخة قاحلة، لا تصلح إلا للشجر البري الذي لا نفع فيه.
· اللمسة البيانية) وَبَدَّلْنَاهُمْ(:
لم يقل "أبدلناهم" التي تفيد الإبدال بخير، بل قال "بدلناهم" التي تفيد التغيير إلى الأسوأ .وهذا هو الجزاء العادل للإعراض.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الإعراض عن الشكر سبب زوال النعم: هذا هو القانون الإلهي الذي لا يحابي أحدًا .أمة سبأ المتقدمة حضاريًا لم ينفعها تقدمها عندما كفرت بأنعم الله.
2. العقوبة من جنس العمل: لما أعرضوا عن نعمة الله، بدلهم الله نعمتهم نقمة .وهذا عدل إلهي.
3. التحذير من الغفلة: هذه الآية تحذرنا من أن نكون كقوم سبأ، نعم بنعم الله ونحن غافلون معرضون، فيأتي يوم نفيق فيه على خراب بيوتنا وزوال نعمنا.

مقارنة بين موقفين:
سبأ الكافرون وقوم بلقيس المؤمنون

في سياق سورة سبأ، وفي قصص الأنبياء عمومًا، تظهر مقارنة عجيبة بين موقفين من النعمة والدعوة إلى التوحيد:

وجه المقارنة قوم سبأ) في الآيتين15 - (16قوم بلقيس) مع سليمان عليه السلام(
النعمة جنات عن يمين وشمال، بلدة طيبة، رخاء عظيم .مملكة عظيمة، عرش عظيم، تقدم حضاري.
الموقف من الدعوة أعرضوا عن أمر الله وشكره .آمنوا بعد أن تبين لهم الحق.
نتيجة الموقف زوال النعمة وإبدالها بالعذاب) سيل العرم والجنات المرة .(بقاء النعمة وزيادتها بالإيمان)دخولهم في ملك سليمان تحت راية التوحيد.(
المصير النهائي دمار وتشتت وضرب بهم المثل في الشر .نجاة وفلاح في الدنيا والآخرة.

الدرس المستفاد:
النعمة وحدها لا تكفي لضمان البقاء والازدهار .الأمة التي تكفر بأنعم الله وتشرك به، مصيرها الزوال و الدمار، مهما بلغت من التقدم المادي .والأمة التي تشكر الله وتوحده، هي التي تستحق أن تدوم نعمتها وتزدهر .هذا هو درس سبأ وبلقيس معًا.
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

هذه الأسئلة موجهة إليك أنت، أيها القارئ الكريم، لتنتقل من ساحة التاريخ إلى ساحة واقعك:

.1سؤال النعمة: ما هي "جنتا اليمين والشمال" في حياتنا اليوم؟ هل هي الأمن، الصحة، المال، التكنولوجيا، الرفاهية؟ هل نراها "آية" من الله، أم نراها أمرًا مسلمًا به؟
.2سؤال الموقف: عندما نؤمر ضمنًا بشكر الله على هذه النعم، هل موقفنا هو الامتثال) كما فعل آل داود وبلقيس (أم الإعراض) كما فعل سبأ(؟
.3سؤال الشكر العملي: كيف نترجم شكرنا لهذه النعم إلى عمل؟ هل نخرج حق الله في أموالنا؟ هل نستخدم نعمة الإنترنت والصحة في طاعة الله ونشر الخير، أم في المعاصي وإضاعة الوقت؟
.4سؤال "سيل العرم": ما هو "سيل العرم" الذي يمكن أن يرسله الله علينا إذا أعرضنا؟ هل هو أزمة اقتصادية؟ حروب؟ أمراض؟ انهيار أخلاقي؟ تفكك أسري؟ هل نحن محصنون من ذلك؟
.5سؤال "الجنات المبدلة": هل نرى في واقعنا المعاصر أمثلة لأمم وحضارات كانت في نعيم ورخاء، فلما كفرت بأنعم الله وطغت، أبدلها الله بضنك العيش والقلق والتفكك؟) يمكن التفكير في الحضارة الغربية المعاصرة وما تعانيه من أمراض نفسية وتفكك أسري رغم تقدمها المادي.(
.6سؤال التوبة: إذا كنا قد قصرنا في شكر نعم الله، فهل استشعرنا أن ربنا "غفور"؟ هل بادرنا بـ التوبة والإنابة وتجديد الشكر، قبل أن يأتي "سيل العرم"؟

***ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟ وكيف نفعّل هذه الآيات في حياتنا؟

بعد هذا العرض، يتضح لنا جليًا ما يريده الله منا من خلال هذه الآيات:

.١يريد منا أن نعيش بعقلية "الناظر في الآيات":

· أن نفتح أعيننا وبصائرنا لنرى نعمه علينا في كل شيء .نعمة الأمن، الصحة، المال، التكنولوجيا، نعمة الإسلام .كلها "آيات" في مساكننا .التفعيل: تمرين جرد النعم اليومي، وحمد الله عليها بقلب حاضر.

.٢يريد منا أن نكون "أمة شاكرة" لا "أمة كافرة":

· أن نترجم شكرنا إلى عمل .التفعيل: تخصيص جزء من المال والوقت والجهد لخدمة الدين والمجتمع ، تعليم العلم، إطعام الطعام، إغاثة الملهوف.

.٣يريد منا أن نتعظ بقصة سبأ فلا نقع فيما وقعوا فيه:

· أن ننظر إلى مصير الأمم التي كفرت بأنعم الله، فنحذر أن نسير في طريقهم .التفعيل: قراءة التاريخ وتدبر قصص القرآن، وربطها بواقعنا المعاصر، واتخاذ الدروس والعبر.

.٤يريد منا أن نتمسك بالتوحيد والشكر لنضمن دوام النعم وزيادتها:

· أن نعلم أن سر دوام الحضارة الإسلامية هو التوحيد والشكر .التفعيل: تعزيز عقيدة التوحيد في أنفسنا وأسرنا ومجتمعاتنا، ومحاربة الشرك والكفران بكل صوره.

.٥يريد منا أن نفتح باب التوبة والأمل:

· أن لا نيأس من رحمة الله مهما قصرنا، فـالله "غفور" يحب التوابين .التفعيل: تجديد التوبة كل يوم ، والاستغفار من التقصير في شكر النعم، والعزم على الشكر العملي مستقبلًا.

**ما الذي نتعلمه من الآيتين؟ وما الذي تدعوانا إليه؟

نتعلم:

· قانون الشكر الإلهي: الشكر يزيد النعم ويديمها، والكفر يزيلها ويبدلها نقمًا.
· أن النعم ليست حقًا مكتسبًا، بل فضل من الله.
· أن التقدم المادي وحده لا يضمن البقاء والازدهار.
· أن التاريخ مليء بالعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

تدعوانا إلى:

· اليقظة الدائمة: ألا نغفل عن نعم الله علينا.
· الشكر العملي: ترجمة الحمد إلى سلوك وأفعال.
· الخوف من زوال النعم: أن نعيش على وجل أن تسلب منا نعم الله بسبب ذنوبنا.
· الرجاء في رحمة الله: أن نأمل دائمًا في مغفرته وعفوه، فنسارع إلى التوبة.

**دور هذه المفاهيم والقيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان شاكر: يقدر النعمة، ويصونها، ويستخدمها في الخير.
· إنسان يقظ: يرى آيات الله في كل شيء، فيعيش في خشوع دائم.
· إنسان متوازن: لا تطغيه النعمة، ولا تقنطه المصيبة.
· إنسان تاريخي: يقرأ التاريخ بعين العبرة، فيخطط لمستقبله على هدى.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع متراحم متكافل: ثقافة الشكر تثمر البذل والعطاء، فيزول الفقر وتقل الفوارق الطبقية.
· مجتمع آمن مطمئن: يشعر أفراده أن النعم التي هم فيها هي فضل من الله، فيشكرونها ويحافظون عليها.
· مجتمع واع: يدرك أن الانحراف عن منهج الله يؤدي إلى زوال النعم، فيسعى للإصلاح والتمسك بدينه.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الشكر والعدل: أساس هذه الحضارة هو شكر الله على نعمه، واستخدام هذه النعم في إقامة العدل وعمارة الأرض .وهذه هي صفات دولة التوحيد التي أقامها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون.
· حضارة الاستدامة: الأمة التي تشكر الله هي أمة مستدامة الحضارة، لأن الله يزيدها من فضله ويديم عليها نعمه .أما الأمة الكافرة، فمهما بلغت من التقدم، فإنها تحمل بذور فنائها في كفرانها.
· حضارة الاعتبار بالتاريخ: لا تنفصل عن ماضيها، بل تتعلم من قصص الأولين، فتبني حاضرها ومستقبلها على أساس من الهدي القرآني.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد فتح الله لك في هاتين الآيتين سجل التاريخ، وأراك كيف أن أمة عظيمة مثل سبأ، بكل ما أوتيت من تقدم ورخاء، انتهى أمرها إلى الدمار والشتات بسبب الإعراض عن الشكر . وأراك في المقابل كيف أن بلقيس وقومها لما آمنوا وشكروا، نالوا النجاة والفلاح.

فأين موقعك أنت من هذه المعادلة؟ إن نعم الله عليك لا تحصى: أمن، إيمان، صحة، مال، سمع، بصر ...فهل أنت من الشاكرين، الذين يستخدمون هذه النعم في طاعة الله، فيديمها الله عليهم ويزيدهم؟ أم أنت من الغافلين المعرضين، الذين يأكلون ويتمتعون وينسون المنعم، فيوشك أن يرسل الله عليهم "سيل العرم" فيبدل نعمتهم نقمة؟

الفرصة ما زالت أمامك .باب التوبة مفتوح .ربك غفور رحيم .بادر من الآن .غير من سلوكك .اجعل الشكر العملي دستور حياتك .استخدم نعم الله في مرضاته .كن من "عبادي الشكور" القليلين .واجعل من قصة سبأ درسًا لا يغيب عن بالك، لتنجو من مصيرهم، وتلحق بركب المؤمنين الشاكرين، الذين وعدهم الله بحسن الثواب في الدنيا والآخرة.

المبحث الثاني

أيها العاقل المتأمل، أيها المدرك أن الحياة ليست فوضى، بل هي منظومة دقيقة محكومة بقوانين إلهية ثابتة، تعال بنا نقف مع آية قصيرة في مبناها، عظيمة في معناها .إنها الآية التي تختزل قصة سبأ بأكملها في جملة واحدة، وتكشف لنا عن المعادلة الربانية التي لا تتغير ولا تتبدل، والتي تفسر لنا صعود الأمم وسقوطها، وبقاء النعم وزوالها.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يضع يده على سبب كل ما جرى لسبأ، ويفتح لنا باب فهم سننه في

خلقه:
﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ سبأ:.[17

هذه الآية الكريمة هي المفتاح لفهم التاريخ، والقاعدة الكلية التي تفسر تقلبات الدهر .إنها تعلن بوضوح أن ما حدث لسبأ لم يكن صدفة، ولا عقابًا عشوائيًا، بل كان جزاءً عادلًا ونتيجة حتمية لمقدمات محددة .إنها تكشف عن سنة إلهية مطردة: النعم لا تزول إلا بسبب كفرانها، والعقوبة لا تنزل إلا بمن يستحقها .إنها المعادلة الرياضية: كفر + جحود = زوال النعمة.
الأمر الأول:
الإشارة إلى الجزاء العادل) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو يشير إلى ما سبق ذكره في الآيتين السابقتين: إرسال سيل العرم ، وتبديل الجنات الزاهرة بجنات مرة قليلة النفع.

· دلالة) ذَٰلِكَ(:
اسم الإشارة هنا يفيد التعظيم والتهويل .فالأمر ليس هيّنًا، بل هو عقاب عظيم وقع بقوم كانوا في قمة النعيم .وفيه أيضًا معنى البُعد، أي أن هذا الجزاء كان نتيجة بُعدهم عن الله وطاعته.
· دلالة) جَزَيْنَاهُم(:
"جزى" تعني قابَل العملَ بمثله .فالله لم يظلمهم، بل جازاهم بعدله .وهذا يؤكد أن العقوبة لم تكن ظلمًا، بل كانت مقابلة عادلة لفعلهم .والفاعل هو الله "جَزَيْنَاهُم" ، فهو سبحانه المتصرف في الكون، المجازي على الأعمال.
· دلالة) بِمَا كَفَرُوا(:
"ما" هنا مصدرية، أي بسبب كفرهم .وهذا هو صلب الآية ولبّها .الجزاء لم يكن بسبب ضعف تخطيطهم، ولا بسبب قلة مواردهم، ولا بسبب مؤامرات أعدائهم، بل كان بسبب كفرهم .والكفر هنا ليس مجرد إنكار وجود الله، بل هو كفران النعمة، جحودها، وعدم نسبتها إلى الله، وعدم شكرها .إنه الإعراض عن المنعم، والانشغال بالنعمة عنه.
· اللمسة البيانية) الباء للسببية(:
الباء في "بما كفروا" للسببية المباشرة .فهي تربط بين العلة والمعلول، بين السبب والنتيجة، بشكل حتمي .كما تقول: "كافأته بما فعل"، أي أن المكافأة نتيجة مباشرة لفعله .وهكذا، فزوال النعمة هو نتيجة مباشرة وطبيعية للكفر بها.
· أمثلة تقريبية من القوانين الكونية الأخرى:
هذه الآية تشبه القوانين العلمية الثابتة:
· قانون الجاذبية: أي جسم تتركه من يدك يسقط إلى الأرض .النتيجة) السقوط (حتمية بسبب المقدمة) ترك الجسم.(
· قانون الزرع: من يزرع شوكًا يحصد شوكًا .لا يمكن أن يزرع شوكًا ويحصد وردًا) .جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا (هو نفسه قانون الجزاء من جنس العمل.
· قانون الصحة: من يهمل نظافته ويأكل طعامًا فاسدًا يمرض .المرض جزاء للإهمال.
فكما أن هذه القوانين المادية لا تحابي أحدًا، فكذلك السنن الإلهية المعنوية لا تحابي أحدًا .من كفر بالنعمة، سُلبت منه، سواء كان فردًا أو أمة، قديمًا أو حديثًا.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. اليقين بعدالة الله: هذه الآية تزرع في القلب اليقين بأن الله عادل، لا يظلم مثقال ذرة .فما يصيبنا من مصائب في أموالنا أو أولادنا أو ديارنا هو غالبًا بسبب ذنوبنا وكفراننا بالنعم.
2. التحذير من الاستهانة بالذنوب: قد يظن البعض أن الذنب صغير، ولكن تراكم الذنوب والغفلة عن الشكر هو "كفران" يجلب سخط الله وزوال النعم.
3. فهم الأحداث الجارية: بدلًا من أن نقول عن المصائب التي تحل بالأمة: "هذه ظروف" أو "هذه مؤامرات"، يجب أن نعود إلى القرآن ونفهم أنها قد تكون "ذلك جزيناهم بما كفروا" .وهذا يوجهنا إلى علاج المشكلة من جذورها، وهو التوبة والعودة إلى الله وشكره.
الأمر الثاني:
الاستفهام التقريري العظيم) وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد تقرير سبب الجزاء، تأتي الجملة الثانية لتأكيد القاعدة وتعميمها: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

· دلالة الاستفهام بـ "هَلْ":
الاستفهام هنا ليس استفهامًا حقيقيًا، بل هو استفهام إنكاري تقريري، بمعنى النفي .أي: ما نجازي هذا الجزاء الأليم الشديد إلا الكفور .فالأمر مقصور على الكفور.
· دلالة) نُجَازِي(:
هنا الفعل مضارع "نجازي" للدلالة على الاستمرار والتجدد .فالقانون ليس خاصًا بسبأ وانتهى، بل هو سنة جارية في كل زمان ومكان .كل من يسلك مسلكهم من الكفران والجحود، فسيناله جزاء من جنس عملهم.
· دلالة) الكَفُورَ(:
هنا تأتي ذروة الدقة القرآنية .لم يقل: "وهل نجازي إلا الكافر"، بل قال: "الكفورَ" .وصيغة "فعول" تدل على المبالغة والكثرة .فالكفور هو المتمادي في الكفران، المبالغ فيه، الذي جعل الجحود وعدم الشكر طبعًا له وسجية .ليس مجرد غافل أخطأ ثم تاب، بل هو الذي غرق في النعمة ونسي المنعم، واستكبر عن الشكر.
وهذه بشرى عظيمة للمؤمنين! فالمؤمن مهما أذنب، فإنه سريع التوبة والإنابة، لا يصر على كفران النعم، بل هو شاكر في الجملة .أما الجزاء الأليم الشديد) كسيل العرم وتبديل النعم (فهو خاص بـ "الكفور" الجاحد المتمادي في غفلته.
· لمسة بيانية) الاستثناء المفرغ(:
"إلا" هنا أداة استثناء مفرغ، تفيد الحصر .فالمعنى: لا نجازي هذا الجزاء أحدًا إلا الكفور .وهذا الحصر فيه عدل إلهي عظيم، وفيه أيضًا طمأنة للمؤمنين بأن ما يصيبهم من مصائب هو تكفير ورفعة درجات، وليس من جنس جزاء "الكفور" الذي هو استئصال للنعمة وعقوبة دائمة.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· أمة غرقت في الترف والبذخ، وصرفت نعم الله في المعاصي والمجون، وأعرضت عن شكره، ثم حلت بها أزمة اقتصادية طاحنة، وحروب، وتفكك أسري .هذا هو "ذلك جزيناهم بما كفروا".
· تاجر جمع مالًا كثيرًا، فنسي حق الله فيه، ولم يزكِّ، وبخل على المحتاجين، واستخدم ماله في الحرام، فإذا به يخسر كل شيء في صفقة واحدة، أو يصاب بمرض يذهب بماله .هذا مصداق "وهل نجازي إلا الكفور".
· إنسان أنعم الله عليه بالصحة والقوة، فاستخدمها في أذية الناس والظلم والبطش، فسلبه الله صحته وأقعده الفراش .هذه سنة الله في خلقه.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 الخوف من مقام "الكفور": هذه الآية تدعونا إلى مراجعة أنفسنا: هل نحن من "الكفور"؟ هل تمادينا في الغفلة عن شكر النعم؟ هل صرنا نرى النعم حقًا مكتسبًا لنا لا فضلًا من الله؟
.2 الأمل للمؤمنين المذنبين: الآية لا تغلق باب الرحمة .فطالما أنك تشعر بالتقصير، وتستغفر، وتسعى للشكر، فأنت لست من "الكفور" .وهذا يمنحك أملًا في رحمة الله، ويحميك من اليأس.
.3 العدل الإلهي المطلق: لا خوف من أن نظلم عند الله .فهو لا يجازي بالعقوبة المستأصلة إلا من استحقها بجدارة بكفره وتماديه.
*"أبعاد الآية وقيمها وأفاقها التربوية والعملية

بعد هذا التحليل، تتضح لنا الأبعاد العظيمة لهذه الآية:

أولًا: الأبعاد العقدية والفكرية:

· إثبات عدل الله المطلق: الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.
· إثبات سنة الجزاء من جنس العمل: وهي سنة إلهية مطردة لا تتخلف.
· بيان أن الكفران سبب رئيس لزوال النعم: وهذا يربط الإيمان بالحياة العملية والاقتصاد والأمن.
· التفريق بين المؤمن المذنب والكافر الجاحد: في نوع الجزاء وشدته.

ثانيًا: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· بث الطمأنينة في قلب المؤمن: بأن الله عادل، ولن يسلط عليه عقوبة "الكفور" ما دام في قلبه مثقال ذرة من إيمان وشكر.
· زرع الخوف في قلب الغافل: لعل الخوف من زوال النعم يدفعه إلى الشكر.
· تحرير النفس من التعلق بالأسباب المادية وحدها: فسبب زوال النعم ليس ماديًا بحتًا، بل هو معنوي)الكفران.(

ثالثًا: القيم التي تدعو إليها الآية:

· قيمة الشكر: أعظم قيمة تدعو إليها الآية، لأن ضدها هو سبب الهلاك.
· قيمة العدل: الإيمان بأن الله عادل يورث الرضا والتسليم.
· قيمة الاعتبار بالتاريخ: النظر في قصص الأولين لمعرفة السنن الإلهية.
· قيمة المسؤولية الفردية والجماعية: كل فرد وكل أمة مسؤول عن مصيره بناء على موقفه من نعم الله.
**كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية وأسئلة تدبرية(

.١في تحليل الأزمات الشخصية والعامة:

· التطبيق: عندما تمر بأزمة مالية أو صحية أو أسرية، أو ترى أمة تمر بأزمة، لا تكتفِ بالتحليل المادي) سوء إدارة، مؤامرات .(...اسأل نفسك: "هل يمكن أن يكون هذا من باب 'ذلك جزيناهم بما كفروا'؟" وابحث عن مظاهر الكفران في حياتك أو في واقع الأمة) انتشار المعاصي، منع الزكاة، الترف والبذخ، نسيان الله .(هذا التحليل القرآني يوجهك إلى العلاج الحقيقي: التوبة والاستغفار والشكر، وليس مجرد تغيير الحكومات أو الخطط الاقتصادية.

.٢في الحفاظ على النعم الشخصية:

· التطبيق: كل نعمة عندك) سيارة، بيت، وظيفة، زوجة صالحة، أولاد (هي عُرضة للزوال إذا كفرتها . وكفرانها يكون ب-:
· اللسان: الشكوى منها، وعدم نسبتها إلى الله، والتفاخر بها على الناس.
· القلب: اعتقاد أنها حق مكتسب لك، وليست فضلًا من الله.
· الجوارح: استخدامها في معصية الله.
· سؤال تدبري: انظر إلى كل نعمة عندك واسأل نفسك: كيف أشكر هذه النعمة عمليًا؟ وكيف أتجنب كفرانها؟

.٣في تربية النفس على الشكر الدائم:

· التطبيق: درب نفسك على أن تقول عند كل نعمة تراها أو تسمع بها: "الحمد لله الذي أنعم بها، الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا" .اجعل هذا دأبك .فهذا يحصنك من أن تكون من "الكفور".

.٤في فهم معادلات النصر والهزيمة:

· التطبيق: تعلمنا الآية أن النصر والهزيمة ليسا فقط بعدة وعتاد، بل هما مرتبطان بالإيمان والشكر . أمة سبأ كانت متقدمة، لكنها هُزمت وهُدمت بسيطرة دابة الأرض على سدها .هذا يعلمنا أن الأخذ بالأ سباب المادية واجب، لكن مع التوكل على الله وشكره، وإلا فلا قيمة لهذه الأسباب.

.٥سؤال تدبري مركزي:

· تخيل أن ملك الموت جاءك الآن، وأوقفك للحساب، وعرض عليك قائمة نعم الله عليك) صحتك، م الك، أهلك، سمعك، بصرك(...، ثم سألك: "ماذا فعلت بهذه النعم؟ هل شكرتها أم كفرتها؟" ماذا سيكون جوابك؟ هل ستكون من الشاكرين أم من "الكفور"؟!
**دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان مسؤول: يدرك أن تصرفاته لها عواقب في الدنيا والآخرة، وفق سنن إلهية ثابتة.
· إنسان شاكر: يحرص على شكر النعم ليضمن دوامها وزيادتها.
· إنسان عادل مع نفسه: يحاسبها قبل أن يحاسب، ويعترف بتقصيرها، ولا يبرر أخطاءه.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع قائم على الشكر والعدل: تنتشر فيه ثقافة الامتنان لله وللناس، مما يقوي التكافل الاجتماعي.
· مجتمع يقرأ الأحداث بعين العقيدة: فيفهم أن الكوارث والأزمات هي إنذارات إلهية للتوبة والرجوع

إلى الله، وليست مجرد حوادث عابرة .هذا يجعله مجتمعًا سريع الإنابة والتوبة.
· مجتمع محصن ضد أسباب الزوال: لأنه يحافظ على شكر النعم، ويحذر من الكفران.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة السنن الثابتة: هذه الآية تؤسس لعلم مهم، هو علم "السنن الإلهية في المجتمعات" .وهو علم يجعل الأمة تخطط لمستقبلها على هدى وبصيرة، عالمةً أن هناك قوانين ثابتة تحكم قيام الحضارات وسقوطها.
· حضارة العدالة والمسؤولية: دولة التوحيد دولة مسؤولة أمام الله، تعلم أن بقاءها مرهون بعدلها وشكرها لله، لا بقوتها المادية وحدها.
· حضارة الوقاية من السقوط: الأمة التي تدرس قصة سبأ وتفهم معنى "ذلك جزيناهم بما كفروا" لن تكرر أخطاءهم، وستسعى جاهدة لتحصين نفسها بسياج الشكر والتوحيد، لتبقى حضارتها شامخة بإذن الله.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، هذه الآية العظيمة ليست مجرد خبر عن قوم سبأ، بل هي رسالة شخصية من الله إليك، وإلى أمتك .إنها تقول لك: "انظر حولك! النعم التي تتنعم بها ليست عبثًا، وليست ملكًا خالصًا لك .إنها وديعة مني .فإن شكرتني عليها، زدتك منها .وإن جحدتها وتماديت في الغفلة، فاعلم أن سنتي في خلقي لا تتبدل، وأن جزائي للكفور أليم".

لا تكن كقوم سبأ .لا تغتر بالنعم .لا تظن أن ما أنت فيه من أمن ورخاء هو أمر مسلم به لا يزول . تذكر أن "ذلك جزيناهم بما كفروا" قانون إلهي لا يحابي أحدًا .فكن شاكرًا في كل لحظة .ترجم شكرك إلى عمل .استخدم نعم الله في طاعته .وكن دائمًا على وجل أن تسلب منك هذه النعم بسبب تقصيرك.

وانظر إلى الجانب المشرق في الآية: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ .فطالما أن قلبك ينبض بحب الله، ولسانك رطب بشكره، وجوارحك تسعى في طاعته، فأنت بعيد -بإذن الله- عن هذا الجزاء الأليم . فأبشر بخير، وازدد شكرًا، تزدد نعمة.
المبحث الثالث
أيها السائر في دروب الحياة، أيها الغارق في النعم وأنت لا تشعر، أيها الذي ألف الرخاء حتى صار عاديًا في عينيه، تعال بنا نقف مع آيتين كريمتين من سورة سبأ، تكشفان عن آفة خطيرة تصيب الأمم والأفراد على السواء، آفة قد تؤدي إلى زوال النعم وتبدل الأحوال من حال إلى حال. إنها آفة بطر النعمة والألفة القاتلة التي تفقد الإنسان إحساسه بقيمة ما هو فيه، فيتجرأ على طلب تبديلها، فإذا به يخسر كل شيء.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يعرض علينا مشهدًا آخر من مشاهد سبأ، بعد أن بدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط:
﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: 18-19].

هاتان الآيتان الكريمتان تصوران لنا مرحلة متقدمة من مراحل التعامل الخاطئ مع النعم الإلهية. إنها مرحلة التذمر والضجر من النعمة ذاتها، وطلب تبديلها بما هو أصعب وأشق، ظنًا أن ذلك أفضل! إنها صورة حية لـ "بطر النعمة" ، ذلك الداء العضال الذي يصيب القلوب الغافلة، فتفقد لذة الشكر، وتستبدل الأمن بالخوف، والراحة بالتعب، والقرب بالبعد.
موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن ذكرت الآيات السابقة مصير سبأ العام، وكيف أن كفرهم بأنعم الله أدى إلى سيل العرم وتبديل جناتهم، تأتي هاتان الآيتان لتفصل نعمة أخرى عظيمة كانوا فيها، وكيف أنهم بطروها وطلبوا زوالها، فكانت عاقبتهم التمزيق والتشتت بعد أن كانوا في أمن وأمان. إنهما تكملان صورة الكفران، وتبينان أن الجحود لا يقتصر على عدم الشكر، بل يتعداه إلى كراهية النعمة والتذمر منها.
الأمر الأول:
تفصيل نعمة الأمن والتواصل (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد خراب سد مأرب وتبدل جنات سبأ، تشتت أهلها في البلاد. ولكن بقي منهم بقايا في اليمن، وهؤلا ء هم المقصودون في هذه الآية على أحد الأقوال. وقيل إن الآية تصف حال سبأ قبل الدمار، لتذكرهم بنعمة أخرى كانوا فيها.

· دلالة) وَجَعَلنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القرَى التي بَارَكنَا فِيهَا(:
"القرى التي باركنا فيها" هي قرى الشام وفلسطين، التي بارك الله فيها بالماء والشجر والأنبياء . فكانت سبأ في اليمن، وبينهم وبين الشام المبارك مسافة طويلة.
· دلالة) قرًى ظَاهِرَةً(:
جعل الله بين اليمن والشام قرى متصلة ظاهرة، أي متقاربة، يرى بعضها من بعض .فكان المسافر من سبأ إلى الشام لا يحتاج إلى حمل زاد كثير ولا ماء، لأنه يجد في كل قرية ينزل بها ما يحتاج إليه من طعام وشراب ومبيت .وكانت هذه القرى عامرة آمنة.
· دلالة) وَقدّرْنَا فِيهَا السّيْرَ(:
أي جعلنا السير فيها مقدرًا منضبطًا، بحيث يسير المسافر من قرية إلى أخرى بيسر وسهولة، فيقيل في واحدة، ويبيت في أخرى، ويغدوا من ثالثة، حتى يصل إلى غايته دون مشقة.
· دلالة الأمر) سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيّامًا آمِنِينَ(:
هذا أمر تكويني، أي جعلناها لكم كذلك، فسيروا فيها آمنين ."ليالي وأيامًا" أي في كل وقت، ليلًا ونهارًا .و"آمنين" أي لا تخافون عدوًا، ولا جوعًا، ولا عطشًا، ولا ضياعًا.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· شبكة الطرق السريعة الحديثة: اليوم، الطرق بين المدن ممهدة، وفيها محطات وقود واستراحات على مسافات متقاربة) قرى ظاهرة(، يمكن للمسافر أن يسير فيها ليلًا ونهارًا وهو آمن.
· خطوط الطيران المنتظمة: رحلات الطيران المجدولة تجعل التنقل بين القارات سهلًا وآمنًا.
· شبكة الإنترنت: جعلت التواصل بين الناس في كل مكان سهلًا وسريعًا، وكأن العالم قرية واحدة.
· الرسائل النفسية والتربوية:
1. نعمة الأمن والتواصل من أعظم النعم: هذه الآية تلفت انتباهنا إلى نعمة قد نغفل عنها، وهي سهولة المواصلات والأمن في الطرقات .كم من إنسان يسافر اليوم مئات الكيلومترات في ساعات دون أن يشعر بنعمة الطرق الممهدة والاستراحات والأمن!
2. التقدير الإلهي في تسهيل الحياة: الله هو الذي قدر السير وجعله ميسرًا .وهذا يدعونا إلى شكره على كل تفصيل في حياتنا.
3. الشعور بالأمن نعمة لا تقدر بثمن: أن تسير ليلًا ونهارًا وأنت آمن على نفسك ومالك، هذه نعمة لا يشعر بها إلا من فقدها.
الأمر الثاني:
بطر النعمة والتذمر منها (فَقَالُوا رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا نقطة التحول، وهنا الخطأ القاتل. بدل أن يشكروا الله على هذه النعمة العظيمة (تقارب القرى والأ من)، ملوا منها وتبرموا بها!

· دلالة) فَقَالُوا رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا(:
هذا هو دعاء البطر والضجر .لقد سئموا من كثرة القرى وتقاربها، وأرادوا أن تكون بينهم وبين الشام مسافات طويلة مقفرة، كما هي الحال بينهم وبين البلدان الأخرى .قالوا ذلك تذمرًا وملالًا، وطلبًا للتنزه ومغامرات السفر الطويلة، أو تكبرًا وتعاليًا عن النزول في القرى التي يرونها دون مستواهم!
· دلالة الفعل) بَاعِدْ(:
طلبوا المباعدة والتفريق، بدل القرب والوصل .وهذا عين الجحود .فبدل أن يقولوا: "ربنا أدم علينا هذه النعمة"، أو "ربنا زدنا من فضلك"، قالوا: "ربنا ابعد بيننا"! إنه طلب إزالة النعمة واستبدالها بالمشقة.
· ما هو "بطر النعمة"؟
بطر النعمة هو كراهيتها والتضجر منها، وعدم الرضا بها، والاستخفاف بقدرها .وهو مرض قلبي خطير، ينشأ عن:
1. الألفة القاتلة: الاعتياد على النعمة حتى تفقد قيمتها في العين، وتصبح شيئًا عاديًا مملًا.
2. الغفلة عن المنعم: نسيان أن هذه النعمة هي فضل من الله، فيظن الإنسان أنها حق مكتسب له.
3. الكبر والطغيان: الاستعلاء بالنعمة، واحتقار ما دونها، والرغبة في المزيد من الترف غير المشروع.
· أمثلة تقريبية من حياتنا اليومية:
· الملل من الطعام: ربة بيت تعد طعامًا متنوعًا كل يوم، فيأتي الزوج أو الأبناء ويقولون: "مللنا من

هذا الطعام، نريد شيئًا جديدًا!"، دون أن يشكروا الله على وجود ما يأكلونه أصلًا.
· السآمة من وسائل الراحة: شخص لديه سيارة مريحة، فيتذمر من أنها ليست أفخم موديل، أو أن فيها مشكلة بسيطة، وينسى أنه كان يمشي على قدميه أو يركب حمارًا!
· الضجر من الأمن: أناس يعيشون في بلاد آمنة مطمئنة، فيتذمرون من "الروتين" و"الملل"، ويتمنون حياة المغامرة والخطر، ناسين أن الأمن نعمة عظيمة لو سُلبت منهم لعرفوا قيمتها.
· التذمر من كثرة الخيارات: في السوبر ماركت، تجد أرفقًا ممتلئة بأنواع الأطعمة والمشروبات، فيقف الإنسان متحيرًا متذمرًا: "لا يوجد شيء يستحق الشراء!"، وقد كان أجدادنا يجدون لقمة العيش بصعوبة بالغة!
· خطر بطر النعم ونسيانها:
خطر هذا السلوك عظيم جدًا، فهو:
1. يوجب سخط الله: لأنه كفران وجحود صريح.
2. يؤدي إلى زوال النعمة: فمن لم يشكر النعمة وطلب زوالها، قد يستجيب الله له، ولكن بالعقوبة لا بالكرامة.
3. يفقد الإنسان لذة الحياة: فالبطِر يرى كل شيء ناقصًا، ولا يستمتع بشيء، ويعيش في قلق دائم.
الأمر الثالث:
تقييم الفعل والعقاب (وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن ذكروا قولتهم الشنيعة، يعلق القرآن بتقييم إلهي موجز: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

· دلالة) وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ(:
ظلموا أنفسهم بهذا الدعاء الباطل، لأنهم طلبوا ما يضرهم، واستعجلوا العقوبة، فكانوا هم الخاسرين . فالله لم يظلمهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم.
· دلالة) فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ(:
أي جعلناهم أحاديث يتحدث بها الناس، فيقولون: "سبأ، ماذا فعلوا؟ وكيف أهلكوا؟" .صاروا عبرة ومثلا ً، ولم يعد لهم وجود حقيقي، بل مجرد قصة تروى.
· دلالة) وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ(:
هذا هو الجزاء العادل .هم طلبوا التباعد والتفريق، فاستجاب الله لهم ولكن بطريقته: مزقناهم كل ممزق .فتفرقوا في البلاد شذر مذر، وأصبحوا أيدي سبأ، يضرب بهم المثل في التشتت والضياع بعد ا لأمن والتجمع .وهذا هو الجزاء من جنس العمل .طلبوا البعد، فأبعدوا إبعادًا قسريًا مؤلمًا!
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الحذر من الدعاء على النفس بغير علم: قد يدعو الإنسان على نفسه أو على أولاده أو ماله بما يظنه خيرًا وهو شر ."ربنا باعد بين أسفارنا" كان دعاءً عليهم بالعقوبة وهم لا يشعرون.
2. الجزاء من جنس العمل سنة إلهية: كما أن الكفران أدى إلى زوال النعمة، فإن طلب التفريق أدى إلى التمزيق والتشتت.
3. الاعتبار بأحوال الأمم السابقة: يجب أن نقرأ التاريخ لنعتبر، وألا نكرر أخطاء من سبقونا، فنصير مثلهم أحاديث.
الأمر الرابع:
خاتمة الآية وتوجيه الأنظار إلى صفات المستفيدين (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه الخاتمة هي مفتاح فهم القصة كلها، وهي وصفة النجاة من الوقوع في مثل هذا المصير.

· دلالة) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ(:
"ذلك" إشارة إلى ما ذكر من قصة سبأ، وما فيها من نعم ونقم ."آيات" أي دلالات وعبر بينات على قدرة الله وحكمته وعدله.
· دلالة) لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(:
هنا يحدد الله المستفيد الحقيقي من هذه الآيات والعبر .إنه "الصبار الشكور".
· الصبار: كثير الصبر، الذي يصبر على طاعة الله، ويصبر عن معصيته، ويصبر على أقداره المؤلمة.
· الشكور: كثير الشكر، الذي يشكر الله على نعمه في السراء والضراء، ولا يمل من النعم ولا يبطرها.
· لماذا جمع بين الصبر والشكر في هذا الموضع؟
هذا هو بيت القصيد! قوم سبأ عجزوا عن الصبر والشكر معًا.

· عجزوا عن الشكر: لأنهم ملوا النعمة وبطروها، بدل أن يشكروا الله عليها.
· عجزوا عن الصبر: لأنهم لم يصبروا على حالة الرفاهية والأمن، بل ضجروا منها وطلبوا تغييرها، وكأنهم استثقلوا النعمة ولم يصبروا عليها!
فالإنسان الكامل هو الذي يصبر على النعمة فلا يبطرها، ويصبر على البلاء فلا يجزع منه، ويكون في الحالين شكورًا .وهذه منزلة عالية لا يصل إليها إلا القليل.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 التكامل بين الصبر والشكر: الصبر والشكر وجهان لعملة واحدة .فمن صبر على البلاء، فقد شكر الله على ما أبقى عليه من نعم .ومن شكر على النعمة، فقد صبر عن بطرها وكفرانها.
.2 الصبر على النعمة قد يكون أشق من الصبر على البلاء! كثير من الناس يصبر على المرض والفقر ، ولكنه لا يصبر على الصحة والغنى، فيبطر ويطغى .قصة سبأ خير شاهد.
.3 طريق النجاة: لكي تنتفع بآيات الله وعبره، وتنجو من مصير سبأ، عليك أن تتحلى بـ الصبر و الشكر في كل أحوالك.
**أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

.1سؤال النعمة المألوفة: ما هي "القرى الظاهرة" في حياتنا اليوم؟) الأمن، الصحة، سهولة المواصلات، وفرة الطعام، استقرار الأسرة .(هل ألفناها حتى صرنا لا نشعر بها ولا نشكرها؟
.2سؤال بطر النعمة: هل تذكر موقفًا تذمرت فيه من نعمة أنت فيها) كثرة الخيارات، سهولة الحياة (وتمنيت لو كانت أصعب؟ ماذا كان شعورك بعد ذلك؟
.3سؤال الدعاء: هل نراجع ألفاظنا في الدعاء؟ هل ندعو على أنفسنا أو على أولادنا أو على مجتمعنا بألفاظ قد تكون سببًا في زوال النعم ونحن لا نشعر؟) مثل: "يا رب فكنا من هذه الوظيفة المملة"، "يا رب احرق هذه المدينة المزدحمة".(...
.4سؤال "الصبار الشكور": هل أنا "صبار" على النعمة، فلا أبطرها ولا أتذمر منها؟ هل أنا "شكور" عليها في كل حين؟
.5سؤال العبرة من التاريخ: هل قرأت قصة سبأ بتدبر واعتبار؟ أم مرت علي كأي قصة تاريخية؟ كيف يمكن أن أجعل من هذه القصة درسًا عمليًا في حياتي؟

""ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟ وكيف نفعّل هذه الآيات في حياتنا؟

.١يريد منا أن نستشعر نعمه علينا ولا نألفها:

· التفعيل: تمرين التأمل اليومي في النعم .انظر إلى طريقك إلى العمل، وإلى طعامك على مائدتك، وإلى أمنك في بيتك، وقل: "هذه 'قرى ظاهرة' في حياتي، فالحمد لله" .جدد إحساسك بالنعمة كل يوم.

.٢يريد منا أن نحذر بطر النعم والتذمر منها:

· التفعيل: مراقبة اللسان .إذا وجدت نفسك تتذمر من شيء هو في الأصل نعمة) ازدحام الطريق دليل على وجود سيارات، كثرة الأولاد دليل على الصحة والإنجاب، برودة الطقس دليل على ماء وهواء(، فاستغفر الله، واشكره.

.٣يريد منا أن نتعلم من أخطاء سبأ:

· التفعيل: ربط قصص القرآن بالواقع .عندما ترى أمة أو مجتمعًا يتمزق ويتشتت بعد أن كان مجتمعًا آمنًا، تذكر: "ومزقناهم كل ممزق"، وابحث عن أسباب ذلك في كفران النعم وبطرها.

.٤يريد منا أن نكون "صبارين شكورين":

· التفعيل: في كل صباح، جدد نية الصبر والشكر .قل: "اللهم اجعلني صبارًا في البلاء، شكورًا في النعماء" .وتدرب على الصبر على النعمة، بأن لا تجعلها تطغيك، وتدرب على الشكر في البلاء، بأن ترى نعم الله التي لا تزال معك.

.٥يريد منا أن نحسن الدعاء ولا نطلب ما يضرنا:

· التفعيل: قبل أن تدعو بشيء، تفكر: هل هذا خير لي؟ أم أنا أطلب ما يضرني جهلًا؟ اسأل الله الخير دائمًا، وفوض الأمر إليه: "اللهم إني أسألك خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم".

**دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١.في بناء الإنسان:

· إنسان يقظ: لا يألف النعم، بل يجدد إحساسه بها دائمًا.
· إنسان راضٍ: لا يتذمر من حاله، بل يرضى بما قسم الله له.
· إنسان متوازن: يجمع بين الصبر على البلاء والشكر على النعماء، وبين الصبر على النعمة والشكر على البلاء.

٢.في بناء المجتمع:

· مجتمع شاكر: تسوده ثقافة الرضا والقناعة، فيقل فيه التذمر والشكوى.
· مجتمع مستقر: لأن أفراده لا يبطرون النعم، فيدوم عليهم الأمن والرخاء.
· مجتمع معتبر بالتاريخ: يقرأ تاريخه وتاريخ غيره بعين العبرة، فيتجنب أخطاء السابقين.

٣.في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الصبر والشكر: الحضارة التي تقوم على هذين الركنين هي حضارة مستدامة، لأنها تحافظ على النعم بالشكر، وتواجه التحديات بالصبر.
· حضارة الوقاية من التمزيق: دولة التوحيد تتعلم من قصة سبأ أن التمزيق والتشتت هو عقاب إلهي لبطر النعم وكفرانها، فتحرص على شكر الله وصيانة نعمه لتضمن وحدتها وقوتها.
· حضارة الوعي بخطورة الألفة: تربي أبناءها على أن الألفة بالنعم خطر عظيم، وأن تجديد الشكر هو الحصن الحصين من زوالها.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد أراك الله في هاتين الآيتين كيف أن قومًا كانوا في قمة الأمن والرخاء، سهلة طرقهم، متقاربة ديارهم، آمنة نفوسهم، فما كان منهم إلا أن ملوا هذه النعمة وضجروا منها، وطلبوا من الله أن يبعد بينهم! فكانت النتيجة أن مزقهم الله كل ممزق، وجعلهم أحاديث لمن بعدهم.

فلا تكن مثلهم. لا تجعل الألفة والملل يسرقان منك لذة الشكر. لا تطلب زوال النعمة بلسانك أو بقلبك. انظر حولك، كم من "قرية ظاهرة" في حياتك لا تراها! كم من نعمة تتنعم بها ليل نهار ولا تشعر بها! جدد شكرك كل يوم. كن صبارًا على النعمة، فلا تبطرها. كن شكورًا على البلاء، فلا تجزع منه. بهذا تكون من "كل صبار شكور"، الذين ينتفعون بآيات الله، وينجون من عذابه، ويفوزون بثوابه.
المبحث الرابع

أيها السائر في طريق الهداية، أيها المدرك أن الحياة ليست ساحة عبث، بل ميدان اختبار وامتحان، تعال بنا نقف مع آيتين كريمتين من سورة سبأ، تكشفان عن حقيقة الصراع الأزلي بين الإنسان و الشيطان، وتبينان لنا الهدف الإلهي من تسليط إبليس ووسوسته علينا. إنهما آيتان تجيبان عن أسئلة طالما حيرت العقول: لماذا سمح الله لإبليس بإغواء البشر؟ وما هي حقيقة سلطانه؟ ومن الذي ينجو من كيده؟

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يرفع الستار عن كواليس هذا الصراع الخفي:
﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 20-21].

هاتان الآيتان الكريمتان تقدمان لنا تحليلا ً نفسيًا وعقديًا عميقًا لأسباب انحراف الأمم والأفراد. إنهما تكشفان أن المشكلة ليست في قوة الشيطان، بل في ضعف الإيمان والشك في الآخرة. إنهما تضعان أيدينا على الداء الحقيقي، وتقدمان لنا الدواء الناجع.
موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن عرضت الآيات السابقة قصة سبأ، وكيف أنهم كفروا بأنعم الله، وبطروا النعمة، وطلبوا المباعدة بين أسفارهم، فمزقهم الله كل ممزق، يأتي هذان الآيتان ليكشفا عن السبب الخفي وراء هذا الانحراف. إنه إبليس الذي صدق ظنه فيهم، فاستجابوا لوسوسته واتبعوه. فكأن الآيات تقول: إن ما حدث لسبأ ليس مجرد فشل بشري في إدارة النعم، بل هو انتصار للشيطان في معركة الإغواء، بسبب ضعف إيمانهم بالآخرة.

وهذا يربط قصة سبأ بقصة إبليس في بداية الخلق، عندما قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83]. وها هو ذا ظنه يتحقق في قوم سبأ، وفي كل من سار على دربهم.

الأمر الأول:

تحقق ظن إبليس في الكافرين (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بالتوكيد بالقسم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾. وهذا يدل على عظمة هذا الحدث وخطورته.

· دلالة (صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ):

أي وجد ظنه فيهم صادقًا، وتحقق ما كان يظنه بهم من أنهم سيتبعونه ويضلون عن سبيل الله. وهذا الظن ليس علمًا بالغيب، بل هو تخمين وحدس مبني على طبيعتهم البشرية وضعفهم أمام الشهوات. وقد صدق هذا الظن في سبأ، وفي كل من سلك سبيلهم من الكافرين.

· لمسة بيانية (عَلَيْهِمْ):

تعدية الفعل بـ "على" تفيد الاستعلاء والغلبة. فكأن إبليس استعلى عليهم بوسوسته، وغلبهم حتى اتبعوه. وهذا يشعر بضعفهم أمامه، مع أنه في الحقيقة ضعيف، ولكن قوتهم كانت أضعف.

· دلالة (فَاتَّبَعُوهُ):

أي استجابوا لوسوسته، وسلكوا طريقه في الكفر والضلال. فلم يكتفوا بمجرد الاستماع إليه، بل اتبعوه عمليًا في كل ما دعاهم إليه من معاصي وكفران.

· دلالة (إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ):

هذا هو الاستثناء المهم، وهو باب الأمل والنجاة. هناك فريق من المؤمنين الصادقين لم يتبعوا إبليس، ولم يصدق ظنه فيهم، بل ثبتوا على إيمانهم وعصوا وسوسته. وهذا الفريق هم "عباد الله المخلصين" الذين أخبر الله أن إبليس لا سلطان له عليهم.

· أمثلة تقريبية معاصرة:

· المدير الفاسد: مدير في شركة يظن أن جميع الموظفين قابلون للرشوة والغش، فيعرض عليهم المال الحرام. فبعضهم يصدق ظنه فيقع في الفخ، وبعضهم الآخر (الفريق المؤمن) يرفض ويتمسك بأخلاقه.

· دعاة الرذيلة: أصحاب المواقع الإباحية والإعلام الفاسد يظنون أن كل الناس سينجذبون لمحتواهم الهابط، فيبذلون جهدهم في نشره. فبعض الناس يتبعهم، وبعضهم (الفريق المؤمن) يعف نفسه ويغض بصره.

· وساوس الشيطان: عندما يوسوس لك الشيطان بالمعصية، فهو يظن أنك ستستجيب له وتضعف. فإن استجبت، فقد صدق عليك ظنه. وإن عصيته وذكرت الله، كنت من الفريق المؤمن الذي خيب ظنه.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. معرفة العدو الحقيقي: هذه الآية تذكرنا بأن وراء كل انحراف وضلال يقف إبليس ووسوسته. فعلينا أن نعرف عدونا جيدًا لنحذر منه.

2. الفرق بين الظن والعلم: إبليس يظن، ولا يعلم الغيب. وهذا يعطينا قوة، فنحن قادرون -بعون الله- على أن نخيب ظنه ونثبت على الحق.

3. الانتماء إلى "الفريق المؤمن": الآية تدعونا إلى أن نكون من هذا "الفريق" القليل الذي يخيب ظن الشيطان، ويثبت على طاعة الله.

الأمر الثاني:

حقيقة سلطان إبليس والغرض الإلهي من تسليطه (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن ذكرت الآية أن إبليس صدق ظنه فيهم، تأتي لتؤكد حقيقة مهمة جدًا، وتجيب عن سؤال جوهري: هل كان لإبليس سلطان وقوة قاهرة أجبرتهم على اتباعه؟

· دلالة (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ):

الجواب: لا. إبليس لم يكن له عليهم أي سلطان قاهر، أو قوة جبرية، أو دليل وبرهان. "من" زائدة لتأكيد نفي السلطان بكل أنواعه. فوسوسته مجرد دعوة وإغراء، وليست إجبارًا.

· دلالة الاستثناء (إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ):
هنا يأتي الجواب عن السؤال الأكبر: لماذا إذن سمح الله لإبليس بالوسوسة والإغواء؟ الجواب: لِنَعْلَمَ.
· "لِنَعْلَمَ" أي ليظهر علم الله في الواقع، ويتميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من الكافر. وهذا هو الا بتلاء والتمحيص.
· "مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ" : هؤلاء هم الذين ينجون من وسوسته، لأن إيمانهم بالآخرة ويقينهم بالحساب والجزاء يجعلهم يصبرون عن الشهوات، ويخالفون هوى النفس.
· "مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ" : هؤلاء هم الذين يقعون في شركه، لأنهم في شك من أمر الآخرة، فلا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا، فتسهل عليهم المعصية.
· لمسة بيانية (الربط بين الإيمان بالآخرة والثبات أمام الشيطان):
هذه الآية تضع الإيمان بالآخرة كالدرع الواقي من وساوس الشيطان. فكلما قوي يقينك بالآخرة، ضعف تأثير الشيطان عليك. وكلما ضعف يقينك، قوي سلطانه المعنوي عليك. وهذا يفسر لنا لماذا كان الأنبياء وأتباعهم أشد الناس ثباتًا أمام الشيطان، لأنهم أشد الناس يقينًا بالآخرة.
· أمثلة تقريبية توضح العلاقة بين الإيمان بالآخرة والثبات:
· الامتحان الدراسي: الطالب الذي يوقن أن هناك امتحانًا مصيريًا في نهاية العام، سيصبر على المذاكرة ويتجنب اللهو. أما الطالب الذي يشك في وجود الامتحان، فسينشغل باللعب ولن يستعد.
· الوظيفة: الموظف الذي يوقن أن هناك تقييمًا سنويًا وعلاوة ومكافأة، سيجتهد في عمله ويتقنه. أما الموظف الذي لا يهتم بالتقييم، فسيؤدي عمله بأي شكل.
· المعصية: المؤمن بالآخرة عندما تزين له نفسه معصية، يتذكر أنه سيقف بين يدي الله، وأنه سيحاسب على هذه النظرة أو الكلمة، فيمتنع. أما الشاك في الآخرة، فيقول: "من سيراني؟ ومن سيحاسبني؟" فيقع في المعصية.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الحرية والمسؤولية: الآية تؤكد أننا لسنا مجبورين على طاعة الشيطان، بل نحن أحرار في اختيارنا، وسنحاسب على هذا الاختيار.
2. الابتلاء سنة إلهية: وجود الشيطان ووسوسته هو جزء من الابتلاء الذي خلقنا الله لأجله، ليتميز الصادق من الكاذب.
3. تقوية الإيمان بالآخرة هو الحل: لمقاومة وساوس الشيطان، ليس علينا فقط أن نستعيذ بالله، بل علينا أيضًا أن نقوي إيماننا بالآخرة، بأن نتدبر القرآن، ونزور القبور، ونتفكر في أهوال يوم القيامة.
الأمر الثالث:
الخاتمة المطمئنة (وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد هذا العرض لصراع الشيطان مع الإنسان، تختم الآية بهذه الجملة العظيمة: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

· دلالة (وَرَبُّكَ):
خطاب للنبي ﷺ، وفيه تثبيت له ولأمته. فـ "ربك" هو الذي يربيك ويرعاك ويحفظك.
· دلالة (عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ):
الحفيظ هو الرقيب المهيمن، الذي يحفظ الأشياء من الفساد والتغير، ويحفظ أعمال العباد ويحصيها، ويحفظ المؤمنين من شر الشيطان وكيده.
· الربط بين "حفيظ" وسياق الآية:
هذا الختام يمنح المؤمن طمأنينة عظيمة في خضم هذا الصراع مع الشيطان. فأنت لست وحدك في هذه المعركة. ربك الذي خلقك هو حفيظ عليك، يحفظك من أن يصل إليك سلطان الشيطان الحقيقي. كل ما يملكه هو الوسوسة، أما الحفظ والرعاية فمن الله. وهو حفيظ على أعمالك، سيحاسبك عليها بعدل، ولن يظلمك مثقال ذرة.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الأمان والطمأنينة: هذه الجملة تزرع في قلب المؤمن الأمان، فلا يخاف من الشيطان، لأنه في حفظ الله ورعايته.
2. الالتجاء إلى الله: تعلمنا أن نلجأ في حربنا مع الشيطان إلى الله "الحفيظ"، فنقول: "يا حفيظ احفظني من شر الشيطان ووسوسته".
3. المراقبة الذاتية: استشعار أن الله حفيظ على كل شيء، يملأ القلب مراقبة له، فيستحي المؤمن أن يراه الله حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

**أبعاد الآيتين وقيمها وأفاقها التربوية والعملية

أولًا: الأبعاد العقدية والفكرية:

· بيان حقيقة الصراع بين الإنسان والشيطان.
· إثبات أن الشيطان لا سلطان له على المؤمنين الصادقين.
· بيان الحكمة من الابتلاء بوسوسة الشيطان (التمحيص والتمييز).
· ربط النجاة من الشيطان بقوة الإيمان بالآخرة.
· إثبات صفة "الحفيظ" لله تعالى.

ثانيًا: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· تحرير المؤمن من الخوف المبالغ فيه من الشيطان.
· بث الطمأنينة في القلب بأن الله حفيظ.
· تقوية الإرادة والعزيمة لمقاومة الوساوس.
· شحذ الهمة للانضمام إلى "الفريق المؤمن".

ثالثًا: القيم التي تدعوان إليها:

· قيمة اليقين بالآخرة.
· قيمة الثبات على الحق.
· قيمة الالتجاء إلى الله والاستعاذة به.
· قيمة معرفة العدو والحذر منه.
**أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1. سؤال الظن: عندما يوسوس لك الشيطان بمعصية، هل تدرك أنه بذلك يظن أنك ستطيعه؟ هل تجعل من نفسك أداة لتصديق ظنه أم لتكذيبه؟
2. سؤال الفريق: هل أنت من "الفريق المؤمن" الذي يخيب ظن الشيطان، أم أنك تتبعه في كثير من الأحيان؟ ما الدليل العملي على ذلك؟
3. سؤال الإيمان بالآخرة: على مقياس من 1 إلى 10، كم تقيم قوة إيمانك بالآخرة؟ وكيف ينعكس هذا الإيمان على سلوكك في مواجهة الشهوات والمعاصي؟
4. سؤال الحفظ: عندما تشعر بضعف أمام وسوسة الشيطان، هل تلجأ فورًا إلى الله "الحفيظ" وتطلب منه الحفظ؟ كم مرة تستعيذ بالله من الشيطان في يومك؟
5. سؤال الشك: هل تجد في قلبك شكًا أو غفلة تجاه الآخرة؟ ما الذي تفعله لتقوية يقينك باليوم الآخر؟
**كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

١. في معركة الوساوس اليومية:

· التطبيق: درب نفسك على أن تقول عند أول خاطرة سوء: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حسبي الله الحفيظ". واعلم أن هذه الوسوسة هي ظن الشيطان فيك، فاختر أن تكون ممن يخيب ظنه.

٢. في تقوية الإيمان بالآخرة:

· التطبيق: خصص وقتًا أسبوعيًا لقراءة أو سماع ما يقوي إيمانك بالآخرة: آيات وأحاديث عن أهوال القيامة، وعن الجنة والنار، وعن سكرات الموت. هذا الزاد الإيماني هو وقودك في معركتك مع الشيطان.

٣. في تحليل انحرافات المجتمعات:

· التطبيق: عندما ترى مجتمعًا يغرق في الفساد والانحلال، لا تنظر فقط إلى الأسباب الظاهرة (فقر، جهل، مؤامرات). تذكر هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾. وابحث عن جذور المشكلة في ضعف الإيمان بالآخرة، وادعُ إلى تقويته.

٤. في تربية الأبناء:

· التطبيق: علم أبناءك منذ الصغر قصة إبليس ووسوسته. علمهم أن الشيطان عدو، وأن سلاحهم ضده هو الاستعاذة بالله واليقين بالآخرة. اربط لهم بين الصلاة والصيام والأخلاق وبين النجاة من الشيطان.

٥. في الدعوة إلى الله:

· التطبيق: عندما تدعو غير المسلمين إلى الإسلام، أو تنصح مسلمًا غافلًا، ركز على ترسيخ الإيمان بـ اليوم الآخر. فهذا هو الدرع الذي يحميه من الوقوع في فخ الشيطان بعد إسلامه أو توبته.
**دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان واع: يعرف عدوه ويدرك حقيقة صراعه معه.
· إنسان قوي الإرادة: يتسلح باليقين بالآخرة لمقاومة الشهوات.
· إنسان مطمئن: يشعر بحفظ الله ورعايته له، فلا يخاف من الشيطان.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع محصن ضد الفساد: إذا قوي إيمان أفراده بالآخرة، قل الفساد والانحراف، لأن الرادع الذاتي (الخوف من الحساب) يكون قويًا.
· مجتمع متماسك: أفراده يتعاونون على البر والتقوى، ويتناصحون بالحق والصبر، فيقفون صفًا واحدًا أمام وساوس الشيطان.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة اليقين: الحضارة الإسلامية قامت على اليقين بالآخرة. هذا اليقين هو الذي دفع الصحابة و التابعين للتضحية بأرواحهم وأموالهم في سبيل الله، لأنهم كانوا يرون الجنة والنار كأنهما رأي عين.
· دولة الحفظ الإلهي: دولة التوحيد تستمد قوتها وأمنها من إيمانها بأن الله حفيظ عليها، فتلتزم بشرعه، وتحكم بعدله، وتتوكل عليه، فيحفظها من كل سوء.
**خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد كشفت لك هاتان الآيتان سرًا من أسرار الصراع الخفي في هذا الكون. لقد عرفت أن الشيطان يظن بك السوء، ويتربص بك الدوائر، ويتمنى أن تكون من أتباعه. لكنك عرفت أيضًا أنه لا سلطان له عليك، وأن كل ما يملكه هو الوسوسة، وأن قرارك بيدك أنت.

وعرفت أن سلاحك الأقوى في هذه المعركة هو إيمانك بالآخرة. فكلما أيقنت أن هناك جنة وناراً، وحسابًا وعقابًا، ضعفت وساوس الشيطان في قلبك. وعرفت أنك لست وحدك، بل الله حفيظ عليك، يحفظك ويرعاك.

فاختر لنفسك: إما أن تكون ممن يصدق عليهم إبليس ظنه، فتتبعه وتكون من الخاسرين. وإما أن تكون من "الفريق المؤمن" الذي يخيب ظنه، ويثبت على الحق، ويفوز برضوان الله وجنته.

جدد إيمانك بالآخرة. استعذ بالله الحفيظ. وكن من عباد الله المخلصين، الذين لا سبيل للشيطان عليهم.

المقطع الثالث
القسم الاول
اولا
أيها العقل الباحث عن الحقيقة، أيها القلب المتطلع إلى نور اليقين، لقد قطعنا شوطًا طويلًا في رحاب سورة سبأ .رأينا آيات الملك والحمد، وآيات العلم والقدرة، وآيات البعث والجزاء، ورأينا نماذج الشاكرين من آل داود وسليمان، ونماذج الكافرين من سبأ وإبليس .والآن، وبعد كل هذه الآيات البينات، تأتي الآ يتان اللتان نقف عندهما اليوم لتنتقلا من السرد والقصص إلى المواجهة والتحدي .إنهما ترفعان القفاز في وجه كل من يدعي أن لله شريكًا، وتكشفان زيف هذه الدعاوى ببراهين عقلية دامغة لا تقبل الجدل.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه أن يعلنها صريحة مدوية: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ:22 -.[23]

هاتان الآيتان الكريمتان تمثلان ذروة التحدي في السورة .بعد أن أقام الله الحجة على المشركين بذكر ملكه المطلق، وعلمه المحيط، وقدرته على البعث، وعلى تسخير الكون لأنبيائه، وعلى إهلاك الكافرين بنعمه، يأتي هنا ليواجههم وجهًا لوجه: "هيا! ادعوا آلهتكم التي زعمتموها من دوني! انظروا ماذا تملك؟ وماذا تستطيع أن تفعل؟" إنه تحدٍ يفضح عجزهم وضعفهم، ويجردهم من كل أمل في شفاعة أو نصير.

موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن عرضت الآيات السابقة18) - (19قصة سبأ الذين بطروا النعمة فمزقوا، ثم بينت20) - (21أن سبب ضلالهم هو تصديق ظن إبليس بهم لضعف إيمانهم بالآخرة، يأتي هذا المقطع ليعود إلى أصل المشكلة وجذورها، وهي الشرك بالله .فكل ما سبق من قصص كان لإثبات أن الله هو المالك المدبر، وأن الشرك هو سبب الهلاك .وهنا يتم الانتقال من التقرير إلى التحدي، ومن السرد إلى الخطاب المباشر للمشركين .إنه إعلان حرب على كل معبود من دون الله، وإقامة للبرهان القاطع على بطلان الشرك بكل أشكاله.
الأمر الأول: دلالة الانتقال إلى التحدي في الآية

قبل أن نخوض في تفاصيل التفسير، لا بد أن نقف عند هذه النقلة النوعية في الأسلوب القرآني . لماذا هذا الانتقال المفاجئ إلى صيغة التحدي والأمر) قُلِ ادْعُوا(؟

.١بعد إقامة الحجة الكاملة:
لقد قدمت الآيات السابقة كل ما يكفي لإقناع العقل السليم بوحدانية الله .فمن كان له ملك السماوات والأرض) آية(1 ، ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها) آية(2 ، ويقدر على البعث) آية(3 ، ويهدي من يشاء) آية(6 ، ويسخر الريح والجن) آية(12 ، ويهلك الأمم الكافرة) آية16 -(17، فماذا بقي للمشركين من حجة؟! لذلك يأتي التحدي الآن ليكشف عجزهم التام عن الإتيان بأي دليل على صحة معتقدهم .فكأنه يقول لهم: "بعد كل هذه البراهين، إن كان لآلهتكم أي قدرة، فأظهروها!".

.٢لفضح زيف الآلهة المدعاة:
التحدي هنا ليس لمجرد الجدال، بل هو أسلوب تربوي عملي ليكتشف المشركون بأنفسهم كذب معتقدهم .فعندما يُطلب منهم أن يدعوا آلهتهم، سيرون بأعينهم أن هذه الآلهة لا تستجيب، ولا تملك شيئًا .وهذا هو أبلغ رد على ادعاءاتهم.

.٣للانتقال من العقل إلى الوجدان:
بعد أن خاطب العقل بالبراهين، يخاطب الآن الوجدان بالتحدي .فالتحدي يثير في النفس مشاعر الخوف والرجاء، ويجعل الإنسان يعيد حساباته .إنها صدمة إيمانية تهدف إلى إيقاظ القلوب الغافلة.

.٤لتأكيد الحقيقة المركزية للسورة:
السورة كلها تدور حول إثبات التوحيد وإبطال الشرك .وهذا التحدي هو تتويج لهذا الهدف .إنه يضع النقاط على الحروف، ويعلن بكل وضوح: لا إله إلا الله.
الأمر الثاني:
الأمر الإلهي بالتحدي) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ المشهد بالأمر الإلهي للنبي ﷺ: ﴿قُلِ﴾ .هذا الأمر يحمل في طياته معاني القوة والثقة واليقين .فـ النبي ﷺ مأمور من الله أن يقف في وجه المشركين ويتحداهم.

· دلالة) ادْعُوا(:
الدعاء هنا يشمل الدعاء بمعنى العبادة، والدعاء بمعنى طلب النفع أو دفع الضر .فالتحدي يشمل كل ما يعتقده المشركون في آلهتهم من قدرة على أي شيء.
· دلالة) الَّذِينَ زَعَمْتُم(:
اختيار كلمة "زعمتم" بدل "عبدتم" أو "اتخذتم" له دلالة قوية .الزعم هو القول الكاذب الذي لا دليل عليه .فـالله يصف معتقدهم بأنه مجرد زعم باطل، لا حقيقة له في الواقع .وكأنه يقول لهم: "ادعوا هذه الآلهة التي تزعمون كذبًا أنها تستحق العبادة!".
· دلالة) مِّن دُونِ اللَّهِ(:
أي من غيره، أو من سواه .وهذا يبين أن العبادة حق خالص لله، فكل ما عبد من دونه فهو باطل.
· الرسائل النفسية والتربوية:
.1 الشجاعة في الحق: تعلمنا الآية أن نكون شجعانًا في مواجهة الباطل وأهله، وأن نتحداهم بـ الحجة والبرهان.
.2 فضح الزيف: التحدي هو أسلوب قرآني لفضح بطلان العقائد الفاسدة .فعلينا أن نستخدمه بـ الحكمة في دعوتنا.
.3 التجرد من الخوف: عندما تكون واثقًا من حقك، فلا تخف من تحدي المبطلين.
الأمر الثالث:
البراهين الثلاثة على بطلان الشرك) لَا يَمْلِكُونَ ...وَمَا لَهُمْ ...وَمَا لَهُ(...

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد الأمر بالتحدي، تأتي الجمل المستأنفة لتوضح سبب بطلان عبادة هؤلاء من دون الله .إنها ثلاثة براهين دامغة تقطع كل أمل في نفع هذه الآلهة.

البرهان الأول: لا يملكون مثقال ذرة:
﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾

· الدلالة: هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون شيئًا على الإطلاق، ولا حتى وزن ذرة صغيرة في هذا الكون الفسيح .فإذا كانوا لا يملكون شيئًا، فكيف يُعبدون؟ وكيف يُطلب منهم الرزق والنصر؟! إن من لا يملك لا يستطيع أن يعطي .هذا هو البرهان الأول على عجزهم المطلق.

البرهان الثاني: ليس لهم شرك في الملك:
﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾

· الدلالة: هذا برهان ثانٍ .قد يقول قائل: "هم لا يملكون بمفردهم، ولكنهم شركاء لله في ملكه!" .القرآن يرد على هذا الاحتمال فورًا: لا .ليس لهم أي شركة مع الله في ملك السماوات والأرض .فـالله هو المالك الوحيد، ولا شريك له في ملكه .وإذا انتفت الشركة، انتفى حق العبادة.

البرهان الثالث: ليس لله منهم ظهير:
﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾

· الدلالة: هذا برهان ثالث على تفرد الله بالجلال والكمال .قد يقول قائل: "هم ليسوا شركاء في الملك، ولكنهم أعوان وظهير لله، يساعدونه في تدبير الكون!" .القرآن يرد على هذا أيضًا: كلا .فـالله سبحانه ليس بحاجة إلى أي عون أو مساعدة من أحد ."الظهير" هو المعين والنصير .فـالله غني عن العالمين، لا يحتاج إلى وزير ولا إلى معين .ومن كان كذلك، فهو المستحق للعبادة وحده.
· اللمسة البيانية في الجمع بين البراهين الثلاثة:
لاحظ كيف انتقلت الآية من نفي الملكية الجزئية) لا يملكون مثقال ذرة(، إلى نفي الملكية المشتركة) وما لهم من شرك(، إلى نفي المعاونة والمساعدة) وما له منهم من ظهير .(بهذا الترتيب المحكم، أغلقت الآية كل الأبواب التي يمكن أن يتعلق بها المشركون لتبرير عبادتهم .فلا هم يملكون، ولا هم شركاء، ولا هم أعوان .فماذا بقي لهم؟! لا شيء سوى العجز المطلق.

· أمثلة تقريبية:
· الموظف والمدير: تخيل أنك تطلب حاجة من موظف صغير في شركة .فتقول: "هو لا يملك صلا حية القرار) لا يملك مثقال ذرة(، وليس شريكًا في ملكية الشركة) وما لهم من شرك(، وليس مستشارًا للمدير العام) وما له من ظهير(" .فهل يعقل أن تذهب إليه وتتوسل إليه؟! بالطبع لا .هذا هو حال المشركين مع آلهتهم.
· السيارة الفارهة: شخص يملك سيارة فارهة، لكنه لا يملك رخصة قيادة، وليست السيارة باسمه، وليس له سائق .فهل يمكنه أن يقودها؟ لا .هكذا الآلهة المدعاة، لا تملك شيئًا ولا تقدر على شيء.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 تجريد القلب من التعلق بغير الله: هذه البراهين تحرر قلب المؤمن من الخوف أو الرجاء في غير الله .فلا تخف من مخلوق، ولا ترجُ غير الخالق.
.2 توحيد الربوبية أساس توحيد الألوهية: عندما يتقرر في العقل أن لا مالك ولا شريك ولا ظهير لله، يثمر ذلك في القلب توجيه العبادة له وحده.
.3 قطع الطريق على كل أنواع الشرك: سواء كان الشرك الجلي) عبادة الأصنام (أو الشرك الخفي)التعلق بالأسباب والوسائط .(فالآية تقطع دابر كل تعلق بغير الله.
الأمر الرابع:
الشفاعة الحقة وبطلان شفاعة المدعوين) وَلَا تنفعُ الشّفَاعَةُ عِندَهُ إلّا لِمَنْ أذِنَ لهُ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن نفى عن آلهتهم كل صفات الألوهية) الملك، الشركة، المعاونة(، ينتقل إلى مسألة الشفاعة التي كان المشركون يتعللون بها .كانوا يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ يونس: .[18 فجاء الرد القرآني ليبين حقيقة الشفاعة.

· دلالة) وَلَا تنفعُ الشّفَاعَةُ عِندَهُ(:
الشفاعة هي التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة .والآية تؤكد أن الشفاعة بمعناها المطلق لا تنفع عند الله، لأن الله هو المالك المطلق.
· دلالة الاستثناء) إلّا لِمَنْ أذِنَ لهُ(:
هذا هو الاستثناء الوحيد .هناك شفاعة تنفع، وهي الشفاعة التي يأذن الله بها .وهذا يعني أن:
.1 الشافع لا يشفع إلا بإذن الله.
.2 المشفوع له لا يشفع فيه إلا إذا ارتضى الله دينه.
فالأمر كله بيد الله .فإذا كانت الشفاعة لا تكون إلا بإذنه، فكيف يتخذون من دونه شفعاء بغير إذنه؟!
· الرسائل النفسية والتربوية:
.1 لا شفاعة بدون إذن الله: هذا يبطل عقيدة المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء ليشفعوا لهم .فحتى هؤلاء المقربون لا يملكون الشفاعة بأنفسهم.
.2 الأمل في شفاعة النبي ﷺ: الآية تفتح باب الأمل للمؤمنين، فالنبي ﷺ هو ممن أذن الله لهم بـ الشفاعة يوم القيامة .ولكن لا ينبغي أن يتكل المؤمن على الشفاعة ويترك العمل، بل يسعى ليكون من أهلها بالإيمان والعمل الصالح.
.3 التعلق بـالله مباشرة: لا تجعل بينك وبين الله وسائط، بل ادعه مباشرة، فهو القريب المجيب.
الأمر الخامس:
المشهد المهيب لانكشاف الحق يوم القيامة) حَتّىٰ إذَا فُزّعَ عَن قُلُوبِهِمْ(...

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذا المشهد هو من أروع ما في الآية .إنه يصور حال الملائكة وهم في غاية الخوف والرهبة من الله ، فكيف بمن عبدوهم من دون الله؟!

· دلالة) حَتّىٰ إذَا فُزّعَ عَن قُلُوبِهِمْ(:
"فزع" أي أزيل الفزع والخوف عن قلوبهم .وهذا يدل على أنهم كانوا في حالة فزع ورعب شديدين .وهذا الفزع سببه سماع كلام الله أو تلقي الوحي .فالملائكة مع قربهم من الله، يهابونه ويخافونه أشد الخوف.
· دلالة الحوار بين الملائكة) قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الحَقّ(:
عندما يزول الفزع عن قلوبهم، يسأل بعضهم بعضًا بلهفة: "مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟" أي ماذا قال الله من أمر أو وحي؟ فيجيب بعضهم: "الحَقّ" .أي قال القول الحق الذي لا مرية فيه.

هذا الحوار يصور لك مدى خضوع الملائكة وخشيتهم من الله، ومدى حرصهم على معرفة أمره وتنفيذه .فإذا كان هذا حال الملائكة المقربين، فكيف بمن يدعوهم من دون الله ويظن أنهم ينفعونه؟! إنهم بأنفسهم لا يجرؤون على السؤال إلا بعد أن يزول عنهم الفزع!
· دلالة الختام) وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ(:
هذا هو التعقيب الإلهي على المشهد كله ."العلي" أي المتعالي عن كل نقص، المستعلي على كل شيء بقدرته ."الكبير" أي العظيم الذي يصغر كل شيء في جنبه .وهاتان الصفتان هما المناسبتان لختام هذا المشهد المهيب .فمن كان عليًا كبيرًا إلى هذا الحد، كيف يُعبد معه غيره؟!
· أمثلة تقريبية لتقريب المشهد:
· في حضرة ملك عظيم: تخيل مجلس ملك عظيم، فيه وزراؤه والمقربون منه واقفون في غاية الأدب والرهبة .إذا تكلم الملك، خافوا جميعًا .وعندما ينتهي، يسأل بعضهم بعضًا همسًا: "ماذا قال الملك؟ " .هذا هو حال الملائكة مع الله، ولكن الفارق أن الله أعظم وأجل من أي ملك.
· قاعة امتحان مصيري: طلاب في قاعة امتحان صامتة، يراقبهم أستاذ صارم .إذا تكلم الأستاذ بكلمة، ارتجف الجميع .وعندما يخرج، يسأل بعضهم بعضًا: "ماذا قال؟" .هذا غاية في الضعف والرهبة.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تعظيم الله في القلوب: هذا المشهد يزرع في قلب المؤمن تعظيمًا لله وخشية منه .فإذا كان الملائكة يخافونه هذا الخوف، فنحن أولى بالخوف والخشية.
2. بطلان عبادة الملائكة: إذا كان الملائكة أنفسهم في هذا الموقف من الذل والخضوع لله، فكيف يُعبدون من دونه؟! إنه سفه عظيم.
3. الاستعداد ليوم الفزع الأكبر: هذا المشهد هو نموذج مصغر ليوم القيامة، حيث الفزع الأكبر . فعلينا أن نستعد لذلك اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

أبعاد الآيتين وقيمها وأفاقها التربوية والعملية

أولًا: الأبعاد العقدية والفكرية:

· إثبات توحيد الربوبية والألوهية بأقوى البراهين.
· إبطال الشرك بكل أشكاله) عبادة الأصنام، عبادة الملائكة، عبادة البشر.(
· بيان حقيقة الشفاعة وأنها ملك لله وحده.
· تعظيم مقام الربوبية وبيان هيبة الملائكة من الله.

ثانيًا: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· تحرير القلب من الخوف والرجاء في غير الله.
· زرع الطمأنينة بأن الله هو المالك المدبر.
· إثارة مشاعر الخوف والرهبة من الله.
· تقوية الثقة بالله والاعتماد عليه.

ثالثًا: القيم التي تدعوان إليها:

· قيمة التوحيد الخالص.
· قيمة الشجاعة في الحق ومواجهة الباطل.
· قيمة اليقين بأن النفع والضر بيد الله.
· قيمة تعظيم شعائر الله وأمره.

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1.سؤال التحدي: لو تحدى الله المشركين اليوم أن يدعوا آلهتهم، فهل يستجيب لهم أحد؟ ماذا يعني هذا التحدي لنا نحن المؤمنين؟ هل نثق في الله هذه الثقة؟
2.سؤال الملكية: هل هناك شيء في حياتي أظن أن فلانًا يملكه) وظيفة، رزق، شفاء(؟ كيف تغير هذه الآية نظرتي؟
3.سؤال الشفاعة: هل أعتمد على شفاعة النبي ﷺ والصالحين، وأهمل العمل؟ أم أني أسعى لأكون من أهل الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح؟
4.سؤال الفزع: عندما أقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، هل أشعر في قلبي بهيبة الله وخشيته؟ كيف أزيد هذه الخشية في قلبي؟
5.سؤال العلي الكبير: هل أستشعر معنى "العلي الكبير" في حياتي اليومية؟ هل أتواضع لله وأكبره،

أم أني أتكبر على عباده؟

كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية(

.١في التوحيد الخالص:

· التطبيق: راجع قلبك .هل هناك شيء تتعلق به غير الله؟) شخص، مال، منصب .(جرد قلبك من التعلق بغير الله، واجعل تعلقك به وحده .قل دائمًا: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

.٢في مواجهة المخاوف:

· التطبيق: إذا خفت من أحد) مدير، حاكم، عدو(، تذكر هذه الآية .هو لا يملك مثقال ذرة .فلماذا تخافه؟ خف الله وحده، وتوكل عليه.

.٣في الدعاء والعبادة:

· التطبيق: لا تجعل بينك وبين الله وسائط .ادعه مباشرة في كل صغيرة وكبيرة .لا تقل: "يا فلان اشفع لي عند الله"، بل قل: "يا رب اغفر لي وارحمني".

.٤في تعظيم أوامر الله:

· التطبيق: عندما تسمع آية أو حديثًا فيه أمر أو نهي، استحضر مشهد الملائكة وهم يسألون: "ماذا قال ربكم؟" .واستجب فورًا: "قال الحق" .واجعل هذا دأبك مع كل ما يأتيك من شرع الله.

.٥في تربية الأبناء:

· التطبيق: علم أبناءك هذا التحدي القرآني .قل لهم: "انظروا، الله يتحدى المشركين أن تدعو آلهتهم، فلم تستطع! لأن الله هو المالك وحده" .هذا يغرس فيهم التوحيد منذ الصغر.

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان موحد خالص: قلبه معلق بالله وحده، لا يخاف ولا يرجو سواه.
· إنسان شجاع: لا يهاب الباطل، ويتحدى دعاوى المشركين بالحجة.
· إنسان معظم لله: يستشعر هيبة الله في قلبه، فيطيعه ويخشاه.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع التوحيد: مجتمع تسوده عقيدة التوحيد الخالصة، فتختفي منه مظاهر الشرك والخرافة)التبرك بالأولياء، الذهاب للسحرة.(
· مجتمع العدل والحرية: لأن أفراده لا يخافون إلا الله، فلا يظلمون ولا ينظلمون.
· مجتمع القوة والعزة: لأنهم يعلمون أن الله هو العلي الكبير، فيستمدون قوتهم منه.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة التحرر من الأوهام: هذه الآيات تحرر العقل البشري من الخرافات والأوهام، وتجعله ينطلق في الكون معظماً لله، مستخدماً ما سخر له من قوى.
· دولة الشفاعة الحقة: دولة التوحيد تؤمن بالشفاعة بإذن الله، فتوقر النبي ﷺ وتتبع سنته، ولا تغلو فيه فتعطيه حق الألوهية.
· دولة العزة والكرامة: لأنها تقوم على مبدأ "لا يملكون مثقال ذرة"، فلا تخضع لأحد إلا لله، وتستعلي على كل قوى الباطل في الأرض.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد وقفت معي على مشهد من أعظم مشاهد التحدي في القرآن .لقد سمعت ربك يأمر نبيه أن يقول للمشركين: "ادعوا شركاءكم!" . ثم رأيت كيف فضح زيفهم وأثبت أنهم لا يملكون

شيئًا، ولا يشاركون في شيء، ولا يعاونون الله في شيء .ثم نقلك إلى مشهد الآخرة، لترى الملائكة أنفسهم وهم في غاية الخوف والرهبة من الله.

فهل بعد هذا البيان من شك؟ هل بقي في قلبك ذرة من خوف أو رجاء لغير الله؟
اجعل هذه الآية سلاحك في وجه كل باطل، ونورًا لقلبك في ظلمات الشك .وقل بلسانك وقلبك: "حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم".

ثانيا

أيها العقل الباحث عن الحق، أيها القلب المتعطش إلى الإنصاف، أيها الإنسان الذي أنهكته الخصومات والجدالات العقيمة، تعال بنا نقف مع ثلاث آيات كريمات من سورة سبأ، هي من روائع الأدب القرآني في الحوار والدعوة .إنها آيات تقدم لنا نموذجاً فريداً في كيفية إدارة الخلاف، وفن الإقناع، وأدب الا ختلاف .إنها تنقلنا من أسلوب التحدي الصارم الذي رأيناه في الآيات السابقة، إلى أسلوب الحوار الهادئ العميق، الذي يخاطب العقل والوجدان معاً، ويترك الباب مفتوحاً للهداية دون إكراه أو تعنت.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه ﷺ أن يخاطب المشركين بهذا الخطاب العجيب:
﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾]سبأ:[24
﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾] سبأ:[25
﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾] سبأ:[26

هذه الآيات الثلاث تشكل منهجاً متكاملا ً للداعية إلى الله، بل لكل إنسان يريد أن يعيش في سلام مع من يخالفه في الرأي والعقيدة .إنها تعلمنا أن الحق واضح بذاته، وأن الجدال العقيم لا يولد إلا البغضاء، وأن الفيصل الأخير هو الله وحده .إنها تزرع في قلب المؤمن الثقة والطمأنينة، وتغرس فيه بذور التسامح والإنصاف، وتوجه الأنظار إلى يوم الفصل الذي يحكم فيه الله بين عباده بالحق.
موقع الآيات في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

بعد أن تحدى الله المشركين في الآيتين السابقتين22) - (23أن يدعوا آلهتهم، وأثبت عجزهم المطلق، يأتي هذا المقطع ليقدم البديل المنطقي والعقلي لهذا التحدي .فبدلا ً من أن يظل النبي ﷺ في مواجهة حادة معهم، يأمره الله أن ينتقل إلى حوار الأسئلة العقلية التي لا يملك المشركون إلا أن يجيبوا عنها بالإقرار بالحق .ثم ينتقل إلى إعلان مبدأ الإنصاف، ثم إلى تفويض الأمر إلى الله يوم القيامة.

هذا الانتقال من التحدي إلى الحوار الهادئ هو تربية للداعية على أن يتلطف مع المدعوين بعد أن يفحمهم بالحجة، لعل قلوبهم تلين للحق .فالقوة في الحق لا تعني الغلظة والفظاظة، بل قد يكون اللين بعد إقامة الحجة أبلغ في التأثير.
الأمر الأول:
السؤال الذي يفحم(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ المقطع بالأمر الإلهي للنبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ .وتكرار الأمر "قل" في هذه الآيات الثلاث يدل على أهمية هذا الموقف، وعلى أن النبي ﷺ مأمور بتبليغ هذا الكلام بحروفه، فهو وحي من عند الله.

· دلالة السؤال) مَن يَرْزُقُكم(:
هذا سؤال استفهام تقريري .أي أريد منكم أن تقروا وتعترفوا بالحقيقة .والرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان من طعام وشراب وهواء وصحة وأمن .والسؤال هنا عن مصدر الرزق.
· دلالة) مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(:
هذا يشمل كل مصادر الرزق .من السماء: المطر، ضوء الشمس، الهواء .ومن الأرض: النبات، المعادن، المياه الجوفية .فكل ما تحتاجونه لبقائكم يأتيكم من هذين المصدرين .فمن الذي يملكهما ويدبرهما؟!
· دلالة الأمر الثاني) قُلِ اللَّهُ(:
هنا يأتي الجواب على لسان النبي ﷺ نفسه، بأمر من الله .لماذا لم يترك النبي ﷺ للمشركين فرصة الإجابة؟ يقول المفسرون: لأنها حقيقة واضحة لا يمكن لأحد أن ينكرها .فالمشركون أنفسهم كانوا يعترفون بأن الله هو الرزاق، ومع ذلك يعبدون غيره! كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾] لقمان: .[25 فالنبي ﷺ يجيب نيابة عنهم ليبين أن الأمر مفروغ منه، ولا يحتاج إلى نقاش.

· الربط بين الربوبية والألوهية:
هذا السؤال وجوابه هو دليل قاطع على أن من يستحق العبادة هو من يملك الرزق .فإذا كنتم تعترفون بأن الله هو الرزاق، فلماذا تعبدون من لا يرزقكم شيئاً؟! هذا هو منطق التوحيد الذي لا يرد.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· الفلاح والموظف: تخيل فلاحاً يزرع أرضه، ويسقيها، ويتعب عليها، ثم يأتي الحصاد فيأخذ كل المحصول شخص آخر لا يملك الأرض ولا تعب فيها! هذا هو حال المشرك الذي يعترف بأن الله هو الخالق الرازق، ثم يصرف العبادة لغيره.
· صاحب المصنع والعمال: صاحب مصنع يوفر المال والمواد الخام، ويدفع رواتب العمال، ويسوق المنتجات .فهل من العدل أن ينسب العمال الفضل لأنفسهم أو لآلاتهم وينسوا صاحب المصنع؟! كلا.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 قوة الحجة العقلية: هذه الآية تعلمنا أن نبدأ دعوتنا بالمسلمات العقلية التي لا يختلف عليها أحد، ثم نبني عليها النتائج المنطقية.
.2 التذكير الدائم بمصدر الرزق: عندما تجلس لتأكل، تذكر أن هذا الرزق من الله .عندما تتنفس الهواء، تذكر أنه من الله .هذا يملأ قلبك شكراً وخضوعاً.
.3 فضح تناقض المشركين: إظهار أن المشركين يعيشون تناقضاً فكرياً: يعترفون بربوبية الله وينكرون ألوهيته.
الأمر الثاني:
الإنصاف والتسليم بإمكانية الخطأ(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ۔

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن أثبت الحجة عليهم، يأتي الأسلوب القرآني العجيب بأدب الحوار الرفيع: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

· دلالة) وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ(:
هذا الأسلوب هو غاية في الإنصاف والتجرد عن الهوى .لم يقل النبي ﷺ: "وإننا لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين" مع أنه يعلم ذلك يقيناً .ولكنه، بأمر الله، يعرض المسألة بصيغة الاحتمال والتقسيم المنطقي .أحد الفريقين لا بد أن يكون على هدى، والآخر في ضلال .وهذا أسلوب يفتح باب التفكير لدى الخصم، ويجعله يشعر أن المتكلم ليس متعصباً لرأيه، بل هو باحث عن الحقيقة.
· اللمسة البيانية في استخدام) على (و) في(:
· ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾: استخدم "على" التي تفيد الاستعلاء والتمكن .فالمهتدي راكب متن الهدى، مستعل عليه، متمكن منه.
· ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: استخدم "في" التي تفيد الظرفية والإحاطة .فالضال محاط بالضلال من كل جانب، مغمور فيه، لا يهتدي إلى طريق.
هذا الاستعمال الدقيق يصور حال الفريقين تصويراً بليغاً: المهتدي في نور ورفعة، والضال في ظلمة وحيرة.
· دلالة وصف الضلال بأنه) مُبِينٍ(:
الضلال واضح في نفسه، أو واضح للمتأمل .وهذا يعني أن الأمر ليس فيه خفاء، فالحق واضح و الباطل واضح لمن أراد الهداية.
· الرسائل التربوية في الحوار والدعوة:
.1 الإنصاف يجذب القلوب: عندما يشعر خصمك أنك منصف، ولا تصادر حقه في التفكير، فإن قلبه يلين لكلامك .هذه الآية تعلمنا أن نقول لمن نخالفه: "أحدنا على حق والآخر على باطل، فلنتحاور لمعرفة الحق" .هذا الأسلوب يختلف تماماً عن قول: "أنا على حق وأنت على باطل".
.2 التواضع في الدعوة: مع أن النبي ﷺ يعلم أنه على الحق، إلا أنه لم يفرض ذلك على سامعيه بغلظة، بل ترك لهم مساحة للتأمل والتفكير.
.3 فتح باب المراجعة: هذا الأسلوب يجعل المخالف يراجع نفسه، ويسأل: "هل أنا على هدى أم في ضلال؟" .وهذا هو بداية طريق الهداية.
· أمثلة تقريبية من حياتنا:
· الحوار مع الأبناء: عندما تريد أن تقنع ابنك بشيء، لا تقل له: "أنا على صواب وأنت مخطئ" .بل قل: "يا بني، أحدنا قد يكون مخطئاً، فلنتناقش بهدوء لنعرف الصواب" .هذا الأسلوب يجعله يتقبل منك.
· الخلاف الزوجي: في الخلاف بين الزوجين، إذا قال أحدهما للآخر: "إما أن أكون على صواب وإما أن تكون أنت"، فهذا يخفف من حدة التوتر، ويفتح المجال للحل.
· الحوار الفكري: في مناظرة مع ملحد، يمكنك أن تقول: "أحدنا يرى الحقيقة، فلنبحث معاً عنها" .

هذا أفضل من أن تبدأ بالاتهام.
الأمر الثالث:
فصل المسؤوليات(قل لا تسألونَ عَمّا أجْرَمْنَا وَلا نسألُ عَمّا تعْمَلون ً)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن عرض القضية بإنصاف، يأتي هنا ليعلن مبدأ المسؤولية الفردية .هذه الآية هي دستور في التعايش مع المخالفين.

· دلالة) لا تسألونَ عَمّا أجْرَمْنَا(:
لاحظ أنه وصف عملهم -على سبيل الفرض والتنزل في الحوار- بأنه "إجرام" ، بينما وصف عمل المخالفين بأنه "عمل" . وفي هذا أدب عظيم .فالمفروض أنهم يعتبرون النبي ﷺ مجرماً بدعوته إلى التوحيد! فالنبي يقول لهم: "لنفترض جدلا ً أننا كما تزعمون مجرمون، فأنتم غير مسؤولين عن إجرامنا هذا .فلماذا تهتمون بنا وتحاربوننا؟!".
· دلالة) وَلا نسْألُ عَمّا تعْمَلونَ(:
وكذلك نحن، لا نسأل عن أعمالكم، ولا نحاسب عليها .فهي مسؤوليتكم أنتم أمام الله .فلماذا لا تتركونا وشأننا؟ هذا إعلان لحرية العقيدة والضمير، وهو الأساس الذي تقوم عليه العلاقة بين المسلمين وغيرهم في دار الإسلام .فلا إكراه في الدين.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 تحرير النفس من تتبع عيوب الآخرين: هذه الآية تعلمنا أن ننشغل بأنفسنا وإصلاحها، بدلا ً من الانشغال بعيوب الآخرين وأخطائهم .كل إنسان سيسأل عن عمله هو.
.2 قطع الطريق على الجدال العقيم: كثير من الجدالات تنتهي إلى لا شيء، لأن كل طرف يحاول أن يثبت أن الآخر مخطئ .هذه الآية تقول: "دعونا من هذا، كل واحد مسؤول عن نفسه".
.3 التعايش السلمي: هذا المبدأ يسمح للمجتمعات المختلفة أن تتعايش في سلام، طالما أن كل فريق يحترم حرية الآخر، ويترك الحساب لله.
· أمثلة تقريبية:
· في بيئة العمل: زميل لك دائم الانتقاد والتدخل في عملك .يمكنك أن تقول له بكل أدب: "أنت غير مسؤول عن عملي، كما أنني غير مسؤول عن عملك .فلنركز كل منا على مهامه".
· في العائلة: أخ دائم التوجس من تصرفات أخيه .هذه الآية تذكره بأن كل واحد سيسأل عن نفسه ، فليشتغل بإصلاح نفسه أولا ً.
الأمر الرابع:
الإحالة إلى المحكمة الإلهية العادلة) قلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُنَا ثمّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحَقّ وَهُوَ الفَتّاحُ العَلِيمُ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن أعلن مبدأ المسؤولية الفردية، وقطع الطريق على الجدال الدنيوي، يأتي ليغلق الملف بأسلوب راقٍ جداً، ويحيل القضية كلها إلى المحكمة الإلهية العادلة يوم القيامة.

· دلالة) يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُنَا(:
هذا هو الموعد المضروب .ليس هنا في الدنيا، بل هناك في الآخرة، حيث يجمع الله الأولين والآ خرين في صعيد واحد .هناك فقط يمكن الفصل النهائي.
· دلالة) يَفْتَحُ بَيْنَنَا(:
الفتح هو الحكم والفصل والقضاء .والله سبحانه هو الذي سيفتح بيننا ويحكم .وهذا هو معنى "الفتاح".
· دلالة) بِالحَقّ(:
حكمه سيكون بالحق والعدل المطلق، لا ظلم فيه ولا محاباة .فكل فريق سينال جزاءه العادل.
· دلالة الختام باسمي) الفَتّاحُ العَلِيمُ(:
· الفتاح: الحاكم الذي لا مرد لحكمه، والذي يفتح أبواب الرحمة والرزق والهداية لعباده.
· العليم: الذي يعلم كل شيء، يعلم خفايا النفوس، ويعلم من يستحق الهداية ومن يستحق الضلالة . فحكمه مبني على علم محيط.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 راحة البال والطمأنينة: هذه الآية تريح قلب المؤمن من عناء الجدال .فأنت لست مطالباً بأن تقنع كل الناس، ولا أن تنتصر في كل حوار .المهم أن تبلغ الرسالة، ثم تترك الحكم لله .هذا يمنحك سكينة عجيبة.

.2 الصبر على أذى المخالفين: عندما يؤذيك أحد بسبب دينك، تذكر أن هناك يوماً سيجمعكم الله فيه، وسينتصف لك من ظالمك .هذا الصبر يعينك على تحمل المشاق.
.3 عدم اليأس من هداية أحد: فالله هو الفتاح العليم، قد يهدي قلوباً كانت قاسية في لحظة واحدة .فلا تستعجل النتائج، وواصل دعوتك بالحكمة.
· أمثلة تقريبية:
· في القضاء: خصمان يتنازعان أمام القاضي، ولكنهما يرضيان بحكمه لأنه عادل وخبير .هكذا المؤمنون والكافرون، يحتكمون إلى الله الفتاح العليم.
· في المسابقات: المتنافسون في مسابقة يرضون بحكم لجنة التحكيم، لأنها لجنة خبيرة عادلة . فكيف بحكم الله العليم؟!
أبعاد الآيات وقيمها وأفاقها التربوية والعملية

أولا ً: الأبعاد العقدية والفكرية:

· إثبات ربوبية الله بالدليل الفطري) من يرزقكم.(
· إقامة الحجة على المشركين بما يعترفون به.
· تقرير مبدأ المسؤولية الفردية.
· إثبات البعث والجزاء) يجمع بيننا ربنا.(
· بيان صفات الله) الفتاح العليم.(

ثانيا: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· غرس الإنصاف والتواضع في النفس.
· تحرير النفس من الضغط النفسي لإقناع الآخرين.
· بث الطمأنينة والسكينة بتفويض الأمر إلى الله.
· تعزيز الصبر على أذى المخالفين.

ثالثا: القيم التي تدعو إليها الآيات:

· قيمة الحوار بالتي هي أحسن.
· قيمة الإنصاف والعدل مع المخالف.
· قيمة المسؤولية الفردية.
· قيمة التسليم لله وتفويض الأمر إليه.
· قيمة الصبر والثقة بوعد الله.
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

.1سؤال الرزق: عندما أنظر إلى مائدتي، هل أستحضر أن الله هو الذي رزقني من السماوات والأرض؟ كيف يغير هذا الاستحضار تعاملي مع الطعام) عدم الإسراف، الشكر(؟
.2سؤال الإنصاف: في آخر جدال أو خلاف دخلت فيه، هل كنت منصفاً كأسلوب القرآن) وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين(؟ أم كنت متعصباً لرأيي؟
.3سؤال المسؤولية: هل أنا مشغول بتتبع أخطاء الآخرين وعيوبهم؟ أم أني مشغول بإصلاح نفسي ومحاسبتها؟
.4سؤال التفويض: هل أستطيع أن أقول لمن يخاصمني في الدين: "يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ب الحق"؟ وهل أشعر براحة البال بعد قولها؟
.5سؤال الفتاح العليم: في أموري المغلقة، هل ألجأ إلى "الفتاح" ليفتحها لي؟ وهل أثق في حكمه "العليم" في أقداري؟
كيف تتحول الآيات إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية(

.١في فن الحوار والإقناع:

· التطبيق: عندما تتحاور مع شخص يخالفك الرأي، ابدأ بالمسلمات المشتركة) كما بدأ الله بالسؤال عن الرزق .(ثم استخدم أسلوب الإنصاف) وإنا أو إياكم .(...ثم إذا وصل الحوار إلى طريق مسدود، أغلقه بلطف وفوض الأمر إلى الله) يجمع بيننا ربنا .(هذا المنهج يريحك ويريح الطرف الآخر.

.٢في التعامل مع الانتقادات:

· التطبيق: إذا انتقدك شخص في أمر دينك أو دنياك، تذكر قوله: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ .قل في نفسك: "هذا غير مسؤول عني، وأنا غير مسؤول عنه .حسبي الله" .هذا يحميك من الدخول في مهاترات لا طائل منها.

.٣في تربية النفس على الإنصاف:

· التطبيق: درب نفسك في كل خلاف أن تقول بلسانك أو بقلبك: "أحدنا على خطأ" .هذا التدريب يقتلع من قلبك جذور الكبر والعجب بالنفس.

.٤في الدعوة إلى الله:

· التطبيق: لا تيأس من هداية أحد .استمر في دعوتك بالحكمة والموعظة الحسنة، واعلم أن الهداية بيد الله الفتاح العليم .مهمتك البلاغ، والنتائج بيد الله.

.٥في معالجة القلق من المستقبل:

· التطبيق: إذا أقلقتك أمور لا تعرف نتائجها، تذكر أن الله "الفتاح العليم" سيفتح بينك وبينها بالحق . فوض أمرك إليه، واطمئن.
دور الآيات في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان منصف: يتجرد من الهوى، ويعترف بإمكانية خطئه.
· إنسان مسؤول: يحاسب نفسه قبل أن يحاسب الآخرين.
· إنسان مطمئن: يكل أمره إلى الله، فلا يضيق صدره بالخلاف.
· إنسان حكيم: يعرف متى يتكلم، ومتى يصمت، ومتى يفوض الأمر إلى الله.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع متحاور: يقوم الحوار فيه على الإنصاف والاحترام، لا على التعصب والتراشق بالتهم.
· مجتمع متعايش: يتسع للاختلاف، ويحترم الحريات الشخصية في إطار القانون والشرع.
· مجتمع هادئ: تقل فيه الخصومات والجدالات العقيمة، لأن أفراده يعلمون أن الفصل لله.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الحجة والإقناع: لا تقوم على الإكراه والقهر، بل على الحجة والبرهان والإنصاف .وهذا هو سر انتشار الإسلام في العالم.
· دولة القانون والعدل: لأنها تؤمن بأن الله هو الفتاح العليم، فتسعى لإقامة العدل في الأرض، وتترك الحكم النهائي لله يوم القيامة.
· دولة التسامح الديني: لأنها تتبنى مبدأ "لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون"، فتضمن حرية الاعتقاد لغير المسلمين في إطار العيش المشترك.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد علمتك هذه الآيات الثلاث درساً في الرقي الإنساني قبل أن تكون درساً في العقيدة .لقد علمتك كيف تحاور، وكيف تنصف خصمك، وكيف تحافظ على هدوئك، وكيف تكل أمرك إلى الله.

فلا تجعل الخلافات تفسد قلبك، ولا تشغل نفسك بعيوب الناس .انشغل بنفسك، وأصلحها .وادعُ إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .وجادلهم بالتي هي أحسن .وقل بقلب مطمئن: "يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم".

بهذه الروح، ستعيش في سلام مع نفسك، وفي سلام مع الناس، وستكون عبداً صالحاً من عباد الله، الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.
ثالثا
أيها الباحث عن الحق، أيها العقل الذي يأبى إلا البرهان، أيها القلب الذي يرفض الخرافة والبهتان، تعال

بنا نقف مع آية كريمة من سورة سبأ، هي من أبلغ آيات التحدي والإفحام. إنها الآية التي تضع المشركين في الزاوية الحرجة، وتطالبهم بدليل مادي ملموس على شركهم، وحين يعجزون تعلن الحقيقة الناصعة التي لا غبار عليها. إنها ضربة قاضية لكل من يحاول أن يجعل لله نداً أو شريكاً.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه الكريم أن يطلق هذا التحدي المدوي:
﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا ۖ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: 27].

هذه الآية الكريمة هي الضربة القاضية في سلسلة الحجج التي ساقتها السورة لإبطال الشرك. فبعد أن تحداهم في الآيات السابقة أن يدعوا آلهتهم (آية 22)، وأثبت أنها لا تملك شيئاً، وبعد أن أقام عليهم الحجة بسؤال الرزق (آية 24)، يأتي هنا ليطالبهم بالدليل الحسي المادي على صحة معتقدهم: "أروني هؤلاء الشركاء الذين ألحقتموهم بالله! أين هم؟ كيف هم؟ ما حقيقتهم؟" . إنه طلب للبرهان الذي لا يستطيعون تقديمه، مما يكشف كذب زعمهم، ويثبت أن الأمر ليس كما يظنون، بل الله هو الإله الحق.
موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

هذه الآية تأتي في سياق متصل من الحجاج والمحاجة مع المشركين. فبعد أن بينت الآيات السابقة (24-26) أسلوب الحوار المنصف، وتفويض الأمر إلى الله، تعود الآية هنا إلى صلب الموضوع وجوهر الخلاف: قضية الشركاء. وكأن الله يقول لنبيه: "بعد كل هذه البراهين العقلية، طالبهم بالدليل المادي. قل لهم: أروني هؤلاء الشركاء!". وهذا الانتقال من الحوار المنطقي إلى التحدي الحسي هو انتقال طبيعي في مسار الإقناع؛ حيث يُنتقل من التجريد إلى المحسوس ليكون أوقع في النفس وأبلغ في ا لإفحام.
الأمر الأول:
التحدي بالبرهان الحسي (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ المقطع بالأمر الإلهي: ﴿قُلْ أَرُونِيَ﴾. وهذا الأمر يحمل في طياته قوة اليقين ورباطة الجأش. ف النبي ﷺ مأمور من الله أن يطالبهم بالدليل المادي.

· دلالة الفعل) أَرُونِي(:
طلب الرؤية البصرية .فكأنه يقول: "إن كنتم صادقين في أن لله شركاء، فهاتوهم لأراهم بعيني!" . وهذا طلب مستحيل، لأن هذه الآلهة المزعومة إما جمادات لا تنطق، أو بشر قد ماتوا، أو ملائكة في السماء لا ترى .فطلب الرؤية هنا هو إفحام عملي، يجعلهم يعترفون بعجزهم دون حاجة إلى جدال طويل.
· دلالة) الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ(:
· "أَلْحَقْتُم": هذا الفعل يدل على أنهم هم الذين ألحقوا وأضافوا هؤلاء الشركاء من عند أنفسهم، وليس أن الله جعلهم شركاء .فالشرك أمر محدث ومختلق من قبل البشر، وليس حقيقة ثابتة في الكون .فالله لم يجعل معه شريكاً، بل هم الذين زعموا ذلك كذباً وبهتاناً.
· "بِهِ": أي بالله .فهؤلاء الشركاء ملحقون بالله في العبادة أو في الملك، مع أنهم ليسوا كذلك.
· "شُرَكَاءَ": نكرة للتحقير .فهم شركاء مزعومون لا حقيقة لهم.
· اللمسة البيانية في الجمع بين الإلحاق والشركة:
الآية تجمع بين معنيين: أنهم ألحقوا هؤلاء بالله، وأنهم جعلوهم شركاء له .وهذا إبطال للشرك من أساسه .فالله واحد أحد، لا شريك له، فكل من ألحق به شريكاً فقد افترى كذباً.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· ادعاء ملكية باطلة: شخص يدعي ملكية قطعة أرض ليست له، فيقول له القاضي: "أرني صك الملكية!" .فإذا عجز، انكشف كذبه .هكذا حال المشركين، يدعون شركاء لله، فيطالبهم الله بالدليل، فيعجزون.
· اختراع وهمي: عالم يدعي اكتشاف كوكب جديد، فيطلب منه المجتمع العلمي: "أرنا صورته أو دليله!" .فإن عجز، سقطت دعواه .شركاء المشركين أوهام لا دليل عليها.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. قوة المطالبة بالدليل: هذه الآية تعلمنا في حواراتنا ألا نقبل الدعاوى بدون برهان .فمن يدعي شيئاً، فعليه إثباته.
2. بطلان الشرك بالحس والمشاهدة: الشرك لا يثبت أمام أي دليل حسي أو عقلي .فهو مجرد أوهام وظنون.
3. فضح عجز المبطلين: أسلوب التحدي هذا يفضح عجز المدعين، ويجعلهم يخجلون من معتقدهم.

الأمر الثاني:
الردع والزجر (كلا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد الأمر بالتحدي، تأتي كلمة واحدة تحمل معاني كثيرة: ﴿كلا﴾.

· دلالة) كلا(:
"كلا" حرف ردع وزجر، ومعناها: ليس الأمر كما تزعمون! إنها نفي قاطع وردع عن الاستمرار في هذا الزعم الباطل .فهي تفيد أن ما ادعوه من أن لله شركاء هو كذب محض، ويجب أن ينتهوا عن هذا القول فوراً .وهي أيضاً قطع لأي أمل في أن يجدوا دليلا ً أو أن يكون لشركائهم وجود حقيقي.
· اللمسة البيانية) الاختصار والإعجاز(:
اختيار "كلا" هنا بدل جملة طويلة مثل "ليس لله شركاء" أو "كذبتم"، فيه إعجاز بلاغي .فالكلمة الواحدة تؤدي معنى الردع والنفي والزجر بقوة واختصار مذهلين .وهي تنبيه قوي للسامع ليتوقف عن غيه وضلاله.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الحزم في مواجهة الباطل: في بعض الأحيان، يجب أن يكون الموقف حازماً ورادعاً .بعد أن عرضت الحجة، يأتي الردع لمن لا يقتنع.
2. قطع الطريق على الشبهات: "كلا" تغلق الباب أمام أي جدال عقيم، وتعلن أن الأمر محسوم.
3. تنبيه الغافلين: هي صرخة في وجه الغارقين في أوهامهم، تهدف إلى إيقاظهم.
الأمر الثالث:
إثبات الحقيقة الإلهية (بَلْ هُوَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد نفي الباطل وردع أهله، يأتي إثبات الحق الذي لا مرية فيه: ﴿بَلْ هُوَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

· دلالة) بَلْ(:
"بل" للإضراب الانتقالي، أي للانتقال من بيان بطلان قولهم إلى بيان الحق الثابت .فبعد أن قال "كلا" أي ليس كما تزعمون، قال "بل" أي لكن الحق هو كذا.
· دلالة) هُوَ اللهُ(:
هذا قصر وحصر .فالله وحده هو المستحق للألوهية، لا شريك له .وهو الإله الحق.
· دلالة وصفه بـ) العَزِيزُ الحَكِيمُ(:
اختيار هذين الاسمين الجليلين في هذا المقام له دلالة عظيمة:
· العزيز: الغالب القوي الذي لا يُغلب، العزيز الذي لا يذل من استمسك به .فالله عزيز، فكيف يكون له شركاء أذلاء عاجزون؟! إن عزة الله تأبى أن يكون له شريك.
· الحكيم: الذي يضع الأمور في مواضعها .وهو حكيم في تدبيره لخلقه، وحكيم في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وحكيم في إمهال المشركين ثم أخذهم.
· الربط بين الوصفين: هو العزيز في انتقامه من المشركين، الحكيم في إمهاله لهم .هو العزيز الذي لا يحتاج إلى شريك، الحكيم الذي لا يليق به أن يتخذ شريكاً.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تعظيم الله في القلوب: ختم الآية بهذين الاسمين يزرع في القلب هيبة الله وعظمته، ويجعله يستصغر كل ما سواه.
2. اليقين بعدالة الله وحكمته: إذا كان الله هو العزيز الحكيم، فكل ما يحدث في الكون هو بعزته وحكمته .فاطمئن.
3. التوكل على العزيز الحكيم: في مواجهة الباطل وأهله، يكفي المؤمن أن يعلم أن الله هو العزيز الحكيم .فهو ينصره بعزته، ويدبر أمره بحكمته.
الأمر الرابع
أبعاد الآية وقيمها وأفاقها التربوية والعملية

أولا ً: الأبعاد العقدية والفكرية:

· إبطال الشرك بالمطالبة بالدليل الحسي.
· إثبات أن الشرك أمر محدث من البشر وليس حقيقة كونية.

· تقرير وحدانية الله واختصاصه بصفات الكمال) العزيز الحكيم.(

ثانياً: الأبعاد النفسية والوجدانية:

· غرس الثقة بالحق وعدم الخوف من الباطل.
· تحرير النفس من الأوهام والخرافات.
· بث الطمأنينة بأن الله هو العزيز الحكيم الذي يدبر الأمر.

ثالثاً: القيم التي تدعو إليها الآية:

· قيمة طلب البرهان وعدم قبول الدعاوى بدون دليل.
· قيمة الجرأة في الحق ومواجهة الباطل.
· قيمة الاعتماد على الله العزيز الحكيم.

الأمر الخامس

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

.1سؤال الدليل: عندما أتبنى فكرة أو معتقداً، هل لدي دليل عقلي أو حسي عليه؟ أم أني أقلد الآ خرين بدون برهان؟
.2سؤال الألحاق: هل هناك في حياتي شيء "ألحقته" بالله؟) مثل التعلق المفرط بالأسباب، أو الخوف من مخلوق أكثر من الخوف من الله .(كيف أتخلص من هذا الإلحاق الباطل؟
.3سؤال العزة والحكمة: عندما تواجهني مشكلة، هل أستشعر أن الله "العزيز" قادر على حلها، وأنه "الحكيم" في تأخير حلها؟ هل هذا يمنحني الصبر والرضا؟
.4سؤال التحدي: هل لدي الجرأة أن أتحدى الباطل وأطالب أهله بالدليل، كما أمر الله نبيه؟ أم أني أهاب المواجهة؟

الأمر السادس

كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

.١في مواجهة الشبهات الفكرية:

· التطبيق: إذا واجهت شبهة حول دينك، لا ترتبك .طبق هذه الآية .قل لنفسك: "ما الدليل على هذه الشبهة؟ أروني برهانها!" .وستجد أن معظم الشبهات أوهام لا دليل عليها .ثم قل: "بل هو الله العزيز الحكيم"، واثبت على يقينك.

.٢في تربية العقل الناقد:

· التطبيق: درب نفسك وأبناءك على عدم قبول أي خبر أو دعوى بدون دليل .علمهم أن يسألوا: "ما الدليل؟" .هذه الآية أصل في المنهج العلمي النقدي.

.٣في التعامل مع الموروثات الخاطئة:

· التطبيق: بعض العادات والتقاليد قد تكون مخالفة للشرع، والناس يتبعونها بدون تفكير .هذه الآية تعلمنا أن نطالب بالدليل: "أروني دليلا ً من الشرع على هذا الفعل!" .فإن لم يوجد، فهو من "الذين ألحقتم".

.٤في تقوية الصلة بالله:

· التطبيق: كلما ضعفت أو شعرت بضغط الحياة، ردد اسمي "العزيز الحكيم" .فالعزيز يعطيك القوة، و الحكيم يمنحك الطمأنينة بأن كل ما يحدث هو بتدبير حكيم.

الأمر السابع

دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان ناقد بصير: لا يقبل الدعاوى بدون برهان.
· إنسان جريء في الحق: لا يهاب مواجهة الباطل.

· إنسان مطمئن: يؤمن بأن الله هو العزيز الحكيم، فيتوكل عليه.

٢.في بناء المجتمع:

· مجتمع العلم والبرهان: يقوم على الأدلة والحجج، لا على الخرافات والأوهام.
· مجتمع قوي: لأن أفراده يستمدون قوتهم من الله العزيز.
· مجتمع حكيم: لأن أفراده يتصفون بالحكمة في أقوالهم وأفعالهم، اقتداء بالله الحكيم.

٣.في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة التوحيد الخالص: تنفي كل شريك عن الله، في العقيدة والشريعة والحكم.
· دولة البرهان والقوة: دولة تقوم على الحجة والبرهان في دعوتها، وعلى العزة والحكمة في سياستها . فهي عزيزة بدينها، حكيمة في تدبيرها، لأنها تستمد ذلك من الله العزيز الحكيم.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، بهذه الآية الكريمة، نكون قد وصلنا إلى ذروة البرهان على بطلان الشرك. لقد طالبنا الله أن نقول للمشركين: "أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ" . وحين يعجزون، نعلنها مدوية: "كلا" . ليس الأ مر كما تزعمون! ثم نثبت الحقيقة الناصعة: "بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" .

فطهّر قلبك من كل شائبة شرك، كبيرها وصغيرها، جليها وخفيها. واجعل يقينك بالله وحده. وتحدى كل باطل يواجهك، وطالب أهله بالدليل. وثق بأن الله العزيز الحكيم هو حسبك ونعم الوكيل.
رابعا
أيها الباحث عن الحقيقة، أيها المتطلع إلى فهم رسالة هذا الدين العظيم، أيها المتسائل عن سر عالمية الإسلام وخلوده، تعال بنا نقف مع ثلاث آيات كريمات من سورة سبأ، تشكل مجتمعة إعلاناً عالمياً وبياناً ختامياً لمهمة النبي ﷺ. إنها آيات تجيب عن أسئلة محورية: ما هي مهمة محمد ﷺ؟ لمن أرسل؟ وما هي حقيقة استعجال المشركين للعذاب؟ ومتى يقع وعد الله؟ إنها آيات تزرع اليقين في قلب المؤمن، وتقيم الحجة على الكافر، وتكشف عن قانون إلهي ثابت: لكل أجل كتاب.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يخاطب نبيه ويوجهه إلى هذه الحقائق العظيمة:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]
﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: 29]
﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: 30]

هذه الآيات الثلاث تنتقل بنا من إعلان المهمة (الآية 28)، إلى تسجيل الاعتراض (الآية 29)، إلى الجواب الحاسم (الآية 30). إنها رحلة إيمانية قصيرة لكنها عميقة، تكشف لنا عن حقيقة الرسالة، وعن نفسية المكذبين، وعن عدل الله المطلق في تحديد الآجال.
**
موقع الآيات في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

بعد أن تحدى الله المشركين في الآيات السابقة (22-27) وأفحمهم بالحجج والبراهين على بطلان شركهم، يأتي هذا المقطع ليعلن الغاية الكبرى من إرسال النبي ﷺ، وهي البلاغ العام لكل الناس. فكأن الآيات السابقة كانت تمهيداً لهذا الإعلان العالمي: "لقد أرسلناك بهذا الحق الذي بيناه لتكون بشيراً ونذيراً للناس أجمعين". ثم تعرض الآيات رد فعل المشركين على هذا الإنذار، وهو الاستهزاء واستعجال العذاب، لترد عليهم بأن لله موعداً محدداً لا يتقدم ولا يتأخر. وهكذا تكتمل دائرة البيان والإنذار و الرد.
الأمر الأول: عالمية الرسالة المحمدية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بأسلوب الحصر والقصر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾. وهذا الأسلوب يفيد أن مهمة النبي ﷺ محددة وواضحة، وليست عامة فحسب، بل هي مقصورة على هذا الوصف العظيم.

· دلالة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا):
"ما" و"إلا" أداة حصر. فالمعنى: ما أرسلناك يا محمد إلا لهذا الغرض العظيم، ولأجل هذه المهمة الجليلة. وهذا تكريم للنبي ﷺ، وبيان لعظمة مهمته.

· دلالة (كافَّةً لِلنَّاس):
"كافة" حال من الضمير "الكاف" في "أرسلناك"، أو من "الناس". ومعناها: عامة لجميع الناس، لا تخص قوماً دون قوم، ولا زماناً دون زمان. فرسالته ﷺ للناس كافة: عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم، أحمرهم وأسودهم، في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة. وهذه هي عالمية الإسلام التي تميزه عن الرسالات السابقة التي كانت خاصة بأقوام معينين. قال ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».
· دلالة (بَشِيرًا وَنَذِيرًا):
هاتان الصفتان تلخصان وظيفة النبي ﷺ:
· بشيراً: يبشر المؤمنين بالجنة والثواب والرضوان.
· نذيراً: ينذر الكافرين والعصاة بالنار والعقاب.
وهذا يعني أن رسالته قائمة على الترغيب والترهيب، وكلاهما ضروري لهداية البشر. فالنفس البشرية تحتاج إلى من يبشرها لتقبل، وإلى من ينذرها لتحذر.
· دلالة الاستدراك (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ):
بعد هذا الإعلان العظيم عن عالمية رسالته ووضوح مهمته، يأتي الاستدراك المحزن. أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة! فهم لا يعلمون أن محمداً ﷺ مرسل إليهم، أو لا يعلمون عظمة رسالته، أو لا يعلمون ما فيها من خير لهم. وهذا الجهل هو سبب إعراضهم وتكذيبهم.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· رئيس شركة عالمية: تخيل أن رئيس شركة عالمية يرسل تعميماً إلى جميع فروع الشركة في العالم، يعلن فيه عن مكافآت عظيمة للملتزمين وعقوبات للمخالفين. لكن معظم الموظفين لا يقرؤون التعميم، أو لا يصدقونه. هذا حال أكثر الناس مع رسالة النبي ﷺ.
· إعلان حكومي مهم: حكومة تصدر إعلاناً مهماً يخص جميع المواطنين، فيه بشارات ونذر. لكن الأ كثرية لا يتابعون الأخبار ولا يعلمون! هذا جهلهم الذي يضرهم.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. شرف الانتماء لأمة محمد ﷺ: هذه الآية تذكرنا بأننا من أمة عالمية، أرسل إليها خاتم الأنبياء. وهذا شرف عظيم يستوجب الشكر والاعتزاز.
2. مسؤولية التبليغ: إذا كان النبي ﷺ مرسلا ً للناس كافة، فنحن ورثته في التبليغ. فعلينا أن نبلغ رسالته إلى العالم بكل الوسائل الممكنة.
3. العلم قبل العمل: سبب ضلال أكثر الناس هو الجهل. فعلينا أن نتعلم ديننا، ونعلمه غيرنا، لنكون من القلة العالمين لا من الأكثرية الجاهلة.
الامر الثاني: تسجيل استعجال المشركين للعذاب (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن بينت الآية الأولى مهمة النبي ﷺ كبشير ونذير، تأتي هذه الآية لتسجل رد فعل المكذبين على إنذاره. إنهم لا يكتفون بالتكذيب، بل يستهزئون ويستعجلون العذاب.

· دلالة (وَيَقُولُونَ):
الفعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد. فهم دائمًا يرددون هذا السؤال الاستهزائي.
· دلالة (مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ):
استفهام عن الزمان. "هذا الوعد" أي وعد البعث والعذاب الذي تنذروننا به. فهم يسألون: "متى سيأتي هذا العذاب الذي تخوفوننا به؟" . وسؤالهم هذا ليس طلباً للهداية، بل هو استهزاء وتكذيب واستبعاد. كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: 18].
· دلالة (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ):
هذا شرط فيه تحدي وتشكيك في صدق النبي ﷺ والمؤمنين. فهم يربطون صدقهم بتحقيق هذا الوعد في الحال. وهذا منتهى الجهل والعناد.
· اللمسة البيانية في كلمة (الْوَعْدُ):
أصل الوعد يستعمل في الخير والشر، لكنه هنا للوعيد والعذاب. وسماه "وعداً" لأن الله وعد به، ووعده حق لا يتخلف. لكن المشركين لجهلهم لا يرونه إلا تهديداً فارغاً.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المستهتر بقوانين المرور: شرطي يقول لسائق متهور: "ستتعرض لحادث إن لم تلتزم بالسرعة!". فيرد السائق ساخراً: "متى سيقع هذا الحادث؟ أرني إياه!". هذا هو منطق المشركين تماماً.
· المريض الذي ينكر خطورة مرضه: طبيب يقول لمريض مدخن: "ستصاب بسرطان الرئة إن لم تقلع عن التدخين!". فيرد المريض: "متى؟ أنا منذ سنوات أدخن ولم أصب بشيء!". هذا الاستعجال والا ستهتار هو عين الجهل.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. عدم استعجال النتائج: المؤمن لا يستعجل وعد الله. قد يتأخر العذاب أو النصر لحكمة. فعلينا الصبر واليقين بأن وعد الله آتٍ لا محالة.
2. الحذر من الاستهزاء بآيات الله: هذا السؤال "متى هذا الوعد" هو استهزاء. فعلينا أن نعظم شعائر الله، ولا نستعجل وقوع العذاب.
3. فهم نفسية المكذبين: هذا الأسلوب (الاستعجال والاستهزاء) هو سلاح الضعفاء الذين لا يملكون حجة. فلا نتعجب منه، بل نصبر ونمضي في طريقنا.
الأمر الثالث:
الجواب الحاسم عن موعد الوعد (قل لكم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تسْتَأخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تسْتَقدِمُونَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن حكى الله سؤالهم الاستهزائي، يأمر نبيه ﷺ أن يجيبهم بهذا الجواب الذي يقطع كل جدال، ويزرع في القلب الهيبة والخوف.

· دلالة (قل):
أمر إلهي للنبي ﷺ بأن يرد عليهم بهذا الجواب المحدد.
· دلالة (لكم مِّيعَادُ يَوْمٍ):
الجواب لم يحدد تاريخاً معيناً، لأن علمه عند الله. ولكنه أكد حقيقة ثابتة: هناك موعد محدد ومعلوم عند الله. "ميعاد" من الوعد، وهو الزمن المحدد لوقوع الشيء. و"يوم" نكرة للتعظيم والتهويل، فهو يوم عظيم لا يعلم وصفه إلا الله. فالجواب مبهم في تعيينه، محدد في وقوعه. وهذا هو عين البلاغة والحكمة.
· دلالة (لا تسْتَأخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تسْتَقدِمُونَ):
هذا هو قانون الأجل الإلهي. إذا جاء ذلك اليوم الموعود، فلن تستطيعوا تأخيره أبداً ولو للحظة واحدة (ساعة)، ولن تستطيعوا تقديمه. فالموعد محدد بدقة متناهية في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر. وهذا رد على استعجالهم: فاستعجالكم لن يقدمه، كما أن أمانيكم لن تؤخره. إنه آتٍ في وقته المحدد تماماً.
· اللمسة البيانية في (سَاعَةً):
"ساعة" هنا بمعنى القليل من الزمن. وهي مبالغة في نفي التأخير والتقديم. فحتى أقل وحدة زمنية لا يملكون التحكم فيها. وهذا يصور عجزهم المطلق، وقدرة الله الكاملة.
· الربط بين الآيات الثلاث:
· الآية 28: إعلان عالمية الرسالة ووظيفة النبي.
· الآية 29: اعتراض المشركين واستعجالهم العذاب.
· الآية 30: الجواب الحاسم بأن لله موعداً لا يتقدم ولا يتأخر.
وهكذا نرى أن الجواب لم يكن بتحديد تاريخ، بل بتقرير حقيقة الأجل المحتوم. وهذا الجواب ينسحب على كل وعيد في القرآن: البعث، عذاب الآخرة، العقوبات الدنيوية. فكلها لها موعد عند الله لا يعلمه إلا هو.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· موعد الامتحان النهائي: طلاب يسألون الأستاذ: "متى الامتحان؟" فيقول: "الموعد محدد في جدول الامتحانات، ولن يتغير. لا يمكنكم تقديمه ولا تأخيره". هكذا موعد يوم القيامة محدد في علم الله.
· موعد انطلاق الطائرة: مسافر يستعجل انطلاق الطائرة، فيقال له: "الطائرة ستقلع في موعدها المحدد بدقة، لا تستطيع تقديمه ولا تأخيره". هكذا مواعيد الله لا تتغير.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الطمأنينة واليقين: هذه الآية تريح قلب المؤمن. فالنصر والفرج لهما موعد عند الله، لا يتقدمان ولا يتأخران. فلا داعي للقلق والاستعجال.
2. الخوف من بغتة العذاب: الكافرون لا يدرون متى يأتيهم العذاب، وقد يأتيهم بغتة وهم في غفلتهم. وهذا يجب أن يملأ قلب المؤمن خشية من الله، فيكون دائماً على استعداد.
3. عدم الاغترار بالإمهال: إمهال الله للظالمين لا يعني نجاتهم، بل هو استدراج حتى يأتي الموعد المحدد. فلا نغتر بتأخر العقوبة.
4. قيمة الوقت: إذا كان موعد الله لا يتقدم ولا يتأخر، فعلينا أن نستغل كل لحظة في أعمارنا، لأ نا لا ندري متى ينتهي أجلنا المحدد.
الأمر الرابع
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1. سؤال عالمية الرسالة: هل أستشعر أنني مخاطب برسالة النبي ﷺ كما خوطب بها الصحابة؟ كيف يؤثر هذا الاستشعار على التزامي بالإسلام؟
2. سؤال التبليغ: هل أقوم بواجبي في تبليغ هذه الرسالة العالمية لمن حولي؟ ما هي الوسائل التي أستخدمها؟
3. سؤال البشارة والنذارة: هل أقرأ القرآن وأسمع الأحاديث باعتبارها "بشارة" لي و"نذارة"؟ أم أني أقرؤها كأي كلام؟
4. سؤال الجهل: هل أنا من "أكثر الناس الذين لا يعلمون"؟ كيف أزيد من علمي الشرعي لأخرج من هذه الأكثرية؟
5. سؤال استعجال الوعد: هل أستعجل الإجابة لدعائي، أو النصر لأمتي، أو العقوبة للظالمين؟ كيف تريحني هذه الآية وتعلمني الصبر؟
6. سؤال الأجل المحدد: إذا كان عمري له ميعاد يوم لا أستأخر عنه ساعة ولا أستقدم، فكيف أخطط ليومي وحياتي؟

الأمر الخامس

كيف تتحول الآيات إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

١. في نشر الإسلام:

· التطبيق: بما أن الرسالة عالمية، فكر في مشروع صغير لنشر الإسلام: ترجمة معاني قرآنية، دعم مواقع إسلامية بلغات أجنبية، دعوة زميل غير مسلم بلطف.

٢. في الصبر وعدم الاستعجال:

· التطبيق: عندما تدعو الله وتستبطئ الإجابة، أو ترى ظلماً وتستعجل زواله، تذكر: ﴿لَكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾. فوض الأمر لله، واطمئن.

٣. في اغتنام الوقت:

· التطبيق: عمرك ميعاد يوم. لا تدري متى ينتهي. فاملأ كل ساعة بعمل صالح. خطط ليومك، ولا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.

٤. في الدعوة بالحكمة:

· التطبيق: استخدم أسلوب "البشارة والنذارة" في دعوتك. بشّر الناس برحمة الله، وأنذرهم عقابه. امزج الترغيب بالترهيب، فذلك أقرب إلى القلوب.

٥. في التعامل مع المستهزئين:

· التطبيق: إذا سخر أحد من وعيد الله أو وعد الآخرة، فلا تنزعج. هذا دأب المكذبين عبر التاريخ. رد عليه بهدوء: ﴿لَكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ...﴾، وامضِ في طريقك.

الأمر السادس

دور الآيات في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان عالمي الأفق: يشعر أنه جزء من أمة عالمية، فيحمل هموم المسلمين في كل مكان.
· إنسان صبور: لا يستعجل النتائج، ويثق في مواعيد الله.
· إنسان مستثمر لوقته: يعلم أن لكل أجل كتاباً، فيغتنم كل لحظة.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع داعية: كل فرد فيه يشعر بمسؤولية تبليغ الإسلام للعالم.
· مجتمع متوازن: يجمع بين الرجاء (بالبشارة) والخوف (بالنذارة).
· مجتمع صبور محتسب: لا يجزع من تأخر النصر، ولا ييأس من استطالة البلاء.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة عالمية: الإسلام دين عالمي، والحضارة الإسلامية قامت على هذا الأساس، فاستوعبت كل الأمم والأعراق.
· دولة القانون الإلهي: تؤمن بأن الله حدد لكل شيء قدراً، فتخطط وتعمر، وتفوض الأمر إلى الله في النتائج.
· دولة الأمل والصبر: لا تنهار أمام الأزمات، لأنها تعلم أن لكل أزمة موعداً للانتهاء، ولكل ليل صبحاً.
خاتمة وجدانية:-

أيها القارئ الكريم، بهذه الآيات الثلاث، نكون قد أكملنا مشهداً عظيماً من مشاهد السورة الكريمة. لقد أعلن الله لك أن نبيه محمداً ﷺ لم يرسل لقومه فقط، بل لكل الناس، في كل زمان ومكان. أرسله بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين. لكن أكثر الناس لجهلهم لا يعلمون قدر هذه الرسالة، فيعرضون عنها، بل ويستهزئون بوعد الله، ويستعجلون العذاب. وهنا يأتيهم الجواب الحاسم: لا تستعجلوا، فلكل شيء موعد محدد عند الله، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر.

فأين أنت من هذه الرسالة العالمية؟ هل أنت من القلة العالمين الذين يستجيبون للبشارة والنذارة؟ أم أنت من الأكثرية الجاهلة الغافلة؟

استيقظ من غفلتك. أدرك أنك مخاطب بهذا القرآن. آمن برسالة محمد ﷺ. بادر إلى العمل الصالح. و لا تستعجل وعد الله، فإنه آتٍ لا محالة. فاستعد ليوم الميعاد، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.
القسم الثاني
اولا
أيها العقل الباحث عن الحق، أيها القلب المتعطش إلى النجاة، لقد طوفنا معًا في رحاب سورة سبأ، فرأينا آيات الملك والحمد، وآيات العلم والقدرة، وآيات التوحيد والتحدي. والآن، نقف مع آية كريمة تنقلنا من مشهد الدنيا وضجيجها، إلى مشهد الآخرة وصمتها المهيب. إنها الآية التي ترفع الستار عن حقيقة الصراع بين الضعفاء والمستكبرين، وتكشف لنا عن جذور الضلال وأصل البلاء. إنها تحذير إلهي صارخ لكل من يسير خلف القادة والزعماء بلا بصيرة، ولكل من يتكبر عن الحق فيصد الناس عنه.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يرسم لنا هذا المشهد العجيب الذي يمزج بين الحاضر والمستقبل، وبين الدنيا والآخرة:
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31].

هذه الآية الكريمة تصور لنا مشهدين عظيمين:
الأول: مشهد في الدنيا، حيث يقف الكافرون بكل عناد وكبر، يعلنون رفضهم القاطع للإيمان بالقرآن وبكل ما سبقه من الكتب السماوية.
الثاني: مشهد في الآخرة، حيث يقف هؤلاء الظالمون موقوفين بين يدي ربهم للحساب، فإذا بهم يتلاومون ويتخاصمون، وتنكشف الحقائق، ويندم الضعفاء على اتباعهم للمستكبرين، ويعترفون بأنهم كانوا سبب ضلالهم.

إنها آية تكشف لنا أن الكبر والعناد هما الحجاب الذي يحجب القلوب عن رؤية الحق، وأن التبعية العمياء للكبراء والزعماء هي الطريق المباشر إلى الندامة والخسران. إنها تدعونا إلى أن نتحرر من كل سلطة فكرية أو اجتماعية تمنعنا عن قبول الحق، وأن نكون عبادًا لله وحده، لا عبيدًا للبشر.
**
موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها
بعد أن أعلنت الآيات السابقة عالمية رسالة النبي ﷺ (آية 28)، وسجلت استعجال المشركين للعذاب (آية 29)، وأجابتهم بأن الموعد محدد لا يتقدم ولا يتأخر (آية 30)، تأتي هذه الآية لتصور الإصرار و العناد الذي كانوا عليه في الدنيا، ثم تنقلنا إلى مشهد العقاب والندامة في الآخرة، ليكون ذلك عبرة وتحذيرًا لنا. فكأن الآيات تقول: "إنهم لم يكتفوا بالتكذيب والاستعجال، بل أعلنوا رفضهم القاطع، فانظر ماذا سيكون مصيرهم يوم القيامة!".

وهذا الربط بين الموقف الدنيوي والمصير الأخروي هو أسلوب قرآني بديع يهدف إلى زعزعة اليقين الباطل في قلوب المكذبين، وإلى ترسيخ اليقين الحق في قلوب المؤمنين.
الأمر الأول

إعلان الكفر والعناد في الدنيا (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ المشهد بتصوير موقف الكافرين في الدنيا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

· دلالة) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا(:
لاحظ أن الآية لم تقل "وقال المشركون" أو "المنافقون"، بل "الَّذِينَ كَفَرُوا" . وهذا الوصف يربط رفضهم للإيمان بصفة الكفر التي استقرت في قلوبهم .فسبب رفضهم ليس نقصًا في الأدلة، بل مرض الكفر الذي أعمى بصائرهم.
· دلالة القسم) لَن نُّؤْمِنَ(:
"لن" للنفي المؤبد في المستقبل .فهم لا يقولون: "لا نؤمن الآن" فحسب، بل يقطعون على أنفسهم عهدًا بألا يؤمنوا أبدًا .هذا هو العناد والإصرار الذي لا يقبل المساومة .إنهم يغلقون على أنفسهم كل أبواب الهداية باختيارهم.
· دلالة) بِهَٰذَا الْقُرْآنِ(:
إشارة إلى القرآن الكريم، الذي يتلى عليهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله .ورغم ذلك يرفضونه.
· دلالة) وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ(:
أي ولا بالكتب السماوية التي سبقت القرآن، كالتوراة والإنجيل .فهم يرفضون الإيمان بالقرآن، ويرفضون الإيمان بكل ما سبقه من الوحي الإلهي .وهذا يدل على أن مشكلتهم ليست مع القرآن فقط ، بل مع أصل الإيمان بالرسالات السماوية كلها .إنهم يرفضون جنس الوحي والهداية الإلهية.
· الكبر والعناد كسبب لرفض الحق:
لماذا يرفضون كل هذه الأدلة الواضحة؟ الجواب: الكبر والعناد .فالإيمان يتطلب خضوعًا وانقيادًا، وهم يأبون ذلك .قال تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: .[14 فهم يعرفون الحق في أعماقهم، ولكن الاستكبار يمنعهم من الإقرار به .إنهم يريدون أن يكونوا هم القادة و الزعماء، ولا يريدون أن يكونوا تبعًا لنبي.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المدير المتكبر: موظف يقدم فكرة رائعة تنقذ الشركة، لكن المدير يرفضها بكل عناد، ليس لأنها خاطئة، بل لأنه لم يطرحها هو! هذا هو الكبر الذي يمنع من قبول الحق.
· الأكاديمي المتعصب: عالم غربي يرى دلائل الإعجاز العلمي في القرآن، لكنه يرفض الإيمان، لأنه لو آمن لاعتُبر ذلك هزيمة لمدرسته الفكرية، ولفقد مكانته بين أقرانه .إنه الكبر والعناد.
· الشاب المقلد: شاب يرفض الالتزام بالصلاة، ليس لأنه غير مقتنع، بل لأن أصدقاءه يسخرون من الملتزمين! هذا عناد واتباع للهوى.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الخوف من العناد: هذه الآية تحذرنا من أن نكون مثل هؤلاء، نغلق قلوبنا أمام الحق ونصر على الباطل .فالعناد قد يؤدي إلى ختم القلب.
2. الحذر من الكبر: الكبر هو داء القلوب .من تواضع لله رفعه، ومن تكبر عن الحق أذله الله.
3. الانفتاح على الحق: كن مستعدًا دائمًا لمراجعة أفكارك وقناعاتك .لا تجعل الكبر أو الخوف من الناس يمنعك من قبول الحق.

الأمر الثاني:
الانتقال إلى مشهد الآخرة (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن صور عنادهم في الدنيا، ينتقل الخطاب إلى النبي ﷺ وإلى كل من يسمع القرآن، ليريهم المصير المنتظر لهؤلاء المستكبرين.

· دلالة) وَلَوْ تَرَىٰ(:
"لو" للتمني أو للتشويق .والمعنى: لو رأيت أيها السامع هذا المشهد العظيم، لرأيت أمرًا فظيعًا يهولك ويصعقك .إنها جملة تشويقية تثير الفضول والانتباه، وتجعل الذهن يتخيل الموقف ويتأثر به.
· دلالة) إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ(:
· "الظَّالِمُونَ": هنا وصف جديد لهم .في الدنيا كانوا "الذين كفروا"، وفي الآخرة هم "الظالمون" ، لأ نهم ظلموا أنفسهم بالكفر والعناد.
· "مَوْقُوفُونَ": أي محبوسون في موقف الحساب، لا يستطيعون الهرب ولا التقدم ولا التأخر .إنهم

في قبضة الله، أذلاء بعد أن كانوا في الدنيا مستكبرين.
· "عِندَ رَبِّهِمْ": هذا هو موطن الذل والخزي .فالرب الذي كفروا به وأنكروا نعمه، ها هم يقفون بين يديه للحساب .إنه مشهد مهيب يزرع الرهبة في القلوب.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
.1 تذكر الآخرة علاج للكبر والعناد: هذه الآية تأخذ بيدك إلى مشهد الآخرة، لتعلم أن لكل متكبر نهاية مذلة، ولكل معاند يوم حساب .تذكر هذا المشهد يلين القلب، ويدفع إلى التواضع وقبول الحق.
.2 الظلم عاقبته وخيمة: وصفهم بـ "الظالمون" في هذا الموقف يبين أن أصل كفرهم هو ظلمهم لأ نفسهم .فاحذر أن تظلم نفسك بالمعاصي والإصرار عليها.
الأمر الثالث:
مشهد التلاوم بين الضعفاء والمستكبرين (يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ القَوْلَ...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا تتجلى ذروة المشهد، وتظهر فيه العلاقة الحقيقية بين الأتباع والقادة التي كانت خفية في الدنيا.

· دلالة) يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ القَوْلَ(:
أي يتحاورون ويتلاومون، ويرد بعضهم على بعض .هذا الحوار يكشف عن تبادل الاتهامات بعد أن كانوا في الدنيا متحابين متعاونين على الباطل.
· دلالة قول المستضعفين) يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا(:
هنا يظهر الانقسام بين الفريقين:
· "الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا": هم الأتباع والضعفاء، الذين لم تكن لهم قوة ولا سلطان، فاتبعوا الكبراء خوفًا أو طمعًا .وفي القيادة: هم العامة الذين اتبعوا الزعماء.
· "الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا": هم القادة والزعماء والكبراء، الذين استعبدوا الضعفاء وأضلوهم عن سبيل الله.
· دلالة اعتراف المستضعفين) لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ(:
هذا هو اعترافهم وندمهم .إنهم يلقون باللوم كله على المستكبرين، قائلين: "أنتم السبب في كفرنا وضلالنا! لقد أضللتمونا عن الإيمان بعد أن كدنا نهتدي! لولا إغواؤكم لنا وصدكم إيانا، لكنا مؤمنين مصدقين!" . هذا المشهد يتكرر في القرآن: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾] الأحزاب: 67].
· الرسالة التحذيرية من طاعة السادة والكبراء:
هذا المشهد هو تحذير إلهي مباشر لكل مؤمن: لا تطع سادتك وكبراءك في معصية الله! .لا تكن من المستضعفين الذين سيقفون يوم القيامة يتحسرون على طاعتهم العمياء .إن طاعة البشر في معصية الخالق هي طريق الندامة والخسران .كما قال النبي ﷺ:» لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ.«
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المدير الفاسد وموظفوه: مدير يأمر موظفيه بالتزوير والغش .الموظفون يطيعونه خوفًا على وظائفهم .يوم القيامة، سيقولون: "لولا أنت لكنا أمناء!" .فهل هذا العذر ينفعهم؟
· زعيم القبيلة أو العائلة: كبير العائلة يمنع أبناءه من الصلاة أو من الحجاب بحجة العادات و التقاليد .يوم القيامة، ستقف الفتاة وتقول: "لولا أنت لكنت محجبة مؤمنة!".
· المشاهير والمؤثرون: مؤثر على وسائل التواصل يدعو إلى الإلحاد أو الفسق، ويتبعه الملايين .يوم القيامة، سيتبرأ هو منهم، وسيتلاومون جميعًا.
· اللمسة البيانية في التعبير بـ) اسْتُضْعِفُوا (و) اسْتَكْبَرُوا(:
استخدام صيغة المبني للمجهول في "استُضعفوا" يدل على أنهم كانوا مفعولا ً بهم، وأن هناك من استضعفهم وقهرهم .وهذا لا يعفيهم من المسؤولية، لأنهم اختاروا الطاعة في الباطل، ولكنه يبين أن اللوم الأكبر يقع على المستكبرين الذين أضلوهم.
الأمر الرابع:
كيف نتعامل مع هذه الآية في حياتنا؟

بعد هذا البيان، إليك الدروس العملية المستفادة من هذه الآية:

.١التحرر من الخوف من البشر:

· التطبيق: إذا أمرك رئيسك في العمل، أو أحد أقاربك، بفعل شيء يغضب الله، فلا تطعه .تذكر أنك ستقف وحدك أمام الله، ولن ينفعك قولك: "لولا أنت لكنت مؤمنًا" .كن شجاعًا في الحق.

.٢التثبت في اتباع القادة:

· التطبيق: لا تتبع أي قائد أو زعيم أو شيخ أو مؤثر بدون بصيرة .اسأل نفسك: "هل يدعوني إلى طاعة الله أم إلى معصيته؟" .قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾] الأحزاب:66 -.[67

.٣الحذر من الكبر:

· التطبيق: لا تكن من المستكبرين الذين يصدون الناس عن سبيل الله .إذا كنت في موقع قيادة أو تأثير، فكن سببًا في هداية الناس، لا في ضلالهم .واحذر أن يأتي يوم تتبرأ فيه من أتباعك ويتبرؤون منك.

.٤التوبة من الذنوب التي كانت بسبب اتباع الآخرين:

· التطبيق: فكر في حياتك الماضية .هل هناك معاصٍ كنت تفعلها إرضاءً لفلان أو خوفًا من علان؟ تب إلى الله منها، واعزم على عدم العودة إليها.

الأمر الخامس

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

.1سؤال العناد: هل هناك حق أعرفه وأرفضه بسبب عنادي أو كبريائي؟) مثل الاعتراف بالخطأ، أو قبول النصيحة .(كيف أتغلب على هذا العناد؟

.2سؤال التبعية: هل هناك أشخاص في حياتي) مدير، صديق، قريب (أطيعهم في معصية الله خوفًا أو طمعًا؟ كيف يمكنني فك هذا الارتباط بأدب وحكمة؟

.3سؤال التأثير: إذا كنت في موقع تأثير) أب، معلم، مدير، صاحب صفحة(، هل أستخدم تأثيري في دعوة الناس إلى الخير أم إلى الشر؟ ما هي مسؤوليتي أمام الله؟

.4سؤال الاستضعاف: هل أشعر أنني "مستضعف" أمام تيارات فكرية أو اجتماعية تمنعني من الالتزام الكامل بديني؟ كيف أستمد القوة من الله لأتغلب على هذا الاستضعاف؟

.5سؤال المشهد الأخروي: عندما أقرأ وصف "الظالمون موقوفون عند ربهم"، هل يتحرك قلبي خوفًا ورهبة؟ كيف أحول هذا الخوف إلى عمل صالح؟

الأمر الخامس

دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان حر: لا يستعبده أحد، بل هو عبد لله وحده.
· إنسان شجاع: لا يخاف في الحق لومة لائم.
· إنسان متواضع: لا يتكبر عن قبول الحق.
· إنسان مسؤول: يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع الحق والعدل: لا تسوده الطبقية القائمة على طاعة الكبراء في الباطل.
· مجتمع الشورى والبصيرة: يقوم على اتباع الدليل، لا على التبعية العمياء.
· مجتمع التكافل: يحمي المستضعفين من سطوة المستكبرين، ويعينهم على طاعة الله.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة التحرر من عبودية البشر: هذه الحضارة قامت على إعلان أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .وهذا هو سر قوتها وتحررها من كل قوى الطغيان.
· دولة القانون الإلهي: دولة التوحيد لا تعرف طاعة السادة والكبراء في مخالفة شرع الله، بل الجميع فيه سواسية أمام القانون الإلهي.
· دولة الشورى: نظام الحكم فيها قائم على الشورى واتباع الحق، وليس على الاستبداد واتباع الهوى.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد رأيت في هذه الآية كيف أن الكبر والعناد أوردا أصحابهما موارد الهلاك، وكيف أن التبعية العمياء للكبراء والزعماء انتهت بهم إلى الندامة والحسرة يوم القيامة. لقد رأيت الضعفاء وهم يلقون باللوم على المستكبرين، ولكن دون جدوى، فالكل في العذاب مشترك.

فلا تكن عبدًا لغير الله. لا تجعل الكبر يمنعك من قبول الحق. لا تجعل الخوف من الناس أو الطمع فيما عندهم يدفعك إلى معصية الله. كن عبدًا حرًا، لا يخضع إلا للحق، ولا يتبع إلا الدليل. وتذكر دائمًا ذلك الموقف المهيب: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ . واجعل هذا المشهد نصب عينيك، ليكون لك رادعًا عن الضلال، ودافعًا إلى الهدى.

ثانيا

أيها القلب الحي الذي يتفاعل مع آيات الله، أيها العقل الواعي الذي يبحث عن دروس الحياة، تعال بنا نواصل رحلتنا في رحاب سورة سبأ، ونقف مع آيتين كريمتين هما استكمال للمشهد المهيب الذي بدأناه في الآية السابقة. لقد رأينا هناك بداية التلاوم بين المستضعفين والمستكبرين، حيث ألقى الأتباع باللوم على قادتهم. والآن، نستمع إلى رد المستكبرين وإصرارهم على إنكار مسؤوليتهم، ثم إلى رد المستضعفين الذي يكشف حقيقة المكر الدائم والتخطيط الليلي النهاري لإضلالهم. وأخيرًا، نرى الندامة وقد ملأت القلوب، والأغلال وقد أحاطت بالأعناق، في مشهد يهز الوجدان ويوقظ الضمائر.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يكمل رسم هذه اللوحة الأخروية البديعة:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: 32]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 33].

هاتان الآيتان تقدمان لنا دراما إلهية كاملة الأركان: حوار، اتهام، إنكار، اعتراف، ندامة، عقاب. إنهما تكشفان لنا عن حقيقة الصراع بين الحق والباطل، وعن مصير كل فريق، وتدعوانا إلى أن نتعظ ونحن في زمن المهلة، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم.

**

موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن بدأت الآية (31) مشهد التلاوم بين الفريقين، تأتي هاتان الآيتان لتكملا الحوار، ثم لتختماه بـ المشهد الحسي للأغلال والندامة. وهذا هو أسلوب القرآن في القصص: ينتقل من مشهد إلى مشهد، ومن قول إلى قول، ليجعل القارئ يعيش الحدث ويتفاعل معه، وكأنه حاضر في ذلك الموقف العظيم. والغرض من كل ذلك هو العبرة والتأثير في النفس، لتحذر من الوقوع في مثل هذه المصائر.

الأمر الأول:

رد المستكبرين وإنكارهم للمسؤولية (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن ألقى المستضعفون باللوم على المستكبرين في الآية السابقة، يأتي هنا رد المستكبرين: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا...﴾.

· دلالة الاستفهام الإنكاري (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم):

المستكبرون لا يعترفون بذنبهم، بل ينكرون أن يكونوا هم السبب في ضلالهم. يسألون بإنكار واستنكار: "هل نحن الذين منعناكم من الهدى بعد أن جاءكم؟!" . إنهم يحاولون تبرئة أنفسهم، وإلقاء المسؤولية كاملة على الأتباع.

· دلالة (بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم):

هذا اعتراف ضمني من المستكبرين بأن الهدى قد جاءهم بالفعل. فهم يقولون: "الهدى قد جاءكم، فكيف نقول إننا صددناكم عنه؟!". وهذا يعني أن الرسل بلغتهم، والحجة قامت عليهم، فلماذا لم يتبعوا الهدى بأنفسهم؟

· دلالة (بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ):

بعد إنكارهم، يوجهون الاتهام مباشرة إلى المستضعفين: "بل أنتم الذين كنتم مجرمين باختياركم! إجرامكم هو الذي أرداكم، لا صدنا نحن لكم!" . وهذا تبرؤ كامل من المسؤولية، ورمي للتهمة على الآخرين. وهو نفس موقف إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22].

· تحليل نفسي للموقف:

هذا الحوار يكشف عن طبيعة العلاقة بين الظالم والمظلوم في الدنيا. في الدنيا، يتظاهر المستكبرون بالنصح والمحبة، ويغرون الأتباع بالشهوات والشبهات. وفي الآخرة، عندما يرون العذاب،

يتبرأ بعضهم من بعض، وينكرون أي تأثير لهم، في محاولة يائسة لتخفيف العذاب. ولكن هيهات!
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. لا تغتر بوعود المضلين: الذين يدعونك إلى المعاصي والكفر اليوم، سيتبرؤون منك غدًا. فلا تغتر بصداقتهم أو وعودهم.
2. تحمل مسؤولية اختيارك: الآية تؤكد أن المستضعفين ليسوا معذورين تمامًا. فالهدى قد جاءهم، ولكنهم اختاروا اتباع المستكبرين بإرادتهم. فلا تلقي باللوم كله على الآخرين، بل حاسب نفسك أولا ً.
3. خزي المستكبرين: هذا المشهد يفضح خزي المستكبرين وجبنهم، فهم في الدنيا كانوا قادة متكبرين، وفي الآخرة هم جبناء ينكرون أفعالهم.
الأمر الثاني:
رد المستضعفين وكشف حقيقة المكر (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هنا يرد المستضعفون ردًا يكشف حقيقة ما كان يحدث في الدنيا، ويفضح مكر المستكبرين الخفي.

· دلالة (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ):
هذا هو الرد القاطع على إنكار المستكبرين. "بل" للإضراب، أي ليس الأمر كما تقولون، بل الحقيقة هي أنكم مكرتم بنا ليلا ً ونهارًا. والمكر هو الخداع والكيد في الخفاء. ووصف المكر بأنه "مكر الليل والنهار" يدل على استمراره ودوامه، وأن حياتهم كلها كانت مكرًا وكيدًا بالمستضعفين.
· دلالة تفصيل المكر (إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا):
هذا هو جوهر المكر. لم يكن مجرد صد عن الهدى، بل كان أمرًا مباشرًا بالكفر والشرك. كانوا يأمرونهم ليل نهار بأن يكفروا بالله الواحد، ويجعلوا له آلهة أخرى تعبد من دونه. وهذا هو أعظم الظلم والضلال.
· اللمسة البيانية في (مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ):
التعبير بـ "مكر الليل والنهار" أبلغ من "مكر الليل والنهار" لأنه جعل الليل والنهار ظرفًا للمكر، أي أن المكر كان يملأ كل أوقاتهم. وهذا تصوير بديع لشدة إصرارهم على الإضلال، فهم لم يدعوا فرصة في ليل أو نهار إلا واستغلوها في إغواء أتباعهم.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. انتبه إلى المكر الخفي: أعداء الدين لا يأتون دائمًا بالحرب المعلنة، بل يستخدمون المكر والتدرج والوسوسة المستمرة. فكن يقظًا، ولا تنخدع بالشعارات البراقة.
2. المكر الدائم يتطلب يقظة دائمة: بما أن المكر كان "ليل نهار"، فعلينا أن نكون على حذر دائم، وأن نسلح أنفسنا وأبناءنا بالعلم والإيمان لنكشف هذا المكر.
3. كشف زيف قادة الضلال: هذا المشهد يكشف أن قادة الضلال لم يكونوا مجرد مضلين، بل كانوا مخططين ماكرين، يجتهدون في إضلال الناس بكل الوسائل.
الأمر الثالث:
الندامة والعذاب (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد هذا الحوار المحتدم، تأتي الخاتمة المحزنة التي تصور حالهم بعد أن رأوا العذاب.

· دلالة (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ):
أي أخفوا الندامة في قلوبهم. لماذا أخفوها؟ قيل: لشدة ما هم فيه من ذل وهوان، لم يعودوا قادرين حتى على إظهار الندم والصراخ. وقيل: أخفاها بعضهم عن بعض خجلا ً وحياءً من الاعتراف بالخطأ بعد ذلك الجدال. وقيل: هي ندامة في الباطن أشد من ندامة الظاهر. وفي كل الأحوال، هي ندامة لا تنفع، لأنها جاءت بعد فوات الأوان.
· دلالة (لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ):
الندامة جاءت بعد رؤية العذاب، وليس قبله. ففي الدنيا كانوا في غفلة وعناد، فلما رأوا حقيقة ما كانوا يكذبون به، ندموا. ولكن ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: 85].
· دلالة (وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا):
هذا هو المشهد الحسي للعذاب. الأغلال هي القيود الحديدية التي تجمع أيديهم إلى أعناقهم. وهذا المشهد فيه إذلال وإهانة لهم، جزاءً لاستكبارهم في الدنيا. وكأنها صورة حسية لمعنى أنهم كانوا في الدنيا أسرى لشهواتهم وطاعتهم العمياء للمستكبرين.
· دلالة الختام (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

استفهام تقريري، أي ما يجزون إلا جزاء أعمالهم. وهذا هو العدل الإلهي المطلق. لم يظلمهم الله، بل هم الذين ظلموا أنفسهم. فهذا الجزاء هو نتيجة طبيعية وحتمية لأعمالهم في الدنيا. إنها قاعدة العدل التي تحكم الكون.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. بادر بالتوبة قبل رؤية العذاب: الندامة بعد رؤية العذاب لا تنفع. فبادر الآن بالتوبة النصوح، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم.
2. الحرية الحقة في طاعة الله: الأغلال في الأعناق هي صورة للعبودية الحقيقية. فمن لم يكن عبدًا لله في الدنيا، سيكون أسيرًا في الآخرة. ومن كان عبدًا لله، نال الحرية الحقة.
3. اليقين بعدالة الله: كل ما يصيب الإنسان هو جزاء عمله. فاطمئن إلى عدل الله، ولا تظن أن شيئًا يضيع عنده.

الأمر الرابع : ماذا يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هاتين الآيتين؟ وكيف نفعل ذلك في واقعنا؟

بعد أن عرضنا تفاصيل هذا المشهد القرآني العظيم، لا بد أن نسأل أنفسنا: ما الذي يريده الله منا من خلال هذه الآيات؟ وكيف نحولها إلى برنامج عملي في حياتنا؟

أولا ً: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟

1. يريد منا أن نتعظ بهذا المشهد قبل وقوعه:

الله يعرض علينا مشهد الآخرة وكأننا نراه رأي العين، لنتأثر به ونحن في دار المهلة. إنه يريد أن تنخلع قلوبنا من الغفلة، ونحن نسمع حوار التلاوم، ونرى الأغلال في الأعناق. يريد أن نقول لأنفسنا: "لن أكون مثل هؤلاء!".

2. يريد منا أن نتحمل مسؤولية اختياراتنا:

الآيات تؤكد أن المستضعفين لم يكونوا معذورين، لأن الهدى قد جاءهم. الله يريد منا ألا نلقي ب اللوم على المجتمع، أو الأصدقاء، أو الإعلام، أو القادة. نعم، هناك مضلون، ولكن الاختيار النهائي بيدك أنت. يريد منا أن نكون أصحاب إرادة حرة، نختار الحق ونتبعه.

3. يريد منا أن نحذر من "مكر الليل والنهار":

هناك قوى ضالة تعمل ليل نهار لإضلالنا وإضلال أبنائنا. الله يريد منا أن نكون يقظين، نتعرف على أساليب هذا المكر (في الإعلام، في التعليم، في الفن، في وسائل التواصل)، ونحمي أنفسنا وأهلينا منه.

4. يريد منا أن نكون قادة خير لا قادة ضلال:

إذا كنا في موقع قيادة أو تأثير (أب، أم، معلم، مدير، داعية، صاحب منصة)، يريد الله منا أن نكون سببًا في هداية الناس، لا في ضلالهم. أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، لا أن نأمر بالكفر ونجعل لله أندادًا.

5. يريد منا أن نعيش على يقين من عدله:

ختام الآية ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يريد أن يزرع في قلوبنا الطمأنينة بأن الله عادل، وأنه لن يضيع أجر المحسنين، ولن يفلت المجرمون من عقابهم.

ثانيًا: كيف نفعل هذه المعاني في واقعنا؟ (تطبيقات عملية)

1. تمرين المراجعة اليومية للنفس:

في نهاية كل يوم، اسأل نفسك: "هل كنت اليوم من المستضعفين الذين اتبعوا غيرهم في الباطل؟ هل كنت من المستكبرين الذين أمروا غيرهم بمعصية الله؟". هذه المراجعة تجعلك متيقظًا دائمًا.

2. بناء مناعة فكرية ضد "مكر الليل والنهار":

خصص وقتًا أسبوعيًا لمناقشة أسرتك أو أصدقائك حول "محتوى إعلامي مضلل" أو "فكرة منحرفة" تروج لها وسائل التواصل. ناقش كيف تتعارض مع تعاليم الإسلام. هذا يبني مناعة فكرية.

3. استخدم تأثيرك في الخير:

إذا كنت أبًا، فاجعل من بيتك محضنًا للإيمان. إذا كنت معلمًا، فاغرس القيم في طلابك. إذا كنت ناشطًا على وسائل التواصل، فانشر الخير. كن سببًا في هداية الناس، لا في ضلالهم.

4. الدعاء بالثبات:

ألح على الله في الدعاء: "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" . فالشيطان وجنوده يتربصون بك ليل نهار، ولا يعصمك من مكرهم إلا الله.

5. التفكر في مشاهد الآخرة:

لا تجعل قراءة هذه الآيات مجرد عادة. توقف عندها، وتخيل نفسك في ذلك الموقف. هذا التفكر

يلين القلب، ويدفع إلى العمل الصالح.
الأمر الخامس : دور أسلوب القصة في التربية والتعليم، وكيف تؤثر فينا هذه المشاهد؟

القرآن الكريم معجزة في أسلوبه، ومن أعظم أساليبه التربوية أسلوب القصة. وهذا الأسلوب يتجلى في هاتين الآيتين بكل وضوح.

أولا ً: دور أسلوب القصة في التربية والتعليم:

1. جذب الانتباه والتشويق:
القصة بطبيعتها تشد انتباه السامع، وتجعله متلهفًا لمعرفة النهاية. القرآن يستخدم هذا الأسلوب ليجذب القلوب إلى آياته، فتراها مشدودة إلى الحوار بين المستضعفين والمستكبرين: ماذا سيقول هؤلا ء؟ وماذا سيرد أولئك؟
2. تحويل المعاني المجردة إلى صور حية:
معاني مثل "الكبر"، "الاستضعاف"، "المسؤولية"، "الندامة" هي معانٍ مجردة قد لا تؤثر في النفس. ولكن عندما تتحول إلى مشهد حي فيه شخصيات وحوار وأحداث، فإنها تصبح ملموسة، وتؤثر في النفس تأثيرًا بالغًا. فبدل أن تقول: "لا تطع الكبراء في الضلال"، يرينا القرآن مشهد التلاوم بينهم ليكون التحذير أبلغ.
3. تثبيت المعلومة في الذهن:
القصة تعلق بالذهن أكثر من النصائح المجردة. أنت قد تنسى حديثًا أو آية فيها أمر مجرد، ولكنك لن تنسى مشهد المستضعفين وهم يتلاومون مع المستكبرين، ومشهد الأغلال في أعناقهم.
4. التأثير العاطفي والوجداني:
القصة تخاطب العاطفة والوجدان، وليس العقل فقط. عندما تقرأ ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ ، تشعر بألم الندم في قلبك. عندما تقرأ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ، تشعر بقشعريرة في جسدك. هذا التأثير العاطفي هو الذي يحرك الإرادة نحو التغيير.
5. تقديم القدوة والعبرة:
القصة تقدم نماذج سلبية (كالمستكبرين والمستضعفين) ونماذج إيجابية (كالرسل والمؤمنين)، ليكون في ذلك عبرة لنا. فنحن نتعلم من أخطاء النماذج السلبية، ونقتدي بسلوك النماذج الإيجابية.

ثانيًا: كيف تؤثر فينا هذه المشاهد القرآنية تحديدًا؟

هذه المشاهد من سورة سبأ تؤثر فينا بعدة طرق:

1. توليد الخوف من سوء العاقبة:
مشهد الأغلال والندامة يملأ القلب خوفًا ورعبًا من أن نكون مكان هؤلاء يوم القيامة. وهذا الخوف يدفعنا إلى التوبة والعمل الصالح.
2. تعزيز الشعور بالمسؤولية الفردية:
مشهد التلاوم يعزز في أنفسنا أننا لن نستطيع إلقاء اللوم على أحد يوم القيامة. هذا الشعور يجعلنا أكثر حرصًا على اختياراتنا، وأكثر استقلالية في تفكيرنا.
3. التحذير من الاغترار بالقادة والمؤثرين:
هذه المشاهد تكشف الوجه الحقيقي لقادة الضلال، وتبين أنهم في الآخرة سيتبرؤون من أتباعهم. وهذا يحصننا من الاغترار بهم، ويجعلنا ننتقد ونحلل قبل أن نتبع.
4. إحياء معنى العدالة الإلهية في القلوب:
ختام الآية ب ـ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يزرع في القلب يقينًا راسخًا بأن الله عادل، وأن الدنيا ليست نهاية المطاف، وأن هناك يومًا يقتص فيه للمظلوم من الظالم. هذا اليقين يخفف من وطأة ظلم الدنيا، ويمنح الأمل والصبر.
5. تحويل الإيمان إلى قوة محركة:
الإيمان بأن هناك يومًا للحساب، وأن الأغلال ستكون في أعناق الكافرين، يحول الإيمان من مجرد أفكار نظرية إلى طاقة عملية تدفعنا للعمل والالتزام، وتجنبنا الوقوع في مصائد "مكر الليل والنهار".
الأمر السادس
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1. سؤال المسؤولية: عندما أخطئ، هل أبحث عن شماعة أعلق عليها خطئي (الظروف، المجتمع، الأ صدقاء)، أم أعترف بخطئي وأتحمل مسؤوليته كما يريد الله مني؟
2. سؤال التأثير: إذا كنت في موقع يمكنني من التأثير على الآخرين (في البيت، العمل، بين الأ

أصدقاء)، هل أنا مثل "المستكبرين" الذين يأمرون بالمنكر، أم مثل "الدعاة" الذين يأمرون بالمعروف؟
3. سؤال "مكر الليل والنهار": هل أنا واعٍ لأساليب "مكر الليل والنهار" التي تحاول إبعادي عن ديني وأخلاقي؟ ما هي أخطر هذه الأساليب في نظري؟
4. سؤال الندامة: إذا تذكرت ذنبًا قديمًا، هل أشعر بندامة صادقة تدفعني إلى التوبة، أم أنها مجرد شعور عابر؟ كيف أحول ندامتي إلى عمل صالح؟
5. سؤال الأغلال: ما هي "الأغلال" التي قد تقيدني في الدنيا (شهوة، عادة سيئة، خوف من الناس)؟ كيف أتحرر منها قبل أن تتحول إلى أغلال حقيقية في الآخرة؟
6. سؤال القصة: أي مشهد في هذه الآيات أثر فيك أكثر؟ ولماذا؟ كيف يمكنك أن تستخدم أسلوب القصة في تربية أبنائك أو دعوة غيرك؟

الأمر السابع

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان حر مسؤول: لا يلقي باللوم على غيره، ويتحمل تبعات اختياراته.
· إنسان يقظ: لا ينخدع بمكر المضلين، ويميز بين الحق والباطل.
· إنسان نادم قبل فوات الأوان: يتوب من ذنوبه في زمن المهلة.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع العدالة والمسؤولية الفردية: يقل فيه تبرير الجرائم بالأعذار الاجتماعية الواهية.
· مجتمع النقد والتمحيص: لا يتبع القادة والزعماء بلا بصيرة، بل يمحص أقوالهم وأفعالهم.
· مجتمع يقاوم مكر المضلين: يتعاون أفراده على كشف مخططات أعداء الدين والأخلاق.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الحرية والكرامة: تقوم على تحرير الإنسان من عبودية البشر، وتوجيهه إلى عبودية الله وحده. وهذه الآيات ترسخ هذا المعنى بتحذيرها من طاعة السادة في الضلال.
· دولة العدل والإنصاف: تؤمن بأن الله عادل لا يظلم أحدًا، فتسعى لإقامة العدل في الأرض، وتترك الحكم النهائي لله يوم القيامة.
· دولة الوعي واليقظة: لا تنخدع بدعايات أعدائها، وتدرك أن "مكر الليل والنهار" مستمر، فتخطط لمواجهته بكل وسائل العلم والإعلام والتربية.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد عشنا معًا هذا المشهد القرآني العظيم، من بدايته حيث التلاوم والاتهامات، إلى نهايته حيث الندامة والأغلال. لقد رأينا كيف يتبرأ المستكبرون من أتباعهم، وكيف يندم المستضعفون على طاعتهم العمياء. لقد سمعنا حقيقة "مكر الليل والنهار" الذي كان يدار في الخفاء لإضلالهم.

فلا تكن عبدًا للمستكبرين. لا تكن ضحية لمكر الليل والنهار. كن عبدًا لله وحده. تحمل مسؤولية اختيارك. تب إلى الله قبل أن تندم ندامة لا تنفع. وتحرر من أغلال الشهوات والضلالات في الدنيا، قبل أن توضع الأغلال الحديدية في عنقك يوم القيامة.

واحمد الله الذي أسمعك هذه القصة، وأراك هذه المشاهد، وأنت في دار المهلة والعمل. فاغتنم الفرصة، واجعل من هذه الآيات نورًا لقلبك، ودستورًا لحياتك، وزادًا ليوم معادك.

ثالثا.

أيها الإنسان الذي تأخذه زخارف الدنيا، أيها المغرور بما في يديه من مال وبنين، أيها الغافل عن سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول، تعال بنا نقف مع آيتين كريمتين من سورة سبأ، تضعان أيدينا على جرثومة الكفر والطغيان في كل زمان ومكان. إنهما الآيتان اللتان تكشفان عن سر عداوة المترفين للحق، وتفضحان القياس الخاطئ الذي يقيس رضا الله وسخطه بكثرة المال والولد. إنهما تحذير إلهي صارخ من فتنة الترف، ودعوة للاعتبار بمصير الأمم المستكبرة التي جحدت بأنعم الله فوقفت ضد رسله.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو ينقل لنا مقالة المترفين في كل قرية، ثم مقالتهم التي تعبر عن فلسفتهم الفاسدة في الحياة:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: 34]

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35].

هاتان الآيتان الكريمتان تقدمان لنا قانونًا اجتماعيًا تاريخيًا ثابتًا، وتكشفان عن السنن الإلهية في صراع الحق مع الباطل. إنهما تخبراننا أن المترفين هم دائمًا في طليعة المكذبين للرسل، وأن حجتهم الواهية هي كثرة أموالهم وأولادهم، ظنًا منهم أن هذا دليل على رضا الله عنهم ونجاتهم من العذاب. إنهما تريدان أن تحررنا من هذا الوهم، وتعلمنا أن المال والولد ليسا معيار الكرامة عند الله، بل هما فتنة وابتلاء.

موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن عرضت الآيات السابقة (31-33) مشهد التلاوم بين المستضعفين والمستكبرين يوم القيامة، وكيف تبرأ كل فريق من الآخر، تأتي هاتان الآيتان لتكشفا لنا عن بداية القصة في الدنيا. إنهما تشرحان كيف بدأ الصراع بين الرسل وأقوامهم، وكيف أن الفئة التي قادت الكفر والصد عن سبيل الله كانت دائمًا هي فئة المترفين، أي الأغنياء المنعمين الذين أبطرتهم النعمة فكفروا وجحدوا. ثم تذكران الحجة الواهية التي كانوا يتعللون بها، والتي تكررت على ألسنة أقوام عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم. وهكذا يربط القرآن بين الماضي والحاضر والمستقبل، ليثبت أن هذه سنة إلهية لا تتخلف.
الأمر الأول:
سنة إلهية ثابتة (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نذيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بأداة النفي "وَمَا" والاستثناء "إِلَّا" ، وهذا أسلوب حصر يفيد أن هذا الأمر قاعدة مطردة وسنة ثابتة لا تتخلف.

· دلالة (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نذيرٍ):
"قرية" نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي أي قرية كانت. "نذير" أي رسول منذر يدعو إلى الله ويحذر من عذابه. ففي كل قرية أرسل الله إليها رسولا ً، تكرر نفس المشهد.
· دلالة (إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا):
الاستثناء هنا يفيد أن هذا القول حصري من جهة أن هؤلاء المترفين هم الذين يبادرون إلى إعلان الكفر والصد عن سبيل الله. واللفتة العظيمة هنا هي في وصفهم ب- "مُتْرَفُوهَا" . فمن هم المترفون؟
· تحليل كلمة (مُتْرَفُوهَا):
"المترف" من "الترف"، وهو التوسع في النعمة والتنعم بالملذات والشهوات، مع البطر والأشر وعدم الشكر. فالمترف ليس مجرد غني، بل هو غني أبطره غناه، فجعله يطغى ويكفر ويصد عن سبيل الله.
لماذا هم بالذات يقودون حملة الكفر؟
1. لأنهم يخافون على مصالحهم ومراكزهم ونفوذهم، فدعوة الرسل تهدد امتيازاتهم القائمة على الظلم والاستغلال.
2. لأن النعمة ألهتهم وأعمتهم عن الحق، فظنوا أن ما هم فيه من خير هو دليل على رضا الله عنهم، فكيف يتركون ما هم فيه لأجل دعوة نبي؟!
3. لأنهم يأنفون من الخضوع والانقياد، ودعوة الرسل تقتضي التسليم لله والتواضع، وهذا ما تأباه نفوسهم المستكبرة.
· دلالة قولهم (إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ):
هذا هو إعلان الرفض المطلق. "إنا" ضمير الفصل، و"بما أرسلتم به" يشمل كل ما جاء به الرسل من عقائد وشرائع وأخلاق. "كافرون" جاحدون منكرون. وهذا الموقف يذكرنا بموقف "الذين كفروا" في الآ ية (31) الذين قالوا: "لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه". فالمترفون هم قلب الكفر النابض في كل أمة.
· أمثلة تاريخية ومعاصرة:
· قوم نوح: قالوا لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: 27]. فالمترفون هم الذين احتقروا أتباع نوح الفقراء.
· قوم صالح: قال المترفون منهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ [الشعراء: 146]، مستنكرين دعوته إلى عبادة الله وحده.
· في عصرنا: نرى رجال الأعمال الفاسدين، وأصحاب شركات الإعلام الموجهة، والمشاهير المترفين، يقفون ضد الدعوة إلى القيم والأخلاق والعدالة، لأن هذه الدعوة تهدد مصالحهم ونفوذهم.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. فهم التاريخ وسننه: هذه الآية تعطينا عدسة لقراءة التاريخ والواقع. لا تتعجب إذا رأيت

المترفين يقفون ضد الحق، فهذه سنة الله.
2. الحذر من الترف: هذه الآية تحذرك من أن تكون من المترفين الذين أبطرتهم النعمة فقادتهم إلى الكفر. الترف مرض قلبي خطير.
3. عدم الاغترار بموقف المترفين: لا تجعل موقف الأغنياء والمتنفذين من الحق مقياسًا لصحة الحق أو بطلانه. فغالبًا ما يكونون في الجانب الخطأ.
الأمر الثاني:
فلسفة المترفين الفاسدة (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن أعلنوا كفرهم، يذكرون الحجة أو الفلسفة التي يستندون إليها لتبرير كفرهم ورفضهم لدعوة الرسل.

· دلالة (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا):
هذا هو دليلهم المادي على أنهم على حق. يقولون: انظروا إلينا! نحن أكثر منكم أموالا ً وأولادًا. نحن المتمكنون في الأرض، أصحاب النفوذ والثروة والكثرة العددية. فكيف نكون على باطل وأنتم الفقراء الضعفاء على حق؟! هذا هو القياس الفاسد الذي يقلب الموازين.
· دلالة (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ):
هذه هي النتيجة التي يبنونها على مقدمتهم الفاسدة. يقولون: لو كان ما تدعونا إليه حقًا، ولو كان الله ساخطًا علينا، لما أعطانا هذه الأموال والأولاد، ولعذبنا في الدنيا! فنحن في نعيم دائم، وهذا دليل على رضا الله عنا ونجاتنا من عذابه في الآخرة.
· تفنيد هذه الفلسفة القرآنية:
القرآن الكريم يفند هذه الفلسفة في مواضع كثيرة:
· المال والولد فتنة وابتلاء، لا دليل رضا: قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55-56]. فإمدادهم بالمال والبنين هو استدراج وإمهال، وليس إكرامًا.
· الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده المؤمنين والكافرين: قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: 33]. فبسط الرزق للكافر لا يدل على محبة الله له، بل قد يكون استدراجًا.
· العبرة بالتقوى والعمل الصالح، لا بالمال والولد: قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].
· السنن الإلهية التي تخبرنا بها الآية:
1. سنة الابتلاء بالمال والولد: المال والولد هما أعظم فتنة وابتلاء في هذه الحياة. فإما أن يشكر العبد فيهما فينجو، وإما أن يكفر ويطغى فيهلك.
2. سنة أن المترفين هم قادة الكفر: في كل أمة، يقود حملة التكذيب والصد عن سبيل الله الفئة المترفة المتنعمة.
3. سنة الإمهال والاستدراج: إعطاء الكافرين المال والولد ليس دليل رضا، بل هو إمهال واستدراج من الله، حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.
4. سنة أن العذاب لا يدفع بالمال والولد: يوم القيامة، لن ينفع المال ولا البنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فما ظنه المترفون سببًا للنجاة هو سبب هلاكهم.
· التحذير من فتنة الترف:
الترف هو التوسع في النعم مع الغفلة عن المنعم. وهو مرض قلبي خطير له عواقب وخيمة:
· يقسي القلب: فيجعل صاحبه لا يشعر بآلام الفقراء والمحتاجين.
· يورث الكبر والعلو: فيجعله يحتقر الآخرين ويستعلي عليهم.
· ينسي الآخرة: فيجعله يظن أن الدنيا هي دار القرار.
· يؤدي إلى الجحود والكفر: كما حدث مع قوم سبأ وغيرهم من الأمم.
لذلك يحذرنا الله من فتنة الترف، ويدعونا إلى شكر النعم واستخدامها في طاعته، لا في معصيته.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· رجل أعمال فاسد: جمع ثروة طائلة من الربا والرشوة، وهو يعيش في قصور فارهة، ويظن أن هذا دليل على رضا الله عنه، بينما هو في الحقيقة في استدراج من الله.
· عائلة غنية منحلة: لديهم أموال وأولاد، ويعيشون حياة الترف والمجون، ويظنون أنهم لن يعذبوا، ويستهزئون بالملتزمين الفقراء. هذه هي نفس فلسفة المترفين القدماء.
· مشاهير التواصل: بعضهم يتباهى بماله وأولاده ومتابعيه، ويظن أن هذه الكثرة دليل على أنه على

حق، ويسخر من الدعاة إلى الله.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تحرير العقل من القياس المادي: لا تقس رضا الله وسخطه بكثرة المال والولد. فكم من غني فاسق مبغوض عند الله، وكم من فقير تقي حبيب إلى الله.
2. الاعتبار بمصير الأمم المستكبرة: تذكر دائمًا مصير عاد وثمود وفرعون وقوم سبأ. لقد كانوا أكثر أموالا ً وأولادًا، فماذا أغنى عنهم ذلك عندما جاءهم عذاب الله؟
3. شكر النعم لا بطرها: إذا رزقك الله مالا ً وولدًا، فاعلم أنها نعمة تستوجب الشكر لا البطر. اشكر الله عليها، واستخدمها في طاعته، ولا تجعلها سببًا لطغيانك وكفرك.
4. الصبر على فتنة الفقر: إذا كنت فقيرًا قليل المال والولد، فلا تحزن ولا تظن أن الله ساخط عليك. بل قد يكون هذا خيرًا لك، ليختبر صبرك وشكرك.
الأمر الثالث: ماذا يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هاتين الآيتين؟ وكيف نفعل ذلك في واقعنا؟

أولا ً: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟

.1يريد منا أن نعرف سنته في المترفين:
يريدنا أن نكون على بصيرة من أمرنا، فلا نستغرب موقف المترفين من الحق، ولا نخضع لضغوطهم وإغراءاتهم. يريدنا أن نتعلم من التاريخ أن المترفين هم دائمًا أعداء الأنبياء والدعاة.
.2يريد منا ألا نغتر بالمال والولد:
يريدنا أن نتحرر من الوهم الذي يربط بين كثرة المال والولد وبين رضا الله. يريدنا أن نوقن أن هذه فتنة وابتلاء، وأن الكرامة الحقيقية عند الله بالتقوى والعمل الصالح.
.3يريد منا أن نشكر النعم ولا نبطرها:
إذا رزقنا الله مالا ً وولدًا، يريد منا أن نكون شاكرين، نستخدم هذه النعم في طاعته ومرضاته، لا أن نكون من المترفين الجاحدين الذين أبطرتهم النعمة فكفروا.
.4يريد منا أن نعتبر بمصير الأمم المستكبرة:
يريدنا أن نقرأ في القرآن قصص عاد وثمود وفرعون وغيرهم، ونرى كيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وكيف أن المال والولد لم يغنيا عنهم من الله شيئًا. هذا الاعتبار يحمينا من الوقوع في أخطائهم.
.5يريد منا ألا نيأس أو نضعف أمام فتنة الترف:
قد يفتن المؤمن الفقير ببريق حياة المترفين، فيظن أنهم على حق. الله يريد منا أن نثبت، ونعلم أن العاقبة للمتقين، وأن متاع الدنيا قليل، والآخرة خير وأبقى.

ثانيًا: كيف نفعل هذه المعاني في واقعنا؟ (تطبيقات عملية)

.1في تعاملنا مع المال:
· إذا رزقك الله مالا ً، فاجعل لك برنامجًا للشكر العملي: زكاة، صدقة جارية، إعانة محتاج، تفريج كربة. لا تجعل مالك حجابًا بينك وبين الله.
· إذا كنت فقيرًا، فاصبر واحتسب، واعلم أن الله يبتليك ليرفع درجتك، وليس لأنه ساخط عليك.
.2في تربية أبنائنا:
· لا تربط في أذهانهم بين المال والكرامة. علمهم أن قيمة الإنسان بإيمانه وأخلاقه وعلمه، لا بملا بسه وسيارته.
· احكِ لهم قصص الأمم المستكبرة التي أهلكها الله، واربطها بواقعهم، ليتعلموا أن الترف والكفر يؤديان إلى الهلاك.
.3في مواجهة الإعلام المادي:
· الإعلام المعاصر يغرقنا بصور المترفين وحياتهم الباذخة، ليوهمنا أن هذه هي السعادة والنجاح. كن واعيًا، ولا تنخدع بهذه الصور. استخدم وسائل التواصل لنشر الوعي بقيمة الزهد والقناعة.
.4في التعامل مع أصحاب النفوذ والمال:
· لا تذل لهم، ولا تطمع فيما عندهم. اعلم أنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. وكن عزيزًا بدينك، واثقًا بأن رزقك بيد الله وحده.
.5في الدعوة إلى الله:
· عندما تواجه معارضة من المترفين وأصحاب المصالح، لا تيأس ولا تتراجع. تذكر أن هذه سنة إلهية، وأن الأنبياء من قبلك واجهوا نفس الموقف. استمر في دعوتك بالحكمة والموعظة الحسنة.
الأمر الرابع
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

.1سؤال الترف: هل أنا من "المترفين" في شيء من حياتي؟ هل هناك نعمة أبطرتني وألهتني عن شكر الله؟) نعمة الصحة، الفراغ، المال، الأولاد.(
.2سؤال القياس: هل أجد في نفسي ميلا ً لاحتقار الفقراء والمحتاجين، أو لتعظيم الأغنياء و المترفين؟ كيف أصحح هذا الميزان الخاطئ؟
.3سؤال الاستدراج: إذا رأيت كافرًا أو عاصيًا في نعمة ورخاء، هل أقول في نفسي: "انظر، إنه يعيش في نعيم، إذن الله راض عنه"؟ أم أتذكر أن هذا قد يكون استدراجًا وإمهالا ً؟
.4سؤال الاعتبار: هل قرأت قصص الأمم السابقة) عاد، ثمود، قوم نوح، فرعون (كقصص للتسلية، أم كعبر ودروس لحياتي؟
.5سؤال الأمل: عندما أرى المترفين الجاحدين يسيطرون على مقاليد الأمور، هل يصيبني اليأس والإ حباط؟ كيف تمدني هذه الآيات بالأمل والثبات؟

الأمر الخامس

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان شاكر: يشكر الله على نعمه، ولا يجعلها سببًا للبطر والكفر.
· إنسان متوازن: لا يقيس رضا الله وسخطه بالمقاييس المادية (المال والولد).
· إنسان صابر: يصبر على فتنة الفقر، كما يصبر الأغنياء على فتنة الغنى.
· إنسان معتبر بالتاريخ: يقرأ قصص الأولين بعين العبرة، فيتجنب أخطاءهم.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع القيم والأخلاق: لا تسوده المادية والاستهلاكية، بل تسوده قيم التقوى والعمل الصالح.
· مجتمع العدالة والتكافل: يعرف الأغنياء فيه حق الله في أموالهم، فيؤدون الزكاة والصدقات، ويساعدون الفقراء.
· مجتمع واع: يدرك أن الترف والكفران من أسباب سقوط الأمم، فيحذر منها.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الشكر لا البطر: الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها كانت حضارة شكر، استخدمت النعم في عمارة الأرض وطاعة الله. أما حضارات الترف والبطر فقد انهارت.
· دولة العدل الاجتماعي: دولة التوحيد لا تسمح بأن تكون الثروة دُولة بين الأغنياء، بل تقيم نظامًا عادلا ً يضمن حق الفقير في مال الغني.
· دولة الوعي بالسنن الإلهية: تخطط لمستقبلها على هدى من سنن الله في الأمم، فتعلم أن الترف و الكفران والظلم هي أسباب الهلاك، فتحاربها بكل وسائل التربية والإعلام والقانون.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد أسمعك الله في هاتين الآيتين مقالة المترفين الجاحدين عبر التاريخ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ، و﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ . لقد أسمعك إياها لتحذر أن تكون منهم، أو أن تغتر بهم.

فلا تجعل المال والولد مقياسًا للحق والباطل. لا تجعل الترف يحجبك عن رؤية الحق. كن عبدًا شاكرًا لنعم الله، مستخدمًا لها في طاعته. وكن على يقين بأن الله لم يرخص بالكبر لأحد، وأن كبرياءه سبحانه ينتقم من كل جبار عنيد.

وانظر حولك، واعتبر بمن سبق. كم من أمة كانت أكثر أموالا ً وأولادًا، فلما كفرت بأنعم الله أخذها أخذ عزيز مقتدر. فكن من الشاكرين، لا من الجاحدين. وكن من المعتبرين، لا من الغافلين.

رابعا

أيها الإنسان الذي علق آماله وأحكامه على المظاهر، أيها العقل الذي سجن نفسه في قفص الأرقام والأ موال، أيها القلب الذي اضطرب بين الغنى والفقر ظاناً أن فيهما سر القبول أو الرد، تعال بنا نقف مع آية كريمة من سورة سبأ هي من أعظم آيات تصحيح المفاهيم ورد الاعتبار. إنها الآية التي تهدم المعيار المادي الفاسد الذي بنى عليه المترفون كفرهم، وتضع الميزان الحق الذي توزن به الأمور عند الله. إنها دعوة إلى تحرير العقل من أوهام القياسات الدنيوية، وإلى النظر إلى الحياة بعين البصيرة لا بعين الحساب.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه ﷺ أن يعلن الحقيقة التي غفل عنها أكثر الناس:
﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 36].

هذه الآية الكريمة هي الرد الإلهي المباشر على مقالة المترفين في الآية السابقة: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35]. إنها تقول لهم ولكل من اعتقد مثل اعتقادهم: "كلا! ليس ا لأمر كما تظنون! كثرة الأموال والأولاد ليست دليلا ً على رضا الله، وقلتها ليست دليلا ً على سخطه. الأمر كله بيد الله، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء، لحكمة لا تعلمونها" . إنها آية تنسف الغرور، وتزرع الطمأنينة، وتصحح مسار التفكير.

موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

هذه الآية تأتي كجواب فاصل ونهاية حاسمة لجدل المترفين. فبعد أن حكى الله عنهم زعمهم الفاسد أن كثرة أموالهم وأولادهم دليل نجاتهم من العذاب، يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بهذا البيان القرآني المحكم. وهذا الأسلوب (ذكر الشبهة ثم الرد عليها فوراً) هو من أبلغ أساليب التربية والإقناع في القرآن. فهو لا يترك للشبهة فرصة للتمكن في النفوس، بل يعقبها مباشرة بالحق الذي ينسفها من جذورها.
الأمر الأول:
تفويض الأمر إلى الله وإعلان الحقيقة (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ المقطع بالأمر الإلهي ﴿قُلْ﴾، وهذا يدل على أن النبي ﷺ مبلغ عن ربه، وأن هذه الكلمات ليست منه، بل هي وحي يوحى.

· دلالة (إِنَّ رَبِّي):
إضافة الرب إلى النبي ﷺ في قوله "ربي" فيها تثبيت له وتكريم. فهو ليس مجرد إله يعبد، بل هو رب يرعى ويصطفى ويدبر. وهذا يمنح النبي والمؤمنين طمأنينة عظيمة.
· دلالة (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ):
"يبسط" أي يوسع ويكثر. فالله هو الذي يوسع الرزق على من يشاء من عباده. ومشيئته ليست عشوائية، بل تابعة لحكمته البالغة. فقد يبسط الرزق للمؤمن، وقد يبسطه للكافر.
· دلالة (وَيَقْدِرُ):
"يقدر" أي يضيق ويقلل. فالله هو الذي يضيق الرزق على من يشاء من عباده. وقد يضيق على المؤمن، وقد يضيق على الكافر.
· اللمسة البيانية في الجمع بين (يَبْسُطُ) و (يَقْدِرُ):
هذا الجمع بين الضدين (البسط والقدر) يدل على أن الأمر كله بيد الله. هو الذي يبسط وهو الذي يقبض. وهو الذي يغني وهو الذي يفقر. فلا دخل لأحد في ذلك، ولا اعتراض لأحد على حكمته. وهذا هو عين التوحيد في الربوبية.
· تصحيح التصورات الفاسدة (ذم المعيار الفاسد):
الآية السابقة ذكرت أن المترفين جعلوا كثرة الأموال والأولاد دليلا ً على رضا الله ونجاتهم من العذاب. وهذه الآية تهدم هذا المعيار من أساسه. فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على من يشاء، سواء كان المولى عليه راضياً أم ساخطاً. فبسط الرزق ليس دليل محبة، وتقديره ليس دليل بغض. إنما هو قسمة إلهية وابتلاء واختبار.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· طبيب ومريض: طبيب يعطي مريضاً دواءً مقوياً (يبسط له الصحة)، ويعطي مريضاً آخر حمية قاسية (يقدر عليه الطعام). هذا ليس لأن الأول أحب إليه من الثاني، بل لأن العلاج يقتضي ذلك. هكذا الله يعطي ويمنع لحكمة يعلمها.
· أب مع أبنائه: أب غني يعطي أحد أبنائه مالا ً كثيراً ليختبر شكره، ويعطي الآخر قليلا ً ليختبر صبره. كلا العطائين ابتلاء، وليس دليل تفضيل مطلق.
· فلاح يسقي أرضه: يسقي أرضاً غزيراً لأنها تصلح للزرع الكثيف، ويسقي أرضاً أخرى بقدر لأنها لا تتحمل الماء الكثير. كل ذلك بحسب المصلحة والحكمة.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التحرر من عبودية المال: هذه الآية تحررك من أن تكون عبداً للمال، تجعله مقياساً لقيمة الناس. فالغني ليس بالضرورة أفضل من الفقير عند الله.

2. الرضا بقسمة الله: إذا رزقك الله مالا ً، فاعلم أنه ابتلاء، واشكر. وإذا ضيق عليك، فاعلم أنه ابتلاء، واصبر. ولا تحزن على ما فاتك.
3. عدم الحكم على الناس بالظاهر: لا تحكم على أحد بأنه على حق لأن الله وسع عليه، ولا على آخر بأنه على باطل لأن الله ضيق عليه. فالأمر لله، والعبرة بالتقوى والعمل الصالح.

الأمر الثاني:

بيان سبب الضلال (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد بيان الحقيقة، يأتي الاستدراك لبيان سبب وقوع أكثر الناس في هذا الوهم والقياس الفاسد.

· دلالة (وَلَٰكِنَّ):
استدراك مهم. أي أن الأمر كما ذكرت لكم، ولكن هناك مشكلة عند أكثر الناس.
· دلالة (أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ):
المشكلة هي الجهل. أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة. لا يعلمون أن بسط الرزق وقدره ليس دليل رضا أو سخط. لا يعلمون أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، لا دار جزاء. لا يعلمون حكمة الله في تدبيره لخلقه. وهذا الجهل هو الذي يجعلهم يبنون أحكامهم على المظاهر المادية، فيقعون في الغرور (إن كانوا أغنياء) أو في اليأس (إن كانوا فقراء).
· اللمسة البيانية في وصفهم بأنهم (لَا يَعْلَمُونَ):
لم يقل "لا يفقهون" أو "لا يتدبرون"، بل قال "لا يعلمون" . وهذا يشير إلى أن أصل المشكلة هو فقدان العلم الحقيقي بحكمة الله وسننه في خلقه. فلو علموا حقيقة الدنيا والآخرة، وحقيقة الابتلاء، لما اغتروا بالمال، ولما يئسوا من الفقر.
· بيان جهلهم بمواقع الفتنة والاختبار:
أكثر الناس يجهلون أن مواضع الغنى والاقتدار هي مواضع فتنة واختبار. يظنون أن الغنى هو الجائزة الكبرى، بينما هو في الحقيقة أخطر امتحان. فكم من غني أطغاه غناه فأهلكه! وكم من فقير رفعته عبوديته وصبره عند الله! كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَغْنِيَاءُ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ». فالله يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم. يجعل بيد المترفين أموالا ً يظنونها دليل كرامة، وهي في الحقيقة وبال عليهم، ويجعل في صفوف المؤمنين فقراء مستضعفين، هم عند الله من أكرم الخلق.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· ورقة الامتحان: طالب يرى زميله قد أعطي ورقة أسئلة سهلة فيظن أنه محظوظ، بينما الأسئلة السهلة قد تكون فتنة لأنها لا تظهر الفروق الفردية، والأسئلة الصعبة قد تكون سبباً في تميز المجتهدين. هكذا الدنيا، امتحان متفاوت الصعوبة.
· صاحب المصنع: صاحب مصنع يعطي مديراً صلاحيات واسعة (بسط) ليختبر أمانته، ويعطي آخر صلاحيات محدودة (قدر) ليختبر إخلاصه في القليل. كلا الوظيفتين اختبار.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. طلب العلم النافع: هذه الآية تدعونا إلى أن نتعلم حقيقة الدنيا والآخرة، وسنن الله في الابتلاء، حتى لا نكون من "أكثر الناس الذين لا يعلمون".
2. تغيير نظرتنا للغنى والفقر: انظر إلى الغنى على أنه فتنة ومسؤولية، وانظر إلى الفقر على أنه ابتلاء وفرصة للصبر والقرب من الله.
3. عدم الاغترار بكثرة المترفين: لا يغرك أن أكثر الناس في هذا الزمان يلهثون وراء المال ويعظمون الأغنياء. تذكر أنهم من "أكثر الناس الذين لا يعلمون". كن أنت من القلة العالمين.

الأمر الثالث: تصحيح المعايير الفاسدة وذم القياس المادي

هذه الآية الكريمة تقدم لنا درساً عظيماً في فقه الابتلاء، وتصحح مفهوماً خاطئاً ترسخ في أذهان الكثيرين عبر العصور. دعنا نفصل هذا المفهوم ونقارن بين المعيار المادي الفاسد والمعيار الرباني الحق.

أولا ً: المعيار المادي الفاسد (معيار المترفين):

· مضمونه: كثرة المال والولد = رضا الله ونجاة من العذاب. قلة المال والولد = سخط الله وهلاك.
· أسبابه: الجهل بحكمة الله، الاغترار بالدنيا، حب الشهوات، الكبر والعلو.
· نتائجه:
1. للمترفين: يزيدهم طغياناً وكفراً وجحوداً، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: 6-7].

2. للفقراء: قد يسبب لهم اليأس والقنوط والشعور بالدونية، وربما الحسد والاعتراض على قدر الله.

ثانياً: المعيار الرباني الحق (معيار القرآن):

· مضمونه: بسط الرزق وقدره هو ابتلاء وامتحان من الله، وليس دليل رضا أو سخط. فالغنى ابتلاء: هل يشكر العبد أم يكفر؟ والفقر ابتلاء: هل يصبر العبد أم يجزع؟
· أدلته من القرآن والسنة:
· هذه الآية نفسها: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.
· قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17]. فالله ينفي أن يكون البسط إكراماً والقدر إهانة.
· قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ».
· نتائجه:
1. للغني: يدفعه إلى الشكر والتواضع والخوف من الفتنة، واستخدام المال في طاعة الله.
2. للفقير: يدفعه إلى الصبر والرضا والاحتساب، وعدم الحسد، والثقة بأن الله لم يهنه.

ثالثاً: مواضع الفتنة والاختبار في الغنى والفقر:

· فتنة الغنى: أشد وأخطر. قال النبي ﷺ: «وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». ففتنة الغنى هي في الشهوات، والبطر، والكبر، وقسوة القلب، والانشغال عن الآخرة.
· فتنة الفقر: فتنة عظيمة أيضاً، ولكنها قد تكون أهون. فتنته في الحسد، والتسخط، واليأس، والسرقة ، والكذب، والتذلل لغير الله. ومن صبر على فتنة الفقر كان أجره عظيماً. قال ﷺ: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ».

رابعاً: اختبار المستكبرين بالمستضعفين:
من حكمة الله أن يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم. يجعل الفقراء المؤمنين سادة في الآخرة، بينما يكون المترفون الكافرون أذلاء. وهذا يقلب الموازين الدنيوية. كما قال هرقل لأبي سفيان عن أتباع النبي ﷺ: «وَهَلْ يَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟» قال: «بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ». قال هرقل: «هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ». فانظر كيف أن الله يجعل الحق مع المستضعفين، ليكون ذلك اختباراً للمستكبرين: هل يتواضعون للحق ويتبعونه، أم يمنعهم كبرهم؟

الأمر الرابع
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

1. سؤال المعيار: ما هو المقياس الذي أحكم به على نجاحي في الحياة؟ هل هو رصيدي البنكي، أم قربي من الله وعملي الصالح؟
2. سؤال الفتنة: هل أنا في موضع فتنة الغنى أم فتنة الفقر؟ كيف أتعامل مع هذه الفتنة؟ ما هي ع لامات نجاحي في هذا الامتحان؟
3. سؤال العلم: عندما أرى غنياً فاسقاً وفقيراً تقياً، هل تميل نفسي لتعظيم الغني واحتقار الفقير؟ كيف أعالج هذا الميل إن وجد؟
4. سؤال الرضا: هل أنا راضٍ بقسمة الله لي في الرزق؟ أم أنني دائم التذمر والشكوى؟
5. سؤال أكثر الناس: هل أجد نفسي منساقاً وراء "أكثر الناس" في تقديس المال والماديات؟ كيف أكون من القلة العالمين؟

الأمر الخامس
كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

١. في تقييم الناس:

· التطبيق: غيّر طريقة تقييمك للناس. لا تسأل: "كم يملك فلان؟"، بل اسأل: "ما هي أخلاقه؟ كيف هي علاقته بالله؟". عامل الناس على هذا الأساس.

٢. في التعامل مع المال:

· إذا كنت غنياً: انظر إلى مالك على أنه اختبار وأمانة. اسأل نفسك كل يوم: "هل أنا شاكر أم بطر؟". أكثر من الصدقة، وتواضع للفقراء.

· إذا كنت فقيراً: انظر إلى فقرك على أنه اختبار وفرصة للقرب من الله. اسأل نفسك: "هل أنا صابر أم متسخط؟". استعن بالصلاة والصبر، واعلم أن ما عند الله خير وأبقى.

٣. في تربية الأبناء:

· التطبيق: لا تربط حبك لأبنائك أو مدحك لهم بدرجاتهم المدرسية أو بممتلكاتهم. علمهم أن قيمتهم عند الله بإيمانهم وأخلاقهم. امدح فيهم الصدق والأمانة والاجتهاد، أكثر مما تمدح فيهم جمال الملبس أو المظهر.

٤. في الدعاء:

· التطبيق: لا يكن دعاؤك كله طلباً للمال والرزق. ادعُ الله أن يرزقك القناعة والغنى النفسي، وأن يبارك لك في القليل، وأن يجعلك من الشاكرين الصابرين. قل: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى".

٥. في مواجهة الإعلام المادي:

· التطبيق: قلل من متابعة حسابات المشاهير والمترفين التي تكرس ثقافة المظاهر والماديات. استبدلها بمتابعة حسابات علمية وتربوية ودعوية تذكرك بقيمة الروح والعلم والعمل الصالح.

دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان متحرر من وهم المادة: لا يستعبده المال، ولا يقيس قيمته به.
· إنسان راضٍ بقضاء الله: مطمئن القلب، شاكر في الغنى، صابر في الفقر.
· إنسان عالم بحكمة الابتلاء: يفهم أن الحياة دار اختبار، فيتعامل مع أحداثها بحكمة.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع القيم لا المظاهر: تسوده قيم الإيمان والأخلاق والعلم، لا قيم الاستهلاك والتفاخر بالأموال وا لأولاد.
· مجتمع التكافل والتواد: يزول فيه الحسد بين الفقراء والكبر عند الأغنياء، ويحل محلهما التواد و التكافل.
· مجتمع الاستقرار النفسي: أفراده راضون بأقدارهم، فلا يضطربون بين الغنى والفقر.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة التوازن والعدل: لا تقوم على الطبقية المادية، بل على المساواة في الكرامة الإنسانية، و التفاضل بالتقوى.
· دولة الاختبار والمسؤولية: تتعامل مع الغنى والفقر كأداتي اختبار، فتسن القوانين التي تضمن حق الفقير في مال الغني (الزكاة)، وتحث الغني على الشكر والإنفاق.
· دولة القوة الحقيقية: قوتها ليست في كثرة أموالها وأولادها فحسب، بل في إيمان أفرادها وتقواهم ورضاهم بقضاء الله، مما يجعلهم أقوياء في مواجهة الأزمات.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، هذه الآية العظيمة تضع بين يديك مفتاح السعادة والطمأنينة. إنها تحررك من أغلا ل المقاييس المادية التي استعبدت أكثر الناس. إنها تقول لك: "لا تحزن إن كنت فقيراً، ولا تبطر إن كنت غنياً. فالغنى والفقر بيد الله وحده، وهما اختبار وامتحان. فمن شكر في الغنى نجا، ومن صبر في الفقر فاز. ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة، فيشقون ويضلون".

فكن من القلة العالمين. حرر عقلك وقلبك من قيود المادة. وانظر إلى الغنى والفقر بعين البصيرة الإ يمانية. واجعل شعارك في الحياة: "اللهم لك الحمد على كل حال، وأسألك الرضا بقضائك، والعمل

بطاعتك، وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة".

ولا تنسَ أن النبي ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأحب الخلق إلى الله، كان يبيت الليالي طاوياً، ويمر عليه الهلال ثم الهلال ولا يوقد في بيته نار. فهل كان ذلك دليل سخط من الله؟ حاشا وكلا! بل كان ذلك رفعة له وزيادة في درجاته.

فارضَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً. وثق بأن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

خامسا

أيها العاقل الذي يريد أن يتجاوز المظاهر إلى الجواهر، أيها القلب المتعطش إلى معرفة ميزان الله الحق، أيها الباحث عن سر القرب من الله ورضوانه، تعال بنا نقف مع آيتين كريمتين من سورة سبأ، هما تاج البيان وفصل الخطاب في هذه القضية الكبرى. إنهما الآيتان اللتان تضعان النقاط على الحروف، وتعلنان الميزان الإلهي الدقيق الذي توزن به الأعمال والمنازل. إنهما تهتفان في أذن الغافل: "لا تغتر بالمال والولد، فإنهما لا يقربانك من الله زلفى! وإنما الذي يقربك هو الإيمان والعمل الصالح!". إنهما آيتان تنسفان الفلسفة المادية من جذورها، وتدعوان إلى الاستعلاء بالحق وعدم الانخداع بالمظاهر الكاذبة.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يخاطب المترفين والمستضعفين جميعاً، ويرسم لهم طريق الفلاح الحقيقي:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37]

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: 38].

هاتان الآيتان الكريمتان هما الجواب القاطع على كل ما سبق من زعم المترفين واغترارهم بأموالهم وأولادهم. إنهما تقدمان لنا المعادلة الإلهية الحقة للقرب من الله، وتبينان أن الطريق الوحيد لذلك هو الإيمان والعمل الصالح. كما أنهما تحذران من المسارعة في التكذيب والصد عن سبيل الله، وتبينان سوء مصير ذلك. إنهما دعوة إلى إعادة ترتيب الأولويات، وتصحيح المفاهيم، والبحث عن الغنى الحقيقي.

موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن حكى الله عن المترفين قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (آية 35)، ورد عليهم بأن بسط الرزق وقدره بيده سبحانه وحده، وليس دليل رضا أو سخط (آية 36)، تأتي هاتان الآيتان لتؤكدا هذا المعنى بأقوى عبارة وأوضح بيان. إنهما تنفيان بشكل قاطع أن تكون الأموال والأولاد سبباً للقرب من الله، وتعلنان أن السبب الوحيد هو الإيمان والعمل الصالح. ثم تختمان بذكر جزاء الفريقين: جزاء المؤمنين (الغرفات والآمنون)، وجزاء المسارعين في تكذيب آيات الله (العذاب المحضرون). وهذا هو منهج القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، وبيان العاقبتين.

الأمر الأول:

نفي أن تكون الأموال والأولاد سبباً للقرب من الله (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بأسلوب النفي القاطع "وَمَا"، مؤكداً بطلان المزاعم التي روج لها المترفون.

· دلالة (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم):

تكرار النفي بـ "لا" لتأكيد أن كلاً من الأموال والأولاد على حدة لا يصلح أن يكون وسيلة للقرب من الله. وهذا يشمل جميع أنواع الأموال وكثرة الأولاد.

· دلالة (بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ):

"بالتى" صفة لموصوف محذوف، أي "بالأشياء التي" أو "بالوسيلة التي". "زلفى" أي قربى ومنزلة رفيعة. فالمعنى: ليست أموالكم ولا أولادكم بالوسيلة التي تقربكم عندنا قرباً ومنزلة. وهذا نفي صريح لكل ما زعمه المترفون.

· اللمسة البيانية في (عِندَنَا):

قوله "عندنا" عظيم جداً. فالقرب ليس عند الناس، وليس بحسب مقاييس الدنيا، بل هو عند الله سبحانه. فمن أراد القرب والزلفى عند الله، فعليه أن يعرف ما يقربه إليه، لا ما يظنه الناس قرباً.

· تصحيح التصورات الفاسدة والدعوة إلى الاستعلاء بالحق:
هذه الآية تدعونا دعوة صريحة إلى الاستعلاء بالحق وعدم الانخداع بالمظاهر الكاذبة. ماذا يعني ذلك؟
· الاستعلاء بالحق: يعني أن ترتفع بنفسك وعقلك وإيمانك فوق المقاييس المادية الزائفة. ألا تجعل كثرة المال أو المنصب أو الجاه معياراً لتفاضل الناس، بل تجعل الحق والإيمان والعمل الصالح هو المعيار. أن تكون عزيزاً بدينك وقيمك، حتى لو كنت فقيراً قليل المال والولد.
· عدم الانخداع بالمظاهر الكاذبة: يعني ألا تنخدع ببريق الأغنياء والمترفين، وألا تظن أنهم على حق لأنهم أكثر أموالا ً. فاللّه يخبرك أن هذه المظاهر ليست دليل قرب منه، بل قد تكون فتنة واستدراجاً. فكن بصيراً، تنظر إلى الحقائق لا إلى المظاهر.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· الوظيفة والترقية: موظف يظن أن قربه من المدير وكثرة هداياه له هي التي سترفع مكانته. لكن المدير العادل ينظر إلى الإنتاج والكفاءة والأخلاق. هكذا اللّه ينظر إلى إيماننا وعملنا، لا إلى أموالنا وأولادنا.
· الجامعة: طالب يظن أن ملابسه الفارهة وسيارته الثمينة ستقربه من الأساتذة وترفع درجاته. لكن الأستاذ النزيه ينظر إلى اجتهاده وأخلاقه. هكذا اللّه ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.
· المجتمع: مجتمع يعظم الأغنياء ويقدمهم في المجالس لمجرد غناهم. الإسلام ينهى عن ذلك، ويقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تحرير القلب من التعلق بالمال والولد: هذه الآية تقطع تعلق القلب بالمال والولد كمصدر للقيمة و الكرامة. القيمة الحقيقية عند اللّه.
2. إعادة تعريف النجاح: النجاح الحقيقي ليس في كثرة المال والولد، بل في الإيمان والعمل الصالح. فكم من فقير ناجح عند اللّه، وكم من غني فاشل!
3. الاستعلاء بالحق: كن عزيزاً بدينك وأخلاقك. لا تمد عينيك إلى ما متع به المترفون، ولا تذل لهم طمعاً في مالهم.
الأمر الثاني:
الاستثناء الحق وبيان الوسيلة الحقيقية للقرب (إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد النفي العام، يأتي الاستثناء الذي يحدد الوسيلة الحقيقية الوحيدة للقرب من اللّه.

· دلالة (إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا):
"إلا" هنا للاستثناء المنقطع، بمعنى "لكن". والمعنى: لكن من آمن وعمل صالحاً، فإن إيمانه وعمله الصالح هو الذي يقربه من اللّه زلفى. فليس المال والولد، بل الإيمان والعمل الصالح. وهذا الاستثناء يؤكد أن الأمر محصور في هذا الطريق.
· اللمسة البيانية في ذكر (آمَنَ) قبل (عَمِلَ صَالِحًا):
الإيمان هو الأصل والقاعدة التي ينبني عليها العمل الصالح. فالعمل الصالح لا يقبل إلا إذا صدر عن إيمان صحيح. وهذا هو مقتضى الجمع بينهما في كل القرآن.
· ما هو العمل الصالح الذي يقرب إلى اللّه؟
هو كل عمل يرضاه اللّه، ظاهراً أو باطناً، فرضاً أو نفلا ً، ويشمل:
· حقوق اللّه: كالصلاة والزكاة والصيام والحج والذكر.
· حقوق العباد: كبر الوالدين، وصلة الرحم، والصدق، والأمانة، وإماطة الأذى، والإحسان إلى الجار.
· العمل الدنيوي المتقن بنية صالحة: كالتجارة النزيهة، والصناعة المتقنة، والزراعة النافعة، وطلب العلم النافع.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. توجيه الهمة إلى الأهم: بدلا ً من الانشغال بتكثير المال والولد والتفاخر بهما، وجه همتك إلى تقوية إيمانك وإصلاح عملك.
2. الباب مفتوح للجميع: الغني والفقير كلاهما يستطيع أن يؤمن ويعمل صالحاً. فالطريق إلى اللّه مفتوح للجميع، وليس حكراً على الأغنياء.
3. الاستثمار الحقيقي: الاستثمار الحقيقي الذي ينفعك بعد الموت هو الإيمان والعمل الصالح. فاستثمر وقتك وطاقتك فيه.
الأمر الثالث:
الجزاء الأوفى للمؤمنين (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد ذكر الوسيلة، يأتي ذكر الجزاء العظيم الذي أعده الله لأهلها.

· دلالة (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ):
"الضعف" هنا بمعنى المضاعفة، أي أن الله يضاعف لهم أجر أعمالهم الصالحة أضعافاً كثيرة. كما قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]. وهذا من فضل الله وكرمه، أن يجازي بالقليل كثيراً.
· دلالة (بِمَا عَمِلُوا):
الباء للسببية. أي أن هذا الجزاء المضاعف هو بسبب أعمالهم الصالحة. وهذا يربط النتيجة بالسبب، ويحفز على العمل.
· دلالة (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ):
"الغرفات" هي المنازل العالية الرفيعة في الجنة. "آمنون" أي في أمان دائم من كل خوف وحزن وموت ونصب. وهذا وصف لحالهم في الجنة، حيث الأمن المطلق والنعيم المقيم. وهذا الجزاء يفوق كل ما كان المترفون يتفاخرون به في الدنيا من أموال وأولاد.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الترغيب في العمل الصالح: هذا الوعد العظيم يملأ القلب رغبة في الإيمان والعمل الصالح. فما أعظمه من جزاء!
2. اليقين بفضل الله وكرمه: الله لا يضيع أجر المحسنين، بل يضاعفه أضعافاً كثيرة.
3. الأمن الحقيقي: الأمن الحقيقي ليس في الدنيا، بل في الآخرة في غرفات الجنة. فاطلب هذا الأ من.
الأمر الرابع:
وعيد المسارعين في التكذيب (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ...)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد ذكر جزاء المؤمنين، تذكر الآية الثانية مصير الفريق الآخر، وهم المترفون وأشباههم الذين لم يكتفوا بالكفر، بل سعوا في آيات الله بالتكذيب والصد.

· دلالة (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ):
"يسعون" أي يجتهدون ويبذلون جهدهم. "في آياتنا" أي في إبطالها وتكذيبها والصد عنها. "معاجزين" أي مسابقين معاندين ظانين أنهم يعجزون الله ويفلتون من عقابه. وهذا وصف دقيق لحال المترفين الذين قادوا حملة التكذيب.
· دلالة (أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ):
"محضرون" أي تحضرهم الملائكة إلى العذاب، فلا يستطيعون الفرار ولا الغياب. وهذا مقابل حال المؤمنين "في الغرفات آمنون". فشتان بين المقامين!
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التحذير من الصد عن سبيل الله: هذا الوعيد الشديد يحذر من السعي في إبطال آيات الله أو الصد عنها بأي وسيلة.
2. عدالة الجزاء: كما أن المؤمنين في غرفات آمنون، فإن الكافرين المسارعين في التكذيب في العذاب محضرون. هذا هو العدل الإلهي.
3. عدم الاغترار بإمهالهم: قد ترى المترفين المكذبين في نعيم، فلا يغرك ذلك. فمصيرهم المحتوم هو العذاب.
الأمر الخامس: حكمة إرسال الرسل ضعفاء في أعين الناس

هذا المقطع من سورة سبأ، والذي يدور حول المال والولد وعدم كونهما معياراً للقرب من الله، يفتح لنا باباً للتدبر في حكمة عظيمة من حكم الله في إرسال الرسل. فالله سبحانه وتعالى، مع قدرته على أن يجعل رسله ملوكاً أغنياء ذوي جاه وسلطان، أرسلهم بشراً ضعفاء في أعين الناس، قليلي المال والولد. لماذا؟

١.ليكون الإيمان اختيارياً لا اضطرارياً:
لو أرسل الله الرسل ومعهم الجبال من ذهب، والوحوش تطيعهم، والملائكة تقاتل معهم، لآمن الناس كلهم، ولكن إيمان اضطرار لا إيمان اختيار. والإيمان الاضطراري لا قيمة له. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]. فالله أراد

أن يكون الإيمان ناتجاً عن اقتناع قلبي واختيار حر، حتى يستحق المؤمنون أجر المبتلين وثوابهم.

٢.لسقوط البلاء وبطلان الجزاء:
لو جاء الرسل بكل هذه المظاهر القاهرة، لسقط الابتلاء الذي هو سر وجودنا في الدنيا. ولما كان هناك معنى للثواب والعقاب. فاللّه أراد أن يمتحن عباده: هل يؤمنون بالغيب ويتبعون الرسل وهم يرونهم بشراً مثلهم، أم يستهويهم بريق الدنيا وزخرفها فيكذبون؟ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94].

٣.ليكون الرسول قدوة للضعفاء:
لو كان الرسل أغنياء مترفين، لكانت القدوة بهم صعبة على الفقراء والمستضعفين الذين هم أكثر أتباع الرسل. ولكن لما كان الرسل فقراء، صاروا قدوة لكل فقير ومستضعف، يعلمه أن الكرامة عند اللّه ليست بالمال، بل بالإيمان والعمل الصالح.

٤.لتظهر حقيقة الاستعلاء بالحق:
جعل اللّه رسله أولى قوة في عزائمهم، ماضين في الحق، لا تردهم عنه سخرية المستهزئين ولا إغراءات المترفين. وجعلهم ضعفاء فيما ترى الأعين من حالاتهم، قليلي المال والعدد. فكانت هذه الصورة هي التجسيد الحقيقي لمعنى الاستعلاء بالحق. لقد استعلوا بإيمانهم ويقينهم على كل قوى المادة والسلطان، فانتصروا في النهاية. وهكذا أراد اللّه أن يعلمنا أن القوة الحقيقية هي قوة الحق وا لإيمان، لا قوة المال والجاه.

الأمر السادس

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1.سؤال الميزان: عندما أقيم علاقاتي مع الناس، أو أحكم على قيمتهم، هل ميزاني هو ميزان القرآن)الإيمان والعمل الصالح (أم ميزان المادة) المال والجاه(؟
2.سؤال الاستعلاء بالحق: هل أستطيع أن أكون عزيزاً بديني وقيمي في مجتمع يقدس المظاهر المادية؟ كيف أتدرب على ذلك؟
3.سؤال القرب من اللّه: ما هي الأعمال الصالحة التي أتقرب بها إلى اللّه يومياً؟ هل أستشعر أنها هي التي ترفعني عنده؟
4.سؤال الجزاء: عندما أسمع وعد اللّه بـ "جزاء الضعف" و"الغرفات الآمنة"، هل يشتاق قلبي إليها؟ كيف يحفزني هذا على العمل؟
5.سؤال حكمة ضعف الرسل: عندما أرى ضعف المسلمين في بعض الأماكن، هل أتذكر أن هذه هي سنة اللّه في الابتلاء، وأن النصر مع الصبر والإيمان؟
6.سؤال السعي في الآيات: هل هناك من حولي "يسعى في آيات اللّه معاجزاً" بوسائل الإعلام أو التعليم أو التوجيه؟ ما هو دوري في مواجهة ذلك؟

الأمر السابع

كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

١.في تحديد الأولويات:

· التطبيق: راجع جدول يومك وأسبوعك. كم ساعة تقضيها في جمع المال والاهتمام بالأولاد (أمور دنيوية)، وكم ساعة تقضيها في تقوية إيمانك وعملك الصالح (الصلاة، القرآن، الذكر، صلة الرحم)؟ حاول أن توازن، وأن تجعل نصيب الآخرة هو الأكبر.

٢.في التعامل مع الفقراء والمستضعفين:

· التطبيق: لا تحتقر فقيراً لفقره. أكرمه، وتواضع له. فقد يكون أقرب إلى اللّه منك. وتعامل مع الناس بميزان القرآن لا بميزان الدنيا.

٣.في تربية الأبناء:

· التطبيق: لا تزرع في أبنائك حب المال والتفاخر به. علمهم أن قيمة الإنسان بإيمانه وأخلاقه. احكِ لهم قصص الأنبياء وهم فقراء، وكيف أعزهم اللّه.

٤.في الدعوة إلى اللّه:

· التطبيق: لا تظن أن نجاح الدعوة مرتبط بالمال والسلطان. اصدق في دعوتك، وثق أن الله هو الذي ينصر دينه، كما نصر نبيه ﷺ وهو قليل المال والولد. استعل بالحق الذي معك.

٥.في معالجة مشاعر الحسد:

· التطبيق: إذا رأيت أحداً أكثر منك مالاً وولداً، فلا تحسده. قل: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت". واعلم أن المال والولد لا يقربانه من الله إن لم يؤمن ويعمل صالحاً. واجتهد أنت في الإيمان والعمل الصالح.

الأمر الثامن

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١.في بناء الإنسان:

· إنسان متحرر من عبودية المال: لا يستعبده المال، بل يستخدمه في طاعة الله.
· إنسان مستعل بالحق: عزيز بإيمانه، لا تذله المظاهر المادية.
· إنسان صاحب رسالة: يعيش لأهداف عليا، هي نيل رضا الله والجنة.

٢.في بناء المجتمع:

· مجتمع القيم والأخلاق: تسوده قيم الإيمان والعمل الصالح، لا قيم المادة والاستهلاك.
· مجتمع التكافل والتراحم: تزول فيه الفوارق الطبقية الحادة، ويحل محلها التواد والتراحم.
· مجتمع العدالة والإنصاف: توزن فيه الناس بميزان الحق والعدل، لا بميزان المال والجاه.

٣.في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الجوهر لا المظهر: لا تغتر بالمظاهر المادية الفارغة، بل تهتم بجوهر الإنسان وأخلاقه وإيمانه. وهذا هو سر قوتها وبقائها.
· دولة الحق والعدل: تقوم على أساس الإيمان والعمل الصالح، وتسعى لإقامة العدل بين الناس، وتحارب الفساد والمادية الجوفاء.
· دولة الاستعلاء بالحق: لا تخضع للقوى المادية الطاغية، بل تستعلي بإيمانها وحقها، وتقود العالم بقيمها ومبادئها، كما فعلت دولة الإسلام الأولى.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد سمعت الحكم الفصل من الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ . فلا تكن من الذين علقوا آمالهم على هذه الفانية. وجه وجهك، وقلبك، وعملك إلى الباقيات الصالحات: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ . فهذا هو الطريق الوحيد إلى القرب من الله، وإلى جزاء الضعف، وإلى الغرفات الآمنة.

وانظر إلى سيد المرسلين، محمد ﷺ، كيف كان قليل المال والولد، مستضعفاً في أعين قومه. لكنه استعلى بالحق الذي جاء به، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة. حتى أعزه الله ونصره، وجعل كلمته هي العليا. فكن على دربه، واستعل بالحق، ولا تنخدع بالمظاهر الكاذبة. واعلم أن الفائزين هم الذين قال الله فيهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ .

سادسا

أيها المؤمن الذي تتقلب في قلبه مشاعر الخوف من الفقر، أيها الإنسان الذي يظن أن الإنفاق ينقص المال ولا يزيده، أيها العقل الذي أسره وهم أن الرزق بيد البشر، تعال بنا نقف مع آية كريمة من سورة سبأ، هي بلسم للقلوب القلقة، وضمانة إلهية للرزق، ودعوة إلى فتح أبواب الخير. إنها الآية التي تجمع بين تقرير حقيقة الرزق بيد الله، وبين الوعد الصادق بالخلف والعوض لكل من ينفق في سبيله. إنها آية تحرر الإنسان من شح نفسه، وتفتح له أبواب البركة والزيادة.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه أن يبلغ المؤمنين هذه البشرى العظيمة:
﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39].

هذه الآية الكريمة هي الرد العملي على فتنة المال التي حذرت منها الآيات السابقة. فبعد أن نهى الله عن الاغترار بالمال والولد، وعن جعلهما مقياساً للقرب منه، وبعد أن دعا إلى الإيمان والعمل الصالح،

يأتي هنا ليفتح للمؤمنين باباً عظيماً من أبواب الخير والبركة: الإنفاق في سبيله. وكأنه يقول لهم: "لا تمسكوا أيديكم خشية الفقر، فما أنفقتم من شيء في طاعتي، فأنا أخلفه عليكم. أنا الرزاق، وأنا خير الرازقين". إنها آية تطرد الوساوس، وتشجع على البذل والعطاء، وتزرع الثقة في وعد الله الذي لا يتخلف.

موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن المال والولد، وتصحيح المفاهيم المتعلقة بهما. فبعد أن نفت الآ ية (37) أن تكون الأموال والأولاد سبباً للقرب من الله، وأثبتت أن السبب الوحيد هو الإيمان والعمل الصالح، تأتي هذه الآية لتبين أحد أهم صور العمل الصالح التي تقرب إلى الله، وهو الإنفاق في سبيله. وتربط ذلك بالرزق، فتقول: لا تخشوا الفقر من الإنفاق، فإن الله هو الرزاق، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وما تنفقونه فهو يخلفه. وهذا الربط بديع، حيث يوجه المؤمن إلى استخدام المال -وهو فتنة- في طاعة الله، ويضمن له أن ذلك لا ينقصه شيئاً، بل يزيده.

الأمر الأول:

تقرير حقيقة أن الرزق بيد الله وحده (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية كما بدأت الآية (36) بالأمر ﴿قُلْ﴾ وتقرير الحقيقة نفسها، ولكن بزيادات مهمة.

· دلالة (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ):

تكرر هنا معنى أن الله هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، وهو الذي يضيقه على من يشاء. لكن اللفتة الجديدة هنا هي إضافة "مِنْ عِبَادِهِ" و "لَهُ".

· "مِنْ عِبَادِهِ": أي أن هذا البسط والقدر واقع على عباده، وليس على كل أحد. وفيه إشارة إلى أن ا لأمر كله لله في عباده، يتصرف فيهم كيف يشاء بحكمته.

· "لَهُ": أي أن التقدير حاصل لهذا العبد بعينه، فمن بسط له فله ذلك، ومن قدر عليه فله ذلك. وهذا يزيد المعنى تخصيصاً ودقة.

· لماذا تكرر هذا المعنى؟

تكرر هذا المعنى ليؤكد حقيقة مهمة، وهي أن أمر الرزق كله بيد الله. وهذا التوكيد ضروري ليطمئن قلب المؤمن عند الإنفاق. فإذا أيقن أن الرزق بيد الله، وأنه هو الذي يبسط ويقدر، سهل عليه أن ينفق مما رزقه الله، واثقاً بأن الذي أعطاه أول مرة قادر على أن يعطيه مرة أخرى، وأن يخلف عليه ما أنفقه.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. التخلص من وهم أن الرزق بيد البشر: هذه الآية تؤكد لك أن صاحب العمل، أو الحكومة، أو أي جهة بشرية، ليست هي مصدر رزقك الحقيقي. الله هو الرزاق. فثق به، وتوكل عليه.

2. الاستعداد النفسي للإنفاق: عندما توقن أن الله هو الرزاق، يزول من قلبك الخوف من الفقر، وتستعد للإنفاق بسماحة نفس.

3. الرضا بقسمة الله: سواء كنت في بسط أو قدر، فالأمر بيد الله وحده، وهو أعلم بمصلحتك. فارضَ واطمئن.

الأمر الثاني:

الوعد الإلهي بالخلف والعوض (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذا هو محور الآية وبيت القصيد فيها. إنه الوعد الإلهي الصادق الذي يبدد كل مخاوف الشح والبخل.

· دلالة (وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ):

"ما" شرطية تفيد العموم، أي أي شيء تنفقونه، قليلا ً كان أم كثيراً. "في سبيل الله" مفهوم من السياق، أي النفقات التي تقصد بها وجه الله وطاعته (الزكاة، الصدقة، النفقة على الأهل، الجهاد، وجوه الخير).

· دلالة (فَهُوَ يُخْلِفُهُ):

"الفاء" رابطة لجواب الشرط. "هو" ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر. أي الله نفسه هو الذي يتولى إخلاف ما أنفقتم. "يخلفه" أي يعطي بدله وعوضه في الدنيا أو في الآخرة.

وهذا الوعد يشمل:

· الخلف في الدنيا: بأن يبارك الله في المال المتبقي، أو يفتح له أبواب رزق جديدة، أو يدفع عنه المصائب التي تذهب بالمال.
· الخلف في الآخرة: بأن يضاعف له الأجر أضعافاً كثيرة، ويدخره له في جنته.
· اللمسة البيانية في الفعل (يُخْلِفُهُ):
لم يقل "يعطيه" أو "يجزيه"، بل قال "يخلفه" . والخلف هو البدل والعوض. فكأن الله يقول: "أنا أجعل نفسي خليفة عنكم في هذا المال الذي أنفقتموه. أعطيكم بدله وعوضه". وما أعظمه من ضمان! إنه كمن يعطي تاجراً ضماناً من البنك المركزي بأن أي مبلغ يصرفه في مشروع معين سيعوضه عنه أضعافاً. فكيف إذا كان الضامن هو الله رب العالمين؟!
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المستثمر الحكيم: مستثمر يشتري أسهماً في شركة واعدة، فينفق ماله وهو واثق أنه سيعود إليه بأرباح. فكيف بمن ينفق في سبيل الله، وهو يوقن أن الله سيخلفه؟!
· الفلاح الباذر: فلاح يرمي الحب في الأرض، فيظن الجاهل أنه أضاعه، بينما هو يعلم أن كل حبة ستعود له بسنابل كثيرة. هذا هو حال المنفق في سبيل الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 261].
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. طرد وساوس الشيطان: الشيطان يخوفكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. هذه الآية هي الترياق المضاد لذلك الخوف.
2. فتح باب الإنفاق: هذا الوعد يفتح أمامك باب الإنفاق على مصراعيه. فلماذا تبخل وقد ضمن لك الله الخلف؟
3. تنمية روح العطاء: بدل أن تكون أسيراً للمال، تصبح أنت سيده، تنفقه في طاعة الله، واثقاً بـ العوض منه.
4. تحويل الإنفاق إلى تجارة رابحة: لم يعد الإنفاق خسارة، بل هو تجارة رابحة مع الله، أرباحها مضمونة.
الأمر الثالث:
الخاتمة باسم الله (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد الوعد بالخلف، تختم الآية بهذا الاسم العظيم، ليكون الضمان الأكبر والتوكيد الأبلغ.

· دلالة (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ):
"هو" ضمير فصل للتوكيد. "خير الرازقين" أي أن الله هو أفضل من يُطلب منه الرزق، وأكرم من يعطي، وأصدق من يفي بوعده. فرزقه أوسع، وعطاؤه دائم، وخلفه مضمون.
لماذا هو خير الرازقين؟
· لأنه يرزق بغير حساب.
· لأنه يرزق الطائع والعاصي.
· لأنه لا يمنّ بعطائه.
· لأن خزائنه لا تنفد.
· لأنه يضاعف القليل أضعافاً كثيرة.
· الربط بين الوعد والاسم:
عندما تقرأ الوعد "فهو يخلفه"، ثم تقرأ "وهو خير الرازقين"، فإن قلبك يمتلئ يقيناً وطمأنينة. فمن كان خير الرازقين، فخلفه هو خير خلف، وعطاؤه هو خير عطاء. فلا تخشَ الفقر، وأقبل على الإنفاق.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تعزيز الثقة بالله: هذا الاسم يعزز في قلبك الثقة المطلقة بالله، ويجعلك تتوجه إليه وحده في طلب الرزق.
2. التوكل الصادق: التوكل على الله لا يعني ترك الأسباب، بل يعني الأخذ بالأسباب ثم تفويض الأ مر إلى خير الرازقين.
3. التخلص من التعلق بالبشر: إذا أيقنت أن الله خير الرازقين، فلن تتعلق بغيره، ولن تخاف من أحد في رزقك.
الامر الثالث: ماذا يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وكيف نفعل ذلك في واقعنا؟

أولا ً: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟

1. يريد منا أن نوقن أن الرزق بيده وحده: يريد أن نحرر قلوبنا من التعلق بالأسباب، ونعلقها به

وحده. فهو الذي يبسط الرزق ويقدر، لا مديرنا ولا شركتنا ولا حكومتنا.
2. يريد منا أن نكون أسخياء منفقين في سبيله: يريدنا أن نخرج من دائرة الشح والبخل، وندخل في دائرة الجود والكرم، منفقين مما رزقنا في وجوه الخير.
3. يريد منا أن نثق في وعده بالخلف: يريدنا أن نصدقه في وعده، وأن نوقن أن ما ننفقه في سبيله لا يضيع، بل يعود إلينا مضاعفاً في الدنيا والآخرة.
4. يريد منا أن نتعامل معه بصفته "خير الرازقين": يريدنا أن نتوجه إليه وحده بالطلب، وأن نثق في عطائه، وألا نطلب الرزق من غيره.

ثانياً: كيف نفعل هذه المعاني في واقعنا؟ (تطبيقات عملية)

1. تمرين عملي للتغلب على وسواس الشح:
كلما هممت بالصدقة أو الإنفاق، وجاءتك وساوس الشيطان: "المال سينقص، أنت بحاجة إليه"، فتذكر هذه الآية فوراً: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾. وقل بقلبك: "ربي وعدني بالخلف، وهو خير الرازقين". ثم أقدم على الإنفاق بثقة.
2. تخصيص مبلغ شهري للإنفاق:
حدد مبلغاً ثابتاً من دخلك الشهري، واجعله للإنفاق في سبيل الله (صدقة، كفالة يتيم، مساعدة قريب محتاج، دعم مشروع خيري). تعامل مع هذا المبلغ على أنه استثمار مع الله، وأرباحه مضمونة.
3. تغيير نظرتك للمال:
انظر إلى المال الذي في يدك على أنه مال الله، استخلفك فيه. أنت مجرد وكيل. والوكيل الأمين هو الذي ينفق من مال موكله فيما يرضيه. فأنفق في طاعة الله، وثق أن الموكل (الله) سيخلفه عليك.
4. تربية الأبناء على الإنفاق:
شجع أبناءك على التصدق من مصروفهم. وعندما يفعلون، ادعُ لهم بالبركة في مالهم. واربط لهم ذلك بهذه الآية، ليتعلموا منذ الصغر أن الإنفاق لا ينقص المال بل يزيده.
5. في مجال الدعوة:
استخدم هذه الآية في تشجيع الناس على دعم المشاريع الخيرية والدعوية. ذكرهم بوعد الله بـ الخلف، وأن الله خير الرازقين.

الأمر الرابع
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

1. سؤال اليقين: عندما أقرأ أن الله "يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر"، هل يؤثر هذا في قلقي على المستقبل؟ هل أنا موقن حقاً أن رزقي بيده وحده؟
2. سؤال الشح: هل أجد في نفسي تردداً وبخلاً عند إخراج الصدقة؟ كيف أعالج هذا التردد بالاستعانة بهذه الآية؟
3. سؤال التجربة: هل جربت أن تنفق في سبيل الله وأنت موقن بوعد الخلف؟ هل رأيت أثراً لذلك في حياتك (بركة في المال، سعة في الرزق، تيسير أمور)؟
4. سؤال خير الرازقين: عندما أطلب الرزق، هل قلبي معلق بالله "خير الرازقين"، أم أني أعتمد على جهدي وعلاقاتي فقط؟
5. سؤال الأولويات: هل أحرص على الإنفاق في سبيل الله كما أحرص على الادخار للمستقبل؟ كيف أوازن بينهما؟

الأمر الخامس
دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان كريم سخي: يتخلص من شح نفسه، ويصبح جواداً بما في يده.
· إنسان مطمئن القلب: لا يقلق على رزقه، لأنه واثق بوعد الله.
· إنسان متوكل على الله: يبذل السبب، ثم يفوض أمره إلى خير الرازقين.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع التكافل والتضامن: إذا سادت ثقافة الإنفاق المبنية على وعد الله بالخلف، انتشرت الصدقات والتبرعات، وزالت مظاهر الفقر والحاجة.
· مجتمع البركة والنماء: الإنفاق في سبيل الله يجلب البركة على المجتمع كله، ويدفع البلاء.

· مجتمع القوة الاقتصادية: الأموال التي تنفق في وجوه الخير تدور وتنمو، وتساهم في تحريك الا قتصاد الحقيقي.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الجود والكرم: الحضارة الإسلامية قامت على أكتاف أسخياء كرماء، أنفقوا أموالهم في تجهيز الجيوش، وبناء المساجد والمدارس والمستشفيات، ودعم العلم والعلماء.
· دولة العدالة الاجتماعية: دولة التوحيد تشجع على الإنفاق، وتجعل الزكاة فريضة، لتضمن حق الفقير في مال الغني، وتحقق التوازن الاجتماعي.
· دولة القوة والاستقلال: المجتمع الذي ينفق أفراده على مشاريعهم الخيرية والدعوية والعلمية، هو مجتمع قوي مستقل، لا يحتاج إلى التذلل لأعدائه لطلب المال.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، هذه الآية الكريمة تفتح لك كنزاً من كنوز اليقين. إنها تقول لك بكل وضوح: لا تخف من الإنفاق! فما عندكم ينفد، وما عند الله باق. وما أنفقتم من شيء في طاعتي، فأنا ضامن لكم خلفه. أنا الذي بيدي الرزق، أنا خير الرازقين.

فلا تستمع لوساوس الشيطان الذي يعدكم الفقر. استمع لنداء ربك الذي يعدكم مغفرة منه وفضلا ً. أخرج يدك من جيبك، وامددها بالخير. أنفق في سبيل الله، ولو بالقليل. وتأكد أن كل درهم تنفقه، يعود إليك أضعافاً مضاعفة في الدنيا والآخرة. وسترى بركة ذلك في مالك، وفي صحتك، وفي أهلك، وفي قبرك، وفي آخرتك.

اجعل لك في كل يوم صدقة، ولو بشق تمرة. وتعاهد مشاريع الخير بدعمك. وكن من عباد الله الأ سخياء الكرماء، الذين وثقوا بوعد ربهم، فأقبلوا على الإنفاق بسماحة نفس وطيب قلب، فكانوا من الفائزين.
القسم الثالث
اولا
أيها الإنسان الذي تخدعه المظاهر، أيها القلب الذي يتعلق بغير الله رجاء أو خوفاً، أيها العقل الذي استسلم لخرافات الشرك ووساوسه، تعال بنا نقف مع آية كريمة من سورة سبأ، تنقلنا نقلة هائلة من مشاغل الدنيا وفتنها إلى مشهد يوم القيامة العظيم. إنها الآية التي تفتح لنا نافذة على المحكمة الإ لهية الكبرى، حيث يُفضح كل باطل، وتنكشف كل حقيقة، ويتبرأ المعبودون من عابديهم. إنها آية تزلزل العقائد الفاسدة، وتعيد الحق إلى نصابه، وتحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يرينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، مشهداً فيه العبرة والعظة:
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: 40].

هذه الآية الكريمة هي بداية فصل جديد في سورة سبأ، فصل ينتقل من الحجاج في الدنيا إلى المشاهدة في الآخرة. بعد أن أقامت الآيات السابقة الحجج والبراهين على بطلان الشرك، وردت على شبهات المترفين، وبينت أن القرب من الله بالإيمان والعمل الصالح لا بالمال والولد، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله، تأتي هذه الآيات لتأخذ بيدنا إلى يوم الفصل، لنرى بأعيننا كيف يُسأل المعبودون من دون الله، وكيف يتبرؤون من عابديهم، وكيف يندم المشركون حيث لا ينفع الندم. إنها دعوة للاعتبار ونحن في زمن المهلة.

موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

بعد أن انتهى المقطع السابق بالحديث عن الرزق والإنفاق (آية 39)، تبدأ من هنا مجموعة من الآيات (40-42) تتحدث عن مشاهد يوم القيامة، وتركز بشكل خاص على فضح الشرك بالملائكة. وكأن الله يقول: "لقد أقمنا عليكم الحجة في الدنيا، وبينا لكم الحق، فإن أصررتم على باطلكم، فانظروا ماذا ينتظركم يوم القيامة!". وهذا الانتقال من الدنيا إلى الآخرة هو أسلوب قرآني بديع في الترهيب و الترغيب، يجعل المؤمن يعيش الآخرة وهو في الدنيا، فيستعد لها.
الأمر الأول:
مشهد الحشر والجمع (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بظرف الزمان ﴿وَيَوْمَ﴾، وهو منصوب بفعل مضمر تقديره "اذكر"، أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العظيم، ليكون لهم رادعاً وزاجراً.

· دلالة (يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا):
"يحشرهم" أي يجمعهم من قبورهم وأماكن تفرقهم، ويسوقهم إلى موقف الحساب. "جميعاً" أي كلهم، لا يتخلف منهم أحد: العابدون والمعبودون، المشركون والملائكة. إنه مشهد الجمع الأكبر الذي لا مفر منه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49-50].
· اللمسة البيانية في (يَحْشُرُهُمْ):
الفعل "يحشر" يدل على الجمع بقوة وقهر. فليس لأحد أن يتخلف أو يهرب. الكل محشور إلى الله، طوعاً أو كرهاً.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. تذكرة بيوم الجمع: هذه الآية تذكرنا بيوم عظيم سنقف فيه جميعاً بين يدي الله. هذا التذكر يهون علينا مصاعب الدنيا، ويجعلنا نستعد لذلك اليوم.
2. تحطيم كبرياء المتكبرين: المترفون والمستكبرون الذين كانوا في الدنيا يأبون الخضوع، ها هم يحشرون أذلاء صاغرين. فأين كبرياؤهم الآن؟!
3. اليقين بعدالة الله: جمع الجميع في صعيد واحد دليل على عدل الله المطلق، حيث لا يفلت ظ الم من العقاب، ولا يضيع أجر محسن.
الأمر الثاني:
السؤال التوبيخي للملائكة (ثمّ يَقولُ لِلمَلائِكةِ أهَؤُلاء إيّاكمْ كانوا يَعبُدُونَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن يتم حشرهم جميعاً، يأتي المشهد الأهم: ﴿ثمّ يَقولُ لِلمَلائِكةِ أهَؤُلاء إيّاكمْ كانوا يَعبُدُونَ﴾.

· دلالة (ثمّ):
للتراخي الزمني أو الرتبي. فهذا الموقف يقع بعد جمعهم في موقف الحساب.
· دلالة توجيه السؤال للملائكة:
هذا السؤال توبيخي للمشركين في المقام الأول، وليس استفهاماً حقيقياً لله عما كانوا يفعلون، فهو سبحانه أعلم بهم. ولكنه يوجه السؤال للملائكة بحضرة المشركين، ليسمعوا جوابهم، وليكون ذلك إفحاماً وإظهاراً لبطلان معتقدهم على رؤوس الأشهاد.
· دلالة (أهَؤُلاء إيّاكمْ كانوا يَعبُدُونَ):
"أهؤلاء" إشارة إلى المشركين، وفيها معنى التحقير لهم. "إياكم" ضمير نصب منفصل يفيد الا ختصاص. "كانوا يعبدون" أي يعبدونكم من دون الله.
والسؤال موجّه للملائكة: هل هؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم أنتم؟
· لماذا خص الله الملائكة بالسؤال؟
لأن من أعظم صور الشرك التي وقع فيها المشركون هي عبادة الملائكة. فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وعبدوهم من دونه، وصنعوا لهم تماثيل، وتقربوا إليهم بالقرابين. فجاء هذا السؤال ليكشف زيف هذا الاعتقاد، وليبين أن الملائكة براء من هذه العبادة.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· في المحكمة: قاضٍ يعلم أن فلاناً بريء، لكنه يسأله بحضور المتهمين: "هل أنت فعلت كذا؟" ليسمع الجميع إعلان براءته. هذا هو حال الله مع الملائكة.
· الأب مع أبنائه: أب يعلم أن أحد أبنائه لم يكسر الإناء، لكنه يسأله أمام الجميع: "هل أنت كسرت ا لإناء؟" ليظهر الحقيقة ويكشف المخطئ الحقيقي.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الخزي والفضيحة للمشركين: هذا الموقف فيه غاية الخزي والإهانة للمشركين، حيث يُسأل عنهم من كانوا يعبدونهم، فيتبرؤون منهم.
2. إظهار بطلان الشرك: هذا المشهد يقطع دابر كل شرك، ويبين أن المعبودين من دون الله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فكيف يملكونه لغيرهم؟!
3. تعظيم مقام الملائكة: السؤال الإلهي للملائكة يظهر مكانتهم عند الله، ولكن في نفس الوقت يظهر أنهم عبيد له، لا يملكون شيئاً من دونه.
الأمر الثالث:
ما بعد الآية (تبرؤ الملائكة وإعلان البراءة)

الآية (40) تقف عند السؤال، والجواب يأتي في الآية التالية (41) التي يقول فيها تعالى: ﴿قالُوا

سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}. ولكن لا بد من ا لإشارة إليه لتكتمل الصورة:

- {سُبْحَانَكَ}: تنزيه لله عن الشريك. فكأنهم يقولون: "ننزهك يا ربنا أن يكون لك شريك في العبادة".
- {أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم}: أنت يا ربنا الذي نواليه ونطيعه ونعبده، لا هؤلاء المشركون. فلا ولاية بيننا وبينهم.
- {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ}: هذا هو كشف الحقيقة. هم لم يعبدوا الملائكة حقيقة، بل كانوا يعبدون الشياطين والجن الذين كانوا يزينون لهم عبادة الملائكة، ويصورون لهم أنهم يعبدون الملائكة. ف الشياطين هم الذين أضلوهم وتلقوا عبادتهم.
- {أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}: أكثر المشركين كانوا مؤمنين بالجن، مصدقين لهم، متبعين لوسوستهم.

الأمر الرابع: ماذا يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية؟ وكيف نفعل ذلك في واقعنا؟

أولا ً: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟

1.يريد منا أن نستحضر مشهد يوم القيامة دائماً:
يريدنا أن نعيش في الدنيا وكأننا نرى ذلك اليوم رأي العين. هذا الاستحضار هو أعظم واعظ وزاجر.
2.يريد منا أن نتحقق من بطلان عبادة غير الله:
يريدنا أن نوقن بأن كل ما يعبد من دون الله (ملائكة، أنبياء، أولياء، جن، أصنام) سيتبرأ من عابديه يوم القيامة، ولن ينفعهم شيئاً.
3.يريد منا أن نخلص العبادة له وحده:
بعد أن يتبين لنا بطلان الشرك، يريد منا أن نوجه عبادتنا كلها (خوفاً، رجاءً، دعاءً، ذبحاً، نذراً) لله وحده لا شريك له.
4.يريد منا أن نحذر من عبادة الشيطان في صورتها الخفية:
الآية (41) تكشف أن المشركين كانوا في الحقيقة يعبدون الشياطين. وهذا يحذرنا من أن الشيطان قد يزين لنا عبادة غير الله بصور مختلفة (كالتعلق المفرط بالأشخاص، أو الخوف من غير الله، أو طاعة المخلوق في معصية الخالق).

ثانياً: كيف نفعل هذه المعاني في واقعنا؟ (تطبيقات عملية)

1.تمرين استحضار يوم الحشر:
خصص دقائق كل يوم، ويفضل في وقت السحر أو قبل النوم، لتتخيل نفسك في ذلك الموقف العظيم: الناس جميعاً محشورون، والملائكة والأنبياء، وأنت بينهم. ثم تفكر في جوابك عندما تسأل: من كنت تعبد؟ هذا التمرين يحيي القلب.
2.مراجعة توحيد العبادة:
راجع قلبك وأعمالك. هل هناك شيء تصرف له نوعاً من العبادة لغير الله؟ (خوف من مخلوق أكثر من خوفك من الله؟ رجاء في مخلوق أكثر من رجائك في الله؟ حب لمخلوق يقدم على حب الله؟). طهر قلبك من هذه الشوائب.
3.الحذر من التعلق المفرط بالأشخاص:
تعلق بعض الناس بالأولياء والصالحين تعلقاً يوصل إلى حد العبادة (دعاؤهم، التوسل بهم، النذر لهم). هذه الآية تحذر من ذلك. فحتى الملائكة والأنبياء يتبرؤون ممن عبدوهم. فأخلص تعلقك بالله وحده.
4.تعليم الأبناء عقيدة التوحيد:
استخدم هذه الآية لتعليم أبنائك أن عبادة غير الله باطلة، وأن كل معبود من دون الله سيتبرأ من عابده يوم القيامة. هذا يغرس فيهم التوحيد منذ الصغر.

الامرالخامس
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

1.سؤال الحشر: عندما أقرأ "ويوم يحشرهم جميعا"، هل أشعر برهبة ذلك اليوم؟ كيف يؤثر هذا الشعور على استعدادي له؟
2.سؤال العبادة: لمن أصرف عبادتي حقا؟ هل لله وحده؟ أم أن قلبي معلق بشيء آخر) مال، جاه، شخص(؟
3.سؤال التبرؤ: هل أدرك أن كل من أرجوه أو أخافه من دون الله سيتبرأ مني يوم القيامة؟ كيف يغير هذا من سلوكي؟

.4سؤال عبادة الجن: هل أدرك أن الشيطان قد يزين لي المعاصي والبدع حتى تصير كالعبادة له؟ كيف أحذر من ذلك؟
.5سؤال الملائكة: عندما أعرف أن الملائكة يتبرؤون ممن عبدهم، هل أزداد يقيناً بأنهم عباد مكرمون لا يعبدون؟

الأمر السادس

دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان موحد خالص: لا يعبد إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا الله.
· إنسان مستعد للقاء الله: يعيش حياته وهو يستعد ليوم الحشر والحساب.
· إنسان متحرر من الخرافة: لا يؤمن بشركاء ولا وسطاء، بل علاقته بالله مباشرة.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع التوحيد الخالص: تختفي منه مظاهر الشرك والخرافة (كالتبرك بالأضرحة والقبور، والذهاب للسحرة والمشعوذين).
· مجتمع العدل والمساواة: لأن الجميع عبيد لله، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.
· مجتمع الأمن والطمأنينة: لأن أفراده لا يخافون من أحد إلا الله.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة التوحيد: الحضارة الإسلامية قامت على أساس "لا إله إلا الله". وهذه الآية ترسخ هذا الأ ساس، وتجعله متيناً لا يتزعزع.
· دولة العقيدة الصافية: دولة التوحيد تحارب كل مظاهر الشرك والوثنية، وتبني مجتمعاً على أساس العبودية الخالصة لله.
· دولة الاستعلاء بالحق: لأنها تعلم أن كل ما سوى الله باطل، فهي تستعلي على كل قوى الباطل في الأرض، ولا تخضع إلا لله.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، هذه الآية الكريمة تأخذ بيدك إلى المشهد الأكبر، حيث تجتمع الخلائق، ويسأل المعبودون من دون الله، فيتبرؤون من عابديهم. إنها تريد أن تقول لك: "لا تتعلق بغير الله! فكل من تعلقت به سيتبرأ منك يوم القيامة. تعلق بالله وحده، فهو وليك الذي لا يتبرأ منك، وهو حسبك ونعم الوكيل" .

فأخلص عبادتك لله. واجعل محبتك وخوفك ورجاءك له وحده. واستعد ليوم الحشر، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. واعلم أن العزة لله جميعاً، وأن من أراد العزة والكرامة فليطلبها من الله وحده.

ثانيا

أيها القلب الذي يبحث عن الحقيقة، أيها العقل الذي سئم زيف الدنيا وخداعها، أيها الإنسان الذي يتطلع إلى النجاة يوم الفزع الأكبر، تعال بنا نستكمل المشهد المهيب الذي بدأناه في الآية السابقة. لقد رأينا هناك كيف جمع الله الخلائق، وكيف سأل الملائكة عن عبادة المشركين لهم. والآن، حان وقت سماع الجواب، جواب الملائكة الأبرار الذي يهز عرش الباطل، ويكشف زيف الشرك، ويعلن الحقيقة التي غفل عنها المشركون في الدنيا. ثم يأتي بعد ذلك إعلان العجز المطلق واستحقاق العذاب، في مشهد تتفطر له القلوب، وتخشع له الأبصار.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يكمل رسم هذه اللوحة الأخروية العظيمة:
﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: 41]
﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: 42].

هاتان الآيتان الكريمتان تمثلان قمة الإفحام وذروة الفضيحة للمشركين. ففي الآية الأولى، تسمع صوت الحق من أفواه الملائكة، يتبرؤون من عابيدهم، ويكشفون أنهم لم يكونوا يعبدونهم حقيقة، بل كانوا يعبدون الشياطين والجن الذين أضلوهم. وفي الآية الثانية، يأتي الحكم الإلهي النهائي: لا نفع ولا ضر بين العابدين والمعبودين، وقد حان وقت العذاب الذي طالما كذبوا به. إنه مشهد تتجسد فيه خيبة الأ

أمل، وتنقطع فيه كل الأسباب، ويبقى الإنسان وحيداً يواجه مصيره المحتوم.

موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

هاتان الآيتان هما تتمة المشهد الذي بدأ في الآية (40). فبعد سؤال الله للملائكة: ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، يأتي الجواب في الآية (41)، ثم يأتي التعقيب الإلهي والحكم النهائي في الآية (42). وهذا التسلسل المنطقي (سؤال، جواب، حكم) يجعل القارئ يعيش أطوار المحاكمة الإلهية، ويدرك أن كل شيء يسير وفق عدل الله المطلق. والهدف من هذا كله هو تحطيم أسطورة الشركاء والشفعاء، وتأكيد أن العبادة لا تنبغي إلا لله، وأن كل معبود سواه باطل.

الأمر الأول:

رد الملائكة وتنزيه الله (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ الجواب من الملائكة بأسلوب التعظيم والتنزيه: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

· دلالة (سُبْحَانَكَ):

كلمة تنزيه وتقديس، أي ننزهك يا ربنا كل التنزيه عن أن يكون لك شريك في العبادة، أو أن نرضى لأنفسنا أن نُعبد من دونك. إنهم يبدأون جوابهم بتبرئة الله من هذا الشرك الفظيع، مؤكدين أنهم عبيده المخلصون، لا يرضون الشرك به.

· دلالة (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم):

"أنت" ضمير فصل للتوكيد. "ولينا" أي ناصرنا ومعبودنا ومتولي أمورنا. "من دونهم" أي لا ولاية بيننا وبين هؤلاء المشركين. نحن أولياؤك وأنصارك، وهم أعداؤك وأعداؤنا. فلا علاقة لنا بهم ولا بعبادتهم. إنه إعلان براءة كامل وواضح.

· اللمسة البيانية في (مِن دُونِهِم):

هذا التعبير يقطع أي التباس. فالملائكة يعلنون أن ولايتهم لله وحده، ولا علاقة لهم بالمشركين الذين عبدوهم. وهذا هو عين ما يفعله كل معبود من دون الله يوم القيامة: يتبرأ من عابديه.

· أمثلة تقريبية:

· المتهم البريء في المحكمة: عندما يُتهم شخص بريء بجريمة لم يرتكبها، فإنه يصرخ بأعلى صوته: "حاشا لله! أنا بريء! لا علاقة لي بهؤلاء المجرمين!". هذا هو حال الملائكة مع المشركين.

· الصديق المخلص والصديق المزيف: شخص مشهور له أصدقاء كثر في وقت الرخاء، فإذا وقع في مشكلة تبرأ منه أصدقاء المصلحة، بينما وقف معه صديقه الوفي. هكذا المشركون في الآخرة، يتبرأ منهم المعبودون، ويبقى الله وحده هو الولي الحق.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. اليقين بأن كل معبود من دون الله سيتبرأ من عابده: سواء كان نبياً، أو ملكاً، أو ولياً، أو حجراً. فلا تغتر بمن تعبده من دون الله، فسيأتي يوم يتبرأ فيه منك.

2. التمسك بولاية الله وحده: الله وحده هو الولي الذي لا يتبرأ من عباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]. فتمسك بولايته.

3. تعظيم الملائكة وعدم عبادتهم: الملائكة أنفسهم ينزهون الله عن الشرك، ويعلنون عبوديتهم له. فكيف نعبدهم من دونه؟! هذا منتهى السفه.

الأمر الثاني:

كشف حقيقة عبادة الجن (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن أعلنوا براءتهم، يأتون ببيان الحقيقة التي كانت خافية على المشركين أنفسهم. فهم كانوا يظنون أنهم يعبدون الملائكة، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يعبدون الشياطين والجن.

· دلالة (بَلْ):

للإضراب، أي ليس الأمر كما تظنون أنكم تعبدوننا، بل الحقيقة هي أنكم كنتم تعبدون الجن.

· دلالة (كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ):

كيف كانوا يعبدون الجن وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة؟ الجواب: أن الشياطين كانت تزين لهم عبادة الملائكة، وتوسوس لهم بذلك، وتصور لهم الأصنام على أنها تماثيل الملائكة. فكان المشركون يطيعون الشياطين في هذا، ويذبحون للأصنام، ويستغيثون بها. فأطاعتهم للشيطان هي عبادة للشيطان

، لأنه هو الذي أمرهم بذلك. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60]. فكل من أطاع الشيطان في معصية الله، فقد عبده.

· دلالة (أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ):

أي أن أكثر المشركين كانوا مؤمنين بالجن، مصدقين لهم، متبعين لوسوستهم. وهذا حال الكثير من الناس اليوم، يصدقون الدجالين والمشعوذين، ويأتمرون بأمر الشياطين.

· أمثلة تقريبية معاصرة:

· المدمن على المخدرات: يظن أنه يتعاطى المخدر "للمتعة"، ولكنه في الحقيقة يعبد المادة ويطيع تاجر المخدرات والشيطان الذي زين له ذلك. هو عبد للمخدر وللشيطان من حيث لا يشعر.

· متابع الموضة بإفراط: شخص يلهث وراء صيحات الموضة التي تخالف الشرع (كالتبرج والملابس الفاضحة)، يظن أنه "مواكب للعصر"، ولكنه في الحقيقة يعبد هوى نفسه ويسير في ركاب شياطين الإ نس والجن الذين يروجون لهذه الموضات.

· المقلد الأعمى للغرب: أمة أو فرد يقلد الغرب في انحلاله الأخلاقي وقيمه المادية، يظن أنه في طريق التقدم، بينما هو في الحقيقة يعبد الشيطان الذي يزين له هذا الضلال.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. الانتباه إلى عبادة الشيطان الخفية: ليست عبادة الشيطان فقط بالسجود له، بل بطاعته في معصية الله. فكل معصية تطيع فيها الشيطان هي لون من ألوان عبادته. فاحذر!

2. عدم الاغترار بالمسميات: قد يسمي الناس أفعالهم بأسماء براقة (تقدم، حرية، انفتاح)، ولكنها في حقيقتها عبادة للشيطان والهوى. كن بصيراً، وانظر إلى حقيقة الأفعال.

3. تحصين النفس بالعلم والإيمان: الطريق الوحيد للنجاة من هذه العبادة الخفية هو العلم بحقيقة التوحيد، والإيمان بالله، والاستعاذة من الشيطان الرجيم.

الأمر الثالث:

إعلان العجز المتبادل يوم القيامة (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن انتهى حوار التبرؤ وكشف الحقيقة، يأتي الحكم الإلهي القاطع: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

· دلالة (فَالْيَوْمَ):

الفاء للتفريع، أي بعد هذا البيان والجواب. "اليوم" أي يوم القيامة. وهذا إعلان بأن اليوم هو يوم الحساب والجزاء، وليس يوم العمل والأسباب.

· دلالة (لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا):

هذا خطاب موجه للعابدين والمعبودين جميعاً. لا يستطيع الملائكة ولا الجن ولا الأصنام أن ينفعوا عابديهم بشيء، ولا أن يدفعوا عنهم ضراً. كما أن المشركين لا يستطيعون أن ينفعوا أنفسهم ولا أن يضروا أحداً. لقد انقطعت الأسباب، وبطلت كل العلاقات التي كانت في الدنيا.

· اللمسة البيانية في الجمع بين النفيين (نَفْعًا وَلَا ضَرًّا):

هذا تعميم ليشمل كل أنواع النفع (جلب خير) والضر (دفع شر). فالمعبودون من دون الله لا يملكون شيئاً من ذلك.

· أمثلة تقريبية:

· في الامتحان: في قاعة الامتحان، وبعد أن يبدأ الوقت، لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً. كل طالب مسؤول عن نفسه. لا ينفع صديق ولا قريب. هذا هو حال يوم القيامة، ولكن بشكل أعظم وأشد.

· عند الموت: عندما يأتي الموت، لا يملك أحد لأحد نفعاً ولا ضراً. الأطباء لا يستطيعون، والأهل لا يستطيعون، والمال لا ينفع. الكل عاجز. هذا نموذج مصغر ليوم القيامة.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. الاعتماد على الله وحده: هذا المشهد يقطع القلب عن التعلق بغير الله. فلماذا تتعلق في الدنيا بمن سيعجز عن نفعك أو دفع الضر عنك يوم القيامة؟ تعلق بالله وحده، فهو الذي يملك النفع و الضر.

2. الاستعداد ليوم تنقطع فيه الأسباب: اعمل لذلك اليوم الذي لن ينفعك فيه إلا عملك الصالح. فما دمت في الدنيا، فأنت في زمن الأسباب، فاغتنمه.

3. اليقين بعدالة الجزاء: هذا المشهد يؤكد أن الجزاء عادل تماماً. فكما أن المعبودين لا يملكون نفعاً ولا ضراً، فهم لا يستطيعون إنقاذ عابديهم من العذاب.

الأمر الرابع:

خطاب العذاب المهين (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد بيان العجز، يأتي الأمر الإلهي بإيقاع العذاب، مصحوباً بالتوبيخ والتقريع.

· دلالة (وَنَقُولُ لِلذِينَ ظَلَمُوا):
وصفهم بـ "الذِينَ ظَلَمُوا" لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وتكذيب الرسل. وهذا الوصف يبين سبب استحقاقهم للعذاب.
· دلالة (ذُوقُوا عَذَابَ النَارِ):
أمر إهانة وإذلال. "ذوقوا" أي جربوا وأحسوا بهذا العذاب الأليم الذي كنتم تكذبون به. ولم يقل "ادخلوا النار" بل قال "ذوقوا عذاب النار"، للإشارة إلى أنهم سيحسون بألمه كما يحس الذائق بطعم الطعام المر البشع.
· دلالة (الَتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ):
هذا هو التوبيخ الأكبر. إنها نفس النار التي كانوا يكذبون بها في الدنيا، ويسخرون من وعيد الرسل بها. ها هي الآن حاضرة أمامهم، يذوقون عذابها. فشتان بين التكذيب في الدنيا والمعاينة في الآخرة!
· اللمسة البيانية في الجمع بين (ذُوقُوا) و (الَتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ):
هذا الجمع يجعل العذاب عذابين: عذاب حسي (ذوقوا عذاب النار)، وعذاب نفسي ومعنوي (التذكير بأنهم كانوا يكذبون بها). وهذا أشد ألماً على النفس من العذاب الحسي وحده.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التصديق الجازم باليوم الآخر: هذه الآية تدعونا إلى أن نصدق بالآخرة تصديقاً جازماً، يظهر أثره في سلوكنا. فمن أيقن بالنار حقاً، هرب منها بالعمل الصالح.
2. الخوف من الندم الذي لا ينفع: هؤلاء يقال لهم "ذوقوا" بعد أن فات الأوان. فاحذر أن تكون منهم. ندم في الدنيا ينفع، وندم في الآخرة لا ينفع.
3. العدل الإلهي: إنهم يذوقون العذاب الذي كذبوا به، وهذا منتهى العدل. فكما كذبوا بالحق، يذوقون نتيجة تكذيبهم.
الأمر الخامس: ماذا يريد منا المولى سبحانه وتعالى من خلال هاتين الآيتين؟ وكيف نفعل ذلك في واقعنا؟

أولا ً: ما الذي يريد منا المولى سبحانه وتعالى؟

1. يريد منا أن نتحقق من بطلان الشرك والشفعاء:
يريدنا أن نوقن بأن كل من نرجوه أو نخافه من دون الله، سيتبرأ منا يوم القيامة، ولن يملك لنا نفعاً ولا ضراً.
2. يريد منا أن ننتبه لعبادة الشيطان الخفية:
يريدنا أن نعلم أن طاعة الشيطان في المعاصي والبدع هي عبادة له. فعلينا أن نحذر من تزيينه، وأن نلتزم بطاعة الله ورسوله.
3. يريد منا أن نستعد ليوم تنقطع فيه الأسباب:
يريدنا أن نعمل لذلك اليوم الذي لن ينفعنا فيه إلا عملنا الصالح. يريدنا أن نغتنم زمن المهلة في الدنيا.
4. يريد منا أن نصدق بوعيده ونستجيب لإنذاره:
يريدنا ألا نكون ممن يكذبون بالنار، بل نصدق بها، ونعمل للنجاة منها.

ثانياً: كيف نفعل هذه المعاني في واقعنا؟ (تطبيقات عملية)

1. مراجعة توحيد الألوهية:
اسأل نفسك: هل في قلبي تعلق بغير الله؟ هل أخاف أحداً كخوفي من الله؟ هل أرجو أحداً كرجائي من الله؟ إن وجدت شيئاً من ذلك، فطهر قلبك منه، واجعل تعلقك بالله وحده.
2. محاربة طاعة الشيطان في حياتك:
كلما أمرك الشيطان بمعصية، فاستعذ بالله، وقل: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وتذكر أن طاعته في هذه المعصية هي لون من عبادته. فاختر أن تكون عبداً لله لا للشيطان.
3. تذكير النفس والناس بيوم القيامة:
خصص وقتاً أسبوعياً لقراءة أو سماع ما يذكرك بيوم القيامة وأهواله. هذا التذكير يجدد الإيمان، ويدفع إلى العمل.
4. الإنفاق في وجوه الخير استعداداً ليوم الفقر:
تذكر أنك يوم القيامة فقير إلى عملك الصالح. فأنفق من مالك، واعمل من الخير ما تستطيع،

لتجد ما ينفعك في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون.
5. تربية الأبناء على عقيدة التوحيد واليوم الآخر:
استخدم هذه المشاهد القرآنية لتربية أبنائك. احكِ لهم كيف يتبرأ المعبودون من عابديهم، وكيف يُؤمر المشركون بدخول النار. هذا يغرس في قلوبهم الخوف من الشرك، والحب للتوحيد.

الأمر السادس

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هاتين الآيتين

1. سؤال التبرؤ: عندما أقرأ أن الملائكة يتبرؤون من المشركين، هل أستشعر أن كل من أرجوه أو أخافه من دون الله سيتبرأ مني؟ كيف يغير هذا من علاقاتي وتعلقاتي؟
2. سؤال عبادة الجن: هل أمارس طاعات أو عبادات لم يأمر بها الله ورسوله، ظناً مني أنها خير، بينما هي من تزيين الشيطان؟ كيف أتأكد من صحة عباداتي؟
3. سؤال النفع والضر: عندما أمر بضائقة، إلى من أتوجه أولا ً؟ هل إلى الله أم إلى الأسباب و المخلوقات؟ وكيف أعزز توكلي على الله؟
4. سؤال النار: عندما أقرأ عن عذاب النار، هل هو مجرد شعور عابر، أم أنه يحرك في قلبي خوفاً يدفعني إلى ترك المعاصي؟
5. سؤال الاستعداد: ماذا أعددت لذلك اليوم الذي "لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً"؟ هل أنا راضٍ عن رصيدي من العمل الصالح؟

الأمر السابع

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان موحد خالص: لا يعبد إلا الله، ولا يتعلق إلا به.
· إنسان يقظ: ينتبه إلى حيل الشيطان ووساوسه، فلا يطيعه في معصية.
· إنسان مستعد للآخرة: يعمل لدنياه وكأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته وكأنه يموت غداً.
· إنسان شجاع: لا يخاف من مخلوق، لأن النفع والضر بيد الله وحده.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع التوحيد: تختفي منه مظاهر الشرك والخرافة، ويسوده الإيمان الخالص بالله.
· مجتمع العدالة والمسؤولية: كل فرد فيه يتحمل مسؤولية عمله، ويعلم أنه سيحاسب وحده.
· مجتمع التكافل: يتعاون أفراده على البر والتقوى، ويتناصحون بالحق والصبر.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة العقيدة الصافية: تقوم على أساس "لا إله إلا الله"، وتطهر المجتمع من كل ألوان الشرك الجلي والخفي.
· دولة القوة والعزة: لأن أفرادها لا يخافون إلا الله، فهم أقوياء على أعدائهم، أعزاء بإيمانهم.
· دولة العدل والإنصاف: تؤمن بيوم الحساب، فتسعى لإقامة العدل في الأرض، وتترك الحكم النهائي لله يوم القيامة.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد سمعت بأذنيك جواب الملائكة الأبرار، وهم يتبرؤون من المشركين، ويكشفون أنهم كانوا يعبدون الشياطين. وسمعت الحكم الإلهي العادل: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، وسمعت الأمر المهين: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

فأين أنت من هذا المشهد؟ هل ستكون ممن يتبرأ منهم المعبودون، ثم يُؤمر بهم إلى النار؟ أم ستكون ممن تولاهم الله برحمته، وأدخلهم جنته؟

لا تجعل للشيطان عليك سبيلا ً. لا تطعه في معصية، فإن طاعته عبادة له. أخلص عبادتك لله وحده. واجعل تعلقك به، وخوفك منه، ورجاءك فيه. واستعد ليوم القيامة، فإنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

القسم الرابع

أيها العقل الذي يرفض أن يكون أسيراً للتقاليد البالية، أيها القلب الذي يبحث عن الحق وإن خالف هوى الأهل والعشيرة، أيها الإنسان الذي يريد أن يتحرر من قيود التضليل الإعلامي والزيف الفكري،

تعال بنا نقف مع آية كريمة من سورة سبأ، هي مرآة صادقة تعكس لك أخطر حيل المبطلين في كل زمان ومكان. إنها الآية التي تكشف عن أسلحة الطغاة الفكرية في مواجهة الحق: استغلال العواطف، وتقديس الموروث، وتشويه الدعاة، وتزييف الحقائق. إنها آية تضع بين يديك خريطة واضحة لتتعرف على أساليب أعداء الحق، فتحذرها ولا تنخدع بها.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يسجل لنا هذه الحيلة الماكرة التي تكررت مع كل نبي ورسول:
﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: 43].

هذه الآية الكريمة تصور لنا مشهداً مكرراً في تاريخ الصراع بين الحق والباطل. إنها تسجل رد فعل المشركين حين تتلى عليهم آيات الله الواضحة التي لا تحتمل التأويل. فبدلا ً من أن يتدبروها بعقولهم، ويقبلوها بقلوبهم، يلجؤون إلى حملة تضليل إعلامي منظمة، قوامها ثلاث تهم باطلة: التهمة ا لأولى: أن الداعية مجرد رجل يريد أن يصدهم عن دين آبائهم (استغلال للعواطف والعصبية). التهمة الثانية: أن ما جاء به هو كذب مختلق (تشويه للحقيقة). التهمة الثالثة: أن هذا الكلام ليس إلا سحراً واضحاً (تزييف للمفاهيم). إنها بحق خطة إعلامية متكاملة لصرف الناس عن الحق!

موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

بعد أن عرضت الآيات السابقة (40-42) مشهد يوم القيامة، وتبرؤ الملائكة من المشركين، وكيف أنهم كانوا يعبدون الجن، وكيف أن العابدين والمعبودين لا يملكون لبعضهم نفعاً ولا ضراً، تعود هذه الآية بنا إلى الدنيا، لتكشف لنا عن السبب الجذري الذي أوصلهم إلى هذا المصير الأليم. لقد أوصلهم إلى هناك التقليد الأعمى للآباء، وتصديق الدعايات الكاذبة ضد الرسل. فكأن الآيات تقول: "هذا هو مصيرهم في الآخرة، وهذا هو سبب ذلك المصير في الدنيا". وهذا الربط بين السبب والنتيجة هو من أعظم أساليب القرآن في التربية والإنذار.

الأمر الأول:
أسلوب المشركين في مواجهة الآيات البينات (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بوصف الموقف: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾.

· دلالة (آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ):
"آياتنا" تشمل آيات القرآن الكريم، وهي بينات أي واضحات جليات في دلالتها على الحق والتوحيد، لا تحتاج إلى كثير عناء لفهمها. فالحجة قائمة، والبرهان ساطع. ولكن المشكلة ليست في وضوح الآ يات، بل في هوى النفوس وإصرارها على الباطل.
· دلالة (قَالُوا):
الفعل "قالوا" يدل على أنهم لم يتدبروا، ولم يتفكروا، بل بادروا مباشرة إلى الرد والصد. وهذا شأن المقلدين في كل زمان، يرفضون الحق قبل أن يسمعوه أو يفهموه.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الحق واضح بذاته: آيات الله بينات، لا غموض فيها. فمن أراد الهداية وجدها واضحة.
2. المشكلة في القلوب لا في الأدلة: إذا رأيت من يرفض الحق الواضح، فاعلم أن المشكلة في قلبه ، وليس في ضعف الدليل.
3. التثبت قبل الرفض: لا تكن مثل هؤلاء، ترفض الحق قبل أن تسمعه. اسمع، وتدبر، ثم احكم.

الأمر الثاني:
التهمة الأولى – استغلال العواطف وحب الآباء (مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي الحيلة الأكبر والخطة الإعلامية المحكمة التي استخدمها المشركون لصرف الناس عن النبي ﷺ.

· دلالة (مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ):

أسلوب حصر وقصر. أي أن محمداً ﷺ ليس نبياً ولا رسولا ً، بل هو مجرد رجل بشر مثلنا. وهذا الأسلوب يهدف إلى تحقير شخص النبي ﷺ في أعين الناس، وتجريده من صفة النبوة.

· دلالة (يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ):

هنا مكمن الخطر والتضليل. إنهم يصوّرون دعوة النبي ﷺ على أنها مؤامرة لتدمير تراثهم ودين آبائهم. يستغلون عاطفة حب الآباء والأجداد وتقديس الموروث ليثيروا حمية الناس وعصبيتهم. وكأنهم يقولون: "انظروا! هذا الرجل يريد أن يهدم دين آبائكم وأجدادكم! أترضون ذلك؟!".

· خطورة التقليد الأعمى وكيف يستغله أعداء الحق:

هذه الآية تكشف عن أخطر أمراض الأمم وهو التقليد الأعمى للآباء والأجداد. كم من حق رُدّ، وكم من باطل انتصر، بسبب هذه الكلمة: "هذا ما وجدنا عليه آباءنا!" . قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: 170]. وأعداء الحق في كل زمان يعلمون مدى تأثير هذه العاطفة، فيستغلونها أبشع استغلال لصرف الناس عن دعوات الإصلاح والتجديد. يقولون: "جاءنا هذا ليفرق جمعنا، ويهدم تقاليدنا، ويسفه أحلام آبائنا!".

· دور الإعلام في تشويه الدعاة والحقائق (تجسيد الآية):

هذه الآية هي أقدم وثيقة تكشف عن دور "الإعلام المضلل" في التاريخ. من هم "الذين قالوا" هذه المقولة؟ إنهم الملأ والمترفون والكبراء، وهم بمثابة أجهزة الإعلام في ذلك الزمان. كانوا يملكون المنابر ، والكلمة المسموعة، والتأثير في الجماهير. فماذا فعلوا؟

1. شوهوا صورة الداعية: لم يناقشوا ما جاء به من حق، بل شوهوا شخصه، فقالوا: "ما هذا إلا رجل...". هذا هو عين ما تفعله وسائل الإعلام المعاصرة مع الدعاة والمصلحين: تركز على شخصه (مظهره، ماضيه، أخطاءه) لتشويه صورته، بدلا ً من مناقشة أفكاره.

2. زيّفوا دوافعه: قالوا: "يريد أن يصدكم..."، أي أن دوافعه خبيثة (يريد الرئاسة، يريد تفريق الجماعة، يريد هدم التراث). وهذا ما تفعله الآلة الإعلامية اليوم: تزيف دوافع الدعاة والمصلحين، وتنسب لهم أهدافاً سياسية أو شخصية خفية.

3. استغلوا العواطف: استغلوا حب الناس لآبائهم وتراثهم، وحولوها إلى أداة للصد عن الحق. وهذا هو التضليل العاطفي بعينه.

· أمثلة تقريبية معاصرة:

· الشاب الملتزم: شاب بدأ يلتزم بدينه، ويطالب في بيته بإغلاق التلفاز على المسلسلات الهابطة، فقامت عليه أمه وإخوته وقالوا: "ما هذا إلا شاب يريد أن يهدم عاداتنا وتقاليدنا! أترضى أن نعيش في كهوف؟!". هذا هو نفس المنطق.

· المرأة الداعية إلى الحجاب: امرأة تدعو إلى الحجاب الشرعي، فيقوم عليها بعض الناس ويقولون: "هذه تريد أن تعيدنا إلى عصور الظلام، وتصُدّنا عما كانت تلبسه أمهاتنا وجداتنا من تبرج وانفتاح!". (علماً أن أمهات المؤمنين كنّ محجبات، ولكنهم يزيفون التاريخ).

· الإعلام المعاصر: كم من مرة شاهدت فيها قناة إعلامية تشوه داعية أو عالماً، فبدلا ً من أن تناقش فكرته، تركز على "لحيته" أو "ثوبه القصير" أو "تصريح قديم له"، ثم تصفه بأنه "رجل يريد أن يفرق الأمة"؟!

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. الحذر من التقليد الأعمى: لا تكن عبداً للماضي. احترم آباءك، ولكن لا تتبعهم في الباطل. الحق أحق أن يتبع.

2. الوعي بأساليب التضليل الإعلامي: تعلم كيف تحلل الخطاب الإعلامي. اسأل نفسك: هل يناقش الفكرة أم يشوه الشخص؟ هل يقدم أدلة أم يثير العواطف؟

3. الجرأة في مخالفة الباطل: حتى لو كان عليه آباؤك وأجدادك. فالحق لا يعرف المجاملة.

الأمر الثالث:

التهمة الثانية – اتهام الحق بأنه كذب مختلق (وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن شخصنوا القضية وهاجموا الداعية، انتقلوا إلى مهاجمة الرسالة نفسها.

· دلالة (إِفْكٌ مُّفْتَرًى):

"إفك" هو الكذب الصراح. "مفترى" أي مختلق مصنوع. فهم يصفون القرآن الكريم -وهو كلام الله- بأنه كذب واختلاق من عند محمد ﷺ. وهذا غاية الجرأة والافتراء.

· دور الإعلام في تزييف المفاهيم والوعود (تجسيد الآية):

هذه التهمة هي أيضاً جزء من الحملة الإعلامية المضللة. أعداء الحق لا يكتفون بتشويه الداعية، بل يزيفون حقيقة الرسالة ذاتها. يصفون الحقائق الساطعة بأنها "أكاذيب"، والمفاهيم الصحيحة بأنها "خرافات". وهذا ما يحدث اليوم تماماً:

· يصفون أحكام الشريعة العادلة بأنها "رجعية" و"ظالمة للمرأة".
· يصفون الدعوة إلى الفضيلة بأنها "تزمت" و"تشدد".
· يصفون الوعيد الإلهي للظالمين بأنه "أساطير الأولين".
إنهم يقلبون الحقائق، ويطلقون على الأشياء غير أسمائها، فيسمون الباطل حقاً، والحق باطلا ً. وهذا هو تزييف المفاهيم الذي يمارسه الإعلام المعاصر بكل احتراف.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الثبات على الحق مهما وصفه المبطلون: لا يضر الحق أن يصفه أعداؤه بأنه "إفك مفترى". فـ الحق حق في نفسه، ولو قال عنه كل الناس إنه باطل.
2. عدم الاغترار بالتسميات البراقة: انظر إلى مضمون الشيء، ولا تنظر إلى اسمه. فكثير من الباطل يُروج له تحت أسماء براقة (حرية، تقدم، حداثة).
3. فضح تزييف المفاهيم: من واجب الدعاة والمصلحين أن يكشفوا هذه المغالطات، وأن يعيدوا الأ مور إلى نصابها.
الأمر الرابع:
التهمة الثالثة – اتهام الحق بأنه سحر (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي التهمة الثالثة، وهي تهمة التأثير الخارق للعادة، ولكن في صورة ذميمة.

· دلالة (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ):
هنا يصف القرآن موقفهم بدقة: إنهم قالوا هذا للحق نفسه، بعد أن جاءهم واضحاً بيناً. ولم يقولوا "لما جاءهم الباطل"، بل "للحق". وهذا يدل على أنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنه حق، ولكنهم يعاندون.
· دلالة (إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ):
وصفوا القرآن بأنه "سحر مبين". لماذا وصفوه بالسحر؟ لأن السحر له تأثير عجيب على القلوب و العقول، ويفرق بين المرء وزوجه، وبين الأتباع وقادتهم. فلما رأوا تأثير القرآن العظيم في قلوب الناس ، وازدياد أتباع النبي ﷺ، قالوا: "هذا سحرا". وهذا اعتراف ضمني منهم بقوة تأثير القرآن، ولكنهم يفسرونه تفسيراً خاطئاً.
· دور الإعلام في تشويه تأثير الحق:
الإعلام المعاصر يفعل الشيء نفسه. عندما يرى تأثير داعية صادق، أو مشروع إصلاحي ناجح، فإنه لا يعترف بأن هذا بسبب قوة الحق وجاذبيته، بل يلجأ إلى تشويه مصدر التأثير. يقولون: "هذا الرجل 'كاريزما' ويخدع الناس!"، أو "هذا المشروع وراءه جهات أجنبية!". إنهم يعجزون عن مواجهة الحق، فيلجؤون إلى اتهامه بأنه "سحر" أو "خداع".
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. قوة تأثير الحق: الحق له قوة ذاتية تجذب القلوب. فلا تتعجب إذا رأيت الناس تقبل عليه، ولا تحزن إذا وصفه أعداؤه بالسحر.
2. الثقة في الحق الذي تحمله: إذا كنت على حق، فثق أن له تأثيراً، حتى لو حاول أعداؤك تشويهه.
3. عدم الخوف من تهمة "السحر": لا تخف من أن يقال عنك "متطرف" أو "إرهابي" أو "ساحر". فهذه تهم قديمة جديدة، يوجهها أعداء الحق لكل مصلح.
الأمر الخامس: دور الإعلام في تشويه الدعاة والحقائق وتزييف المفاهيم والوعود كما تجسده الآية

هذه الآية الكريمة تقدم لنا نموذجاً تحليلياً دقيقاً لكيفية عمل "الإعلام المضلل" عبر التاريخ. يمكننا أن نستخلص منها استراتيجية إعلامية متكاملة من أربع مراحل، لا تزال تستخدم حتى اليوم:

المرحلة الأولى: تشويه شخص الداعية :

· في الآية: قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ﴾. لم يعترفوا بنبوته، بل جردوه من صفته، وحقروه.
· في عصرنا: الإعلام يمارس "اغتيال الشخصية". بدلا ً من مناقشة فكرة المصلح، يركز على: ماضيه، أخطائه، علاقاته، شكله. يطلقون عليه ألقاباً مشوهة: "رجل دين متشدد"، "شيخ ظلامي"، "ناشط إسلا موي". الهدف: صرف الناس عن الاستماع له أصلا ً.

المرحلة الثانية: تزييف دوافع الداعية :

· في الآية: قالوا: ﴿يُرِيدُ أن يَصُدَّكُمْ﴾ . زعموا أن هدفه هو تفريقهم وهدم تراثهم.
· في عصرنا: الإعلام يزعم أن الدعاة والمصلحين لهم "أجندة خفية": "يريدون الوصول إلى السلطة"، "يريدون نشر الفوضى"، "يريدون العودة بنا إلى عصور الظلام". الهدف: إثارة الشكوك والريبة في نواياه.

المرحلة الثالثة: تزييف حقيقة الرسالة:

· في الآية: قالوا عن القرآن: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ . أي كذب مختلق.
· في عصرنا: الإعلام يصف أحكام الإسلام بأنها "خرافات" و"أساطير". يصف الحجاب بأنه "قمع للمرأة"، وتعدد الزوجات بأنه "ظلم". الهدف: إفقاد الرسالة مصداقيتها.

المرحلة الرابعة: تشويه تأثير الحق :

· في الآية: قالوا عن القرآن: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . اعترفوا بتأثيره، ولكن شوهوا مصدره.
· في عصرنا: عندما ينجح مشروع إسلامي، يقولون: "هذا بسبب البترودولار!" أو "هذا غسيل أموال!". عندما يؤثر داعية في الشباب، يقولون: "هذا ساحر! يخدعهم بعواطفهم!". الهدف: تحييد تأثير الحق بإرجاعه إلى أسباب دنيئة.

الدرس المستفاد: يجب على المؤمن الواعي أن يفهم هذه الاستراتيجية، وألا ينخدع بها. يجب أن يبحث عن الحقيقة بنفسه، ولا يكون أسيراً لما تقدمه له "الآلة الإعلامية" من صور مشوهة. كما قال الشاعر:

لا تأخُذِ العِلمَ عَنْ رَجُلٍ *** وَلَوْ حَلَا فِي الأَسْمَاعِ صَوْتُهُ
وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى مَا قَالَ *** لَا تَنْظُرَنْ إِلَى مَنْ قَالَ

الأمر السادس
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

1. سؤال التقليد: هل هناك شيء في حياتي أفعله فقط لأني "وجدت آبائي عليه" دون أن أبحث عن دليله من الشرع؟ ما هو موقفي لو تبين لي أنه مخالف للحق؟
2. سؤال الإعلام: عندما أتابع الأخبار أو وسائل التواصل، هل أتلقى المعلومات بنقد وتحليل، أم أني أصدق كل ما يقال عن الدعاة والمصلحين؟
3. سؤال تشويه الدعاة: هل شاركت يوماً في تشويه داعية أو مصلح بنقل كلام عنه دون تثبت؟ كيف أتوب من ذلك؟
4. سؤال العواطف: هل استطاع أحد أن يستغل عاطفتي (حب الأهل، الوطن، التراث) ليجعلني أقف ضد حق أعرفه؟ كيف أحصن نفسي من ذلك؟
5. سؤال الحق: هل سبق لي أن واجهت حقاً واضحاً، فرفضته بحجج واهية (مثل: هذا يفرق الجماعة ، هذا يخالف العادات)؟ كيف أغير هذا السلوك؟

الأمر السابع
كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

1. تمحيص الموروثات:
راجع عاداتك وتقاليدك الموروثة عن آبائك وأجدادك. اعرضها على ميزان الشرع والعقل. ما وافق الحق فتمسك به، وما خالفه فاتركه ولو كان عليه آباؤك.
2. التربية على النقد والتحليل:
درب أبناءك على ألا يصدقوا كل ما يسمعونه. علمهم أن يسألوا: "ما الدليل؟ من قال هذا؟ لماذا قاله؟". هذا يبني جيلا ً واعياً لا ينخدع بالدعايات.
3. نشر الوعي الإعلامي:
في مجالسك، ناقش أصدقاءك وأهلك في كيفية عمل الإعلام المضلل. اضرب لهم أمثلة من هذه الآية، واشرح لهم الاستراتيجيات الأربع لتشويه الحق.
4. الدفاع عن الدعاة بالإنصاف:
إذا سمعت أحداً يشوه داعية أو مصلحاً، فتدخل بأدب وقل: "لنناقش الفكرة التي يقولها، ولا نتكلم في شخصه. هل ما يقوله حق أم باطل؟". هذا يرفع مستوى الحوار.
5. التثبت قبل النشر:
لا تنشر خبراً أو مقطعاً يشوه أحداً قبل أن تتثبت من صحته. تذكر أنك قد تكون جزءاً من الآلة ا

لإعلامية المضللة وأنت لا تشعر.
الأمر الثامن
دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان حر ناقد: لا يستعبده التقليد، ولا يخدعه الإعلام.
· إنسان شجاع: يتبع الحق ولو خالف أهله وعشيرته.
· إنسان بصير: يرى ما وراء الكلمات، ويدرك أهداف المتكلمين.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع الوعي والبصيرة: لا تسوده الشائعات، ولا تتحكم فيه الدعايات.
· مجتمع التثبت والعدل: يتحرى أفراده الحقيقة، وينصفون الناس.
· مجتمع مقاوم للتضليل: يمتلك مناعة ضد حملات التشويه الإعلامي.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة العلم والنقد: لا تقوم على الخرافة والتقليد، بل على البحث والنظر والدليل.
· دولة الحق والعدل: تحمي الدعاة والمصلحين من حملات التشويه، وتقيم ميزان العدل في الإعلام.
· دولة القوة والمنعة: لأنها لا تنخدع بدعايات الأعداء، فتبقى قوية متماسكة في وجه الحرب النفسية والإعلامية.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، هذه الآية الكريمة تضع بين يديك كاشفاً للألغام الفكرية التي يزرعها أعداء الحق في طريقك. لقد عرفت الآن كيف أنهم يستغلون حبك لآبائك، وكيف يشوهون صورة الدعاة، وكيف يزيفون الحقائق.

فلا تكن أسيراً لهذه الألاعيب. كن حراً بعقلك، شجاعاً بقلبك. ابحث عن الحق بنفسك، واتبعه أينما كان. ولا تخف من كلمة "رجل يريد أن يصدكم..."، فإنها كلمة حق يراد بها باطل. بل أنت تريد أن تهديهم إلى الحق الذي ضلوا عنه.

وكن واعياً بدور الإعلام المضلل، ولا تكن ببغاء تردد ما يلقى إليها. كن ناقداً، محللاً، بصيراً. وعض على الحق بالنواجذ، ولو خالفك فيه أهل الأرض جميعاً. فالعاقبة للمتقين، والنصر للحق وأهله.
ثانيا
أيها العقل الذي كرمه الله بنعمة الفكر والتدبر، أيها الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض بسلاح العلم والمعرفة، أيها الباحث عن الحقيقة الذي لا يرضى بالتقليد ولا يقنع بالظن، تعال بنا نقف مع آيتين كريمتين من سورة سبأ، هما بحق منهاج متكامل في البحث العلمي والنظر العقلي. إنهما الآيتان اللتان تؤسسان لأعظم منهج في الوصول إلى الحقيقة: منهج الاستدلال بالدليل، والاعتبار بالتاريخ. إنهما تضعان أمامنا قاعدة ذهبية: "لا تتكلم فيما لا تعلم، وانظر في آثار من سبقك لتتعلم". إنهما آيتان تحرران العقل من أسر الجهل والتقليد، وتدعوانه إلى فضاء العلم والنظر والتجربة.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يخاطب المشركين الذين طعنوا في الحق بغير علم ولا هدى:
﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: 44]
﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: 45].

هاتان الآيتان الكريمتان تمثلان ضربة قاضية للمنهج التبريري القائم على الجهل والتقليد. ففي الآية الأولى، يطالبهم الله بـ الدليل العلمي على صحة معتقدهم: "أين كتبكم التي تدرسونها؟ أين رسولكم الذي أرسل إليكم؟" وبما أنهم لا يملكون شيئاً من ذلك، فقد سقطت دعواهم. وفي الآية الثانية، ينقلهم من العلم النظري إلى الدليل التجريبي التاريخي: "انظروا إلى الأمم من قبلكم، فقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً، فلما كذبوا رسلي أهلكتهم، فكيف بكم؟". إنهما توجيه رباني إلى العقلية العلمية التجريبية التي لا تؤمن بشيء إلا بدليل، وتعتبر بتجارب التاريخ.
**
موقع الآيتين في سياق السورة وارتباطهما بما قبلهما

بعد أن حكت الآية السابقة (43) حجج المشركين الواهية في تكذيب النبي ﷺ، واتهامهم له بأنه "رجل يريد أن يصدهم عن دين آبائهم"، وأن ما جاء به "إفك مفترى" و"سحر مبين"، تأتي هاتان الآ يتان لتردا عليهم من منطلق علمي بحت. كأن الله يقول لهم: "إن كنتم صادقين في دعواكم أن دينكم حق، فأرونا الدليل! هل لديكم كتاب سماوي يثبت صحة شرككم؟ هل جاءكم رسول من عندي يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟" ولما كان الجواب بالنفي، انتقلت الآية الثانية إلى دليل آخر: "إذا لم يكن لديكم دليل نقلي، فانظروا إلى دليل الواقع والتاريخ!".

هذا الانتقال من نفي الدليل النظري إلى عرض الدليل التجريبي هو عين المنهج العلمي الذي يؤسس له القرآن.

الأمر الأول:

نفي الدليل النظري والمطالبة بالعلم (وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآية بأسلوب النفي "وَمَا" لتؤكد انتفاء أي سند علمي أو ديني لشركهم.

· دلالة (وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا):

الاستفهام هنا ضمني، أي: "هل أعطيناهم كتباً قبل القرآن يدرسونها؟" والجواب: لا. فلم يأتهم كتاب سماوي واحد يأمرهم بعبادة الأصنام أو يجيز لهم الشرك. و"يدرسونها" أي يقرؤونها بتدبر وفهم، ويستخرجون منها الأحكام. وهذا يعني أن دعواهم خالية تماماً من أي سند علمي أو ديني. فهم لم يقرؤوا في كتاب منزل أن الله أمرهم بهذا الشرك.

· دلالة (وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ):

"نذير" أي رسول منذر. والمعنى: وهل أرسلنا إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ يأمرهم بعبادة الأوثان؟ كلا. بل كل الرسل من قبله -إن وجدوا في أسلافهم- جاءوا بالتوحيد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]. فمن أين لهم هذا الدين الشركي؟ إنه من اختراعهم وافترائهم.

· بيان أهمية العلم والبحث عن الحقيقة من مصادرها:

هذه الآية الكريمة تؤسس لقاعدة عظيمة: لا يجوز أن تتطاول فيما لا تملك أدواته. فكيف تدعي عقيدة أو مذهباً أو فكرة، وأنت لا تملك عليها دليلاً من كتاب أو سنة أو عقل أو تاريخ؟! هذه الآ ية توجه سهام النقد إلى كل من يتكلم بغير علم، وإلى كل من يقلد في دينه بلا برهان. إنها تريد منا أن نبني معتقداتنا وأفكارنا على العلم والدليل، لا على الجهل والتقليد.

· أهمية العلم: العلم هو النور الذي يميز به الإنسان الحق من الباطل. ومن لا علم له، فهو تائه في الظلمات. ولهذا ذم الله المشركين بأنهم لا يملكون "كتباً يدرسونها".

· البحث عن الحقيقة من مصادرها: الحقيقة لا تؤخذ من الدعايات ولا من الإشاعات ولا من الآباء والأجداد، بل تؤخذ من مصادرها الموثوقة: الكتاب المنزل، والرسول المرسل، والعقل السليم، والتاريخ الصادق.

· أمثلة تقريبية معاصرة:

· الطبيب المدعي: رجل يدعي أنه طبيب ويعالج الناس، فإذا سألته: "أين شهادتك العلمية؟ أين دراستك للطب؟" فلا يجد جواباً. هذا هو حال المشرك الذي يدعي ديناً بلا كتاب ولا رسول.

· المهندس غير المتخصص: شخص يتحدث في هندسة الجسور ويوجه الانتقادات للمهندسين، وهو لا يحمل شهادة في الهندسة، ولم يدرس أساسياتها. قوله مردود عليه، لأنه يتكلم فيما لا علم له به. وهكذا من يتكلم في الدين بغير علم شرعي.

· المؤرخ المزيف: شخص يكتب تاريخاً مزيفاً لأمة من الأمم، دون أن يستند إلى وثائق أو مصادر أصلية. كتابه لا قيمة له علمياً. وهكذا العقائد التي لا تستند إلى وحي سماوي.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. لا تتكلم في شيء لا تعلمه: قبل أن تصدر حكماً على أمر، أو تنتقد فكرة، أو تتبنى عقيدة، اسأل نفسك: "ما هو دليلي؟ من أين أتيت بهذا؟". فإن لم تجد دليلاً، فاصمت.

2. احترام التخصص: لكل علم أهله. فلا يجوز للجاهل أن يتطاول على العلماء، أو أن يفتي بغير علم.

3. طلب العلم فريضة: هذه الآية تحثنا على طلب العلم الشرعي والعقلي، حتى نبني إيماننا وقناعاتنا على أساس متين.

الأمر الثانى:

الانتقال إلى الدليل التجريبي التاريخي (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا

رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن نفت الآية الأولى أي دليل نظري على صحة شركهم، تنتقل الآية الثانية إلى دليل آخر، وهو دليل الواقع والتاريخ والتجربة.

· دلالة (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ):
هذا تقرير لحقيقة تاريخية. الأمم السابقة (مثل عاد وثمود وقوم نوح وفرعون) كذبوا رسلهم كما كذب هؤلاء.
· دلالة (وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ):
هذا هو الدليل التجريبي بامتياز. "ما بلغوا" أي ما بلغ كفار قريش المعاصرون للنبي ﷺ. "معشار" أي عشر ما آتيناهم. والمعنى: أن كفار قريش لم يبلغوا حتى عُشر ما أعطى الله الأمم السابقة من قوة وبأس ومال وعمران وطول أعمار.
فالأمم السابقة كانت أشد قوة، وأكثر أموالا ً، وأعظم حضارة. ومع ذلك، لما كذبوا رسل الله، أهلكهم الله بذنوبهم. فإذا كان أولئك الأقوياء لم يستطيعوا دفع عذاب الله، فكيف بهؤلاء الضعفاء من قريش؟!
· دلالة (فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ):
"نكير" أي إنكاري عليهم وعقابي لهم. والاستفهام هنا للتهويل والتعظيم. أي: فانظروا كيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم! لقد دمرناهم تدميراً، وجعلناهم أحاديث وعبراً. وهذا مصير كل من يسير على دربهم.
· كيف يؤسس الإسلام للعقلية التجريبية من خلال توجيه المسلم إلى النظر في التاريخ؟
هذه الآية هي دعوة صريحة إلى المنهج التجريبي في قراءة التاريخ. فالله سبحانه وتعالى لم يكتفِ بإخبارنا أن الأمم السابقة أهلكت، بل أمرنا أن نسير في الأرض وننظر كيف كانت عاقبتهم. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69].
وهذا هو عين العقلية التجريبية:
1. التساؤل: ما الذي حدث للأمم السابقة؟
2. النظر والبحث: السير في الأرض، ودراسة الآثار، وتحليل الأحداث التاريخية.
3. استخلاص الدلالات: الربط بين السبب (التكذيب والكفر) والنتيجة (الهلاك والدمار).
4. تطبيق الدرس: الاعتبار بهذه النتائج لتجنب الوقوع في نفس الأخطاء.
إن هذا التوجيه القرآني هو الذي دفع المسلمين الأوائل إلى التدوين التاريخي والتحليل الحضاري. فـ التاريخ في المنظور القرآني ليس مجرد قصص للتسلية، بل هو مختبر تجريبي ضخم، نرى فيه نتائج السنن الإلهية. فمن أراد أن يعرف نتيجة الكفر والظلم، فلينظر في تاريخ فرعون. ومن أراد أن يعرف نتيجة الشكر والإيمان، فلينظر في تاريخ سليمان. وهكذا، يصبح التاريخ أداة علمية للاستدلال على صحة العقيدة وصدق الوعيد.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المهندس والمختبر: المهندس قبل أن يبني ناطحة سحاب، يدرس التجارب السابقة: لماذا انهار هذا البرج؟ ولماذا ثبت ذاك؟ هذا هو الاعتبار بالتاريخ التجريبي.
· الطبيب والمرض: الطبيب يقرأ تاريخ الأمراض، ويدرس الحالات السابقة، ليعرف كيف يعالج مريضه. هذا هو الدليل التجريبي.
· الاقتصادي والأزمات: الاقتصادي يدرس الأزمات المالية السابقة (مثل الكساد العظيم) ليتجنب وقوعها مرة أخرى. هذا هو المنهج التجريبي.
· الداعية إلى الله: عندما يرى الداعية إعراض الناس، يتذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، فيصبر ويحتسب، ويعلم أن العاقبة للمتقين.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التاريخ مرآة الحاضر: لا تقرأ التاريخ كقصص مسلية، بل اقرأه كدروس وعبر. واسأل نفسك: أين موقعي من هذه الأحداث؟
2. عدم الاغترار بالقوة المادية: كفار قريش كانوا أضعف من الأمم السابقة. ومع ذلك كانوا يغترون بقوتهم. هذه الآية تقول لك: "مهما بلغت قوتك، فأنت أضعف من عاد وثمود. فاحذر!".
3. اليقين بأن سنة الله لا تتخلف: كما أهلك الله المكذبين الأولين، فهو قادر على إهلاك من بعدهم. هذه سنة إلهية لا تتبدل.
4. تعزيز الثقة بالله للمؤمنين: إذا رأى المؤمن قلة عدده وضعف قوته، نظر إلى التاريخ فرأى أن الحق ينتصر ولو بعد حين، فقوي يقينه وثبت.
الأمر الثالث: العقلية التجريبية في القرآن وكيف نعيشها في واقعنا

القرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى النظر والتفكر والسير في الأرض والاعتبار. هذه الدعوات ليست مجرد أوامر عابرة، بل هي تأسيس لمنهج علمي تجريبي متكامل، يقوم على:

1. رصد الظواهر: (ماذا حدث للأمم السابقة؟).
2. تحليل الأسباب: (لماذا حدث لهم ذلك؟ بسبب تكذيبهم الرسل).
3. استخلاص النتائج: (التكذيب يؤدي إلى الهلاك).
4. تعميم القانون: (هذه سنة الله في كل زمان ومكان).

كيف نعيش هذه العقلية التجريبية في واقعنا؟

1. في التعامل مع القضايا الفكرية والعقدية:
· لا تقبل أي فكرة إلا بدليل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].
· اعرض الأفكار على "التاريخ التجريبي": انظر إلى الأمم التي تبنت هذه الأفكار، ماذا كانت عاقبتها؟ (مثلا ً: الأمم التي تبنت الإلحاد والشيوعية، كيف انهارت حضاريا ً وأخلاقيا ً؟).
2. في التعامل مع القضايا الاجتماعية والتربوية:
· إذا أردت أن تعالج مشكلة اجتماعية (كالمخدرات أو الطلاق)، ادرس تاريخ هذه المشكلة في المجتمعات الأخرى. ما أسبابها؟ وما الحلول التي نجحت أو فشلت؟ هذا هو المنهج التجريبي.
3. في التخطيط للمستقبل:
· لا تخطط لمستقبلك أو مستقبل أسرتك أو أمتك بمعزل عن دروس التاريخ. فالتاريخ يعطيك "سيناريوهات" لما يمكن أن يحدث. وكما قيل: "من لا يقرأ التاريخ، يحكم عليه أن يعيشه مرة أخرى".
4. في تربية الأبناء:
· لا تقتصر في تربية أبنائك على الوعظ النظري. خذهم إلى المتاحف، إلى الآثار، إلى الأماكن التاريخية. واربط لهم ما يرونه بالآيات القرآنية. قل لهم: "انظروا، هذا قصر فرعون! أين هو الآن؟". هذا يغرس فيهم العقلية التجريبية التاريخية.

الأمر الرابع

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1. سؤال الدليل: هل أتبنى أي فكرة أو عادة في حياتي بدون دليل؟ ما هو دليلي على صحة ما أعتقده وأفعله؟
2. سؤال التخصص: هل أتطاول بالحديث في أمور لا أملك أدواتها العلمية (كالتحدث في الدين أو الطب أو السياسة بغير علم)؟ كيف أضبط لساني؟
3. سؤال التاريخ: كم مرة قرأت قصة من قصص القرآن وتوقفت عندها متسائلا ً: ما الدرس الذي أستفيده منها لحياتي اليوم؟
4. سؤال الاعتبار: عندما أرى سقوط أمة أو حضارة معاصرة، هل أمر عليها مرور الكرام، أم أبحث عن الأسباب التي أدت إلى سقوطها لأعتبر؟
5. سؤال القوة: هل أشعر بالغرور بقوتي أو مالي أو منصبي، وأنسى أن من كانوا أقوى مني أهلكوا؟ كيف أستحضر هذا المعنى دائما؟

الأمر الخامس

كيف تتحول الآيتان إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

1. في طلب العلم:
· خصص وقتا ً أسبوعيا ً لطلب العلم الشرعي، ولو كان ساعة واحدة. اجعل لك "كتابا ً تدرسه" في العقيدة أو الفقه أو التفسير، لتكون من أهل العلم والدليل.
2. في الحوار والنقاش:
· لا تدخل في نقاش حول قضية إلا وقد أعددت لها "عدتها" من العلم والدليل. وإذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فقل بكل شجاعة: "لا أعلم". فهذا من الورع والعلم.
3. في قراءة التاريخ:
· اجعل لك وردا ً من قراءة التاريخ الإسلامي والعالمي. اقرأ في أسباب سقوط الدول والحضارات. واربط ذلك بالسنن القرآنية.
4. في التحليل الإعلامي:
· عندما تسمع خبرا ً عن انهيار دولة أو أزمة عالمية، لا تكتفِ بالتحليلات السياسية والاقتصادية فقط. أضف إليها التحليل القرآني السنني: ابحث عن مظاهر الكفران والظلم والفساد في هذه الدولة، واعتبر.

5. في تربية الأبناء:
· شجع أبناءك على السؤال والبحث والتجربة. لا تكبت أسئلتهم. علمهم أن يبحثوا عن الإجابة في "الكتب التي يدرسونها"، وفي "التاريخ الذي يعتبرون به". هذا يبني عقولهم على المنهج العلمي السليم.

الأمر السادس

دور الآيتين في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان عالم أو متعلم: لا يعيش على هامش الحياة، بل يتسلح بالعلم والدليل.
· إنسان ناقد بصير: لا يصدق كل ما يقال، بل يمحص ويدقق.
· إنسان معتبر بالتاريخ: يتعلم من أخطاء الماضي ليبني مستقبلا ً أفضل.
· إنسان متواضع: يعلم أن ما بلغه من قوة هو أقل من معشار ما أوتي السابقون، فلا يتكبر.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع العلم والمعرفة: يقوم على احترام التخصص وطلب الدليل.
· مجتمع النقد والتحليل: لا تسوده الشائعات، بل يسوده البحث عن الحقيقة.
· مجتمع الوعي التاريخي: يستلهم من تاريخه عبره، ولا يكرر أخطاءه.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة العلم التجريبي: هذه الآيات هي التي دفعت المسلمين إلى ريادة العلوم التجريبية والمنهج العلمي (كابن الهيثم والبيروني). فالحضارة الإسلامية قامت على النظر والاعتبار والتجربة.
· دولة القانون السنني: دولة التوحيد تدرك أن هناك سننا إلهية تحكم المجتمعات، فتراعي هذه السنن في سياستها وتخطيطها.
· دولة القوة الواعية: قوتها ليست قوة مادية غاشمة، بل قوة مبنية على العلم والوعي بالتاريخ، فهي قوة رشيدة حكيمة.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد فتح الله لك في هاتين الآيتين بابين عظيمين من أبواب الهداية: باب العلم و الدليل، وباب التاريخ والاعتبار. لقد علمك أن الجهل هو أصل كل بلاء، وأن التقليد الأعمى هو سبب كل ضلال. وعلمك أن النظر في التاريخ هو مختبر مفتوح، ترى فيه مصداق وعيد الله ووعده.

فلا تكن ممن يتكلم بلا علم، ولا ممن يمر على التاريخ بلا اعتبار. كن طالب علم، باحثاً عن الحقيقة، معتبراً بمن سبق. واجعل هذه الآيات نبراساً لك في حياتك الفكرية والعملية.

وتذكر دائماً قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ . إنه سؤال يهز القلوب، ويدعوك إلى أن تراجع مسارك قبل فوات الأوان.

المقطع الرابع
اولا
اهتمام الاسلام بالعقل
أيها العقل الذي أودع الله فيك أسرار الفطرة، أيها القلب الذي يتوق إلى الحقيقة، أيها الإنسان الذي زوده الله بأداة التفكير ليميز بها بين الحق والباطل، تعال بنا نقف مع آية كريمة من سورة سبأ، هي منهج متكامل في إعمال العقل وتنميته .إنها الآية التي تضع بين يديك خارطة طريق للوصول إلى اليقين، ليس بالتقليد الأعمى، ولا بالانسياق وراء العواطف، بل بالقيام لله خالصاً، ثم بالتفكر العميق في حال النبي ﷺ ودعوته .إنها آية تؤسس لعلاقة وثيقة بين العقل الفطري الذي وهبه الله لك، و العقل المكتسب الذي تنميه بالتفكر والتجربة والحوار .إنها دعوة إلى تحرير عقلك من أسر الجمود، وإطلاق طاقاته في رحاب التأمل والتدبر.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه أن يخاطب المشركين بهذا الخطاب العجيب الذي يخاطب أعماق العقول:
﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سبأ:46]

هذه الآية الكريمة هي وصفة إلهية لتنمية العقل، ومنهج رباني للوصول إلى الحقيقة .إنها تدعو الإ نسان إلى أن يقوم لله متجرداً عن الهوى والعصبية، مثنى) في جماعات صغيرة للحوار (وفرادى)منفرداً للتفكر الهادئ(، ثم يتفكر في سيرة النبي ﷺ ودعوته، ليصل بنفسه إلى نتيجة حتمية: أن محمداً ﷺ ليس بمجنون، بل هو نذير مبين .إنها آية تعلمنا أن العقل الفطري) القدرات الأساسية (قادر على الهداية إذا تم تشغيله ب- التفكر) مهارة تشغيل العقل(، وتنميته ب- الحوار والمراجعة والنقد و المقارنة) أدوات العقل المكتسب .(إنها دعوة إلى العقلانية المنضبطة التي لا تعزل الدين عن العقل، بل تجعل العقل هو الطريق إلى الإيمان الصادق.
**
موقع الآية في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

بعد أن سجلت الآيات السابقة اتهامات المشركين للنبي ﷺ، وأفحمتهم بالحجج والبراهين، وطالبتهم ب الدليل العلمي والتاريخي، تأتي هذه الآية لتعرض عليهم المنهج العملي الذي يمكنهم من الوصول إلى الحقيقة بأنفسهم .كأن الله يقول لهم: "لقد أقمنا عليكم الحجة من كل وجه، والآن، هذه هي الطريقة التي يمكنكم بها أن تختبروا صدق هذا النبي بأنفسكم: قوموا لله، وتفكروا، وستصلون إلى الحق" . وهذا الانتقال من الإفحام بالحجة إلى الدعوة إلى التفكر الذاتي هو قمة الإنصاف والعدل، وهو يدل على ثقة الحق بنفسه، وأنه لا يخشى النقد والتمحيص.

الأمر الأول:
الأسلوب الحصري في النصح(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يبدأ المقطع بالأمر ﴿قُلْ﴾، ثم بأسلوب الحصر والقصر ﴿إِنَّمَا﴾.

· دلالة) إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ(:
"إنما" للحصر، أي ما أعظكم إلا بخصلة واحدة، أو بكلمة واحدة جامعة .وهذا الأسلوب يشد انتباه السامع، ويجعله يتلهف لمعرفة هذه "الواحدة" التي جمعت كل الخير .ما هي هذه الواحدة؟ إنها القيام لله ثم التفكر .وهذا يدل على أن هذه الخصلة هي أصل الهداية ومفتاح اليقين .فلو أخذ الناس بهذه الواحدة، لكفتهم وهدتهم إلى الحق.
· اللمسة البيانية في) أَعِظُكُم(:
الوعظ هو التذكير بالخير والعاقبة بأسلوب يلين القلب .والنبي ﷺ لم يأتِ ليفرض عليهم بالقوة، بل ليعظهم وينصحهم .وهذا من لطف الله بهم.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التركيز على الأساسيات: في دعوتك ونصحك للآخرين، لا تشتتهم بكثرة التفاصيل، بل ركز على ا لأصول الجامعة التي إذا أخذوا بها صلح حالهم .هذه الواحدة) التفكر لله (هي أصل كل خير.
2. الرفق في النصيحة: استخدم أسلوب الوعظ والترغيب، لا أسلوب التعنيف والتقريع.
الأمر الثاني:
الخطوة الأولى – القيام لله(أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي التهيئة النفسية والعقلية لعملية التفكر .وهي خطوة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها.

· دلالة) أن تقوموا لِلّهِ(:
"تقوموا" ليس مجرد الوقوف على الأقدام، بل هو القيام بالعزيمة والهمة، والنهوض من غفلة التقليد وضغط الجماعة ."لله" أي مخلصين لله، متجردين عن الهوى والعصبية وحب الآباء والكبر .فهذا القيام يجب أن يكون خالصاً لوجه الله، طلباً للحق لا للجدال والغلبة.
· دلالة) مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ(:
هذا هو المنهج المتوازن ."مثنى" أي اثنين اثنين، أو جماعات صغيرة، يتحاورون ويتناقشون ويتدارسون الأمر ."وفرادى" أي منفردين، كل واحد بنفسه، يخلو إلى عقله وقلبه، ويتفكر في هدوء بعيداً عن ضوضاء الجماعة وتأثيرها.
لماذا هذا الجمع بين المثنى والفرادى؟
· المثنى) الحوار الجماعي(: لتنمية العقل المكتسب .فالاحتكاك بالآخرين، وسماع آرائهم، ومناقشتهم، ومقارنة الأفكار، كل هذا يثري العقل، ويكسبه خبرات جديدة، ويصقل مهاراته .الحوار يكشف زوايا قد تخفى على الفرد وحده.
· الفرادى) التفكر الفردي(: لاستخدام العقل الفطري في أصفى حالاته .فالخلوة بالنفس، بعيداً عن المؤثرات الخارجية، تمنح العقل فرصة للتحليل العميق، والتركيز على القضية، والوصول إلى قناعة ذاتية لا تشوبها شائبة المجاملة أو الخوف من الآخرين.
· العلاقة بين العقل الفطري والعقل المكتسب في ضوء الآية:
هذا المقطع القرآني يوضح بجلاء طبيعة العقل البشري كما أراده الله:
1. العقل الفطري: هو ذلك النور الذي غرسه الله في كل إنسان، وهو الاستعداد والقدرة الأساسية على الفهم والإدراك والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل .هذا العقل هو الذي يجعل الإنسان قادراً على "القيام لله" والتوجه إليه .ولكنه في حالته الخام محدود القدرات.
2. العقل المكتسب: هو ثمرة التفاعل بين العقل الفطري والبيئة المحيطة .إنه مجموعة العقائد و المفاهيم والخبرات والمهارات التي يكتسبها الإنسان من خلال التعليم، والثقافة، والمعايشة، والحوار، وا لاحتكاك بالآخرين .هذا العقل هو الذي يجعل الإنسان ينتقل من المعرفة البسيطة إلى المعرفة المركبة والعميقة.
3. التفكير كمهارة تشغيل: التفكر الذي أمرت به الآية هو مهارة تشغيل العقل الفطري، وجعله يعمل في معالجة المعطيات والمعلومات التي يوفرها العقل المكتسب .إنه الجسر الذي يصل بين الفطرة السليمة والخبرة المتراكمة .فعندما يتفكر الإنسان في سيرة النبي ﷺ) معطيات مكتسبة(، باستخدام عقله الفطري) قدرة على التحليل والربط(، فإنه يصل إلى نتيجة صحيحة.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الإخلاص أساس المعرفة: لا يمكن لعقل أن يصل إلى الحق وهو أسير للهوى .فالنية الصادقة في طلب الحق) "لله" (هي شرط أساسي للهداية.
2. التوازن بين الحوار الفردي والجماعي: لتنمية عقلك، لا تكتفِ بالقراءة الفردية، بل ناقش وشارك في حلقات العلم .ولا تكتفِ بالحوار الجماعي، بل خصص وقتاً للخلوة والتفكر الهادئ.
3. تحرير العقل من ضغط الجماعة: "فرادى" تعني أن تكون شجاعاً في الوصول إلى قناعاتك الخاصة، حتى لو خالفت الجماعة .لا تكن أسيراً للتفكير الجمعي.

الأمر الثالث:
الخطوة الثانية – التفكر(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد التهيئة النفسية والذهنية) القيام لله مثنى وفرادى(، تأتي العملية العقلية المركزية: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

· دلالة) ثُمَّ(:
للتراخي الزمني والمهلة .أي بعد أن تعدوا أنفسكم بهذه التهيئة، خذوا وقتكم الكافي في التفكر .لا تتعجلوا النتائج .وهذا يدل على أن التفكر العميق يحتاج إلى وقت وصبر.
· دلالة) تَتَفَكَّرُوا(:
التفكر هو إعمال العقل والنظر في الشيء، وتقليب وجهاته، وتحليل أجزائه، والربط بين مقدماته ونتائجه .هو عملية عقلية راقية تتجاوز مجرد الإحساس أو الخيال .والآية تأمرهم أن يتفكروا في أمر النبي ﷺ: في سيرته، في خلقه، في دعوته، في القرآن الذي جاء به .فالتفكر في هذه الأمور

سيقودهم حتماً إلى نتيجة: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.
· كيف يكون التفكر وسيلة لتنمية العقل؟
التفكر هو الرياضة الذهنية التي تنمي العقل الفطري وتصقله .كما أن العضلات تنمو بالتمرين، فإن العقل ينمو بالتفكر .وكلما مارس الإنسان التفكر في آيات الله، وفي خلقه، وفي أحوال الأمم، زادت قدرته على التحليل والاستنباط والربط بين الأسباب والنتائج .والقرآن الكريم مليء بالدعوات إلى التفكر، لأنه يريد أن يبني عقولا ً ناضجة واعية.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التفكر عبادة: هذه الآية تجعل التفكر عبادة وقربة إلى الله .فليس مطلوباً من المسلم أن يسلم عقله، بل أن يستخدمه في الوصول إلى الإيمان.
2. التفكر المنهجي: التفكر المطلوب ليس خواطر عابرة، بل هو منهج منظم: جمع المعلومات، تحليلها ، الموازنة بينها، استخلاص النتائج .وهذا ما نسميه اليوم بـ "التفكير الناقد".
3. التفكر يورث اليقين: الإيمان الذي يأتي عن طريق التفكر والاقتناع الذاتي هو إيمان راسخ لا تزعزعه الشبهات، بخلاف الإيمان القائم على التقليد.

الأمر الرابع

نتيجة التفكر الحتمية) مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي النتيجة المنطقية الحتمية التي يصل إليها كل من قام لله وتفكر بإنصاف.

· دلالة) مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ(:
هذه هي النتيجة الأولى .إنهم يعرفون محمداً ﷺ منذ أربعين عاماً قبل البعثة .يعرفون عقله الراجح ، وخلقه الكريم، وأمانته وصدقه .ولذلك وصفه الله هنا بـ "صاحبكم" ، أي صاحبهم الذي عاشروه وعرفوه حق المعرفة .فبالتفكر في سيرته، يتبين لهم أن هذا الرجل العاقل الأمين الحكيم لا يمكن أن يكون مجنوناً أبداً! فالمجنون لا يصدر عنه هذا الكلام الحكيم، ولا هذا التشريع المتقن، ولا هذه الأخلا ق السامية .إذن، فتهمتهم بأنه "مجنون" أو "به جنة" هي تهمة باطلة، يدفعها الواقع والتاريخ.
· دلالة) إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ(:
بعد أن نفت الآية عنه الجنون، أثبتت له صفته الحقيقية: إنه ليس إلا نذيراً ."نذير" أي منذر ومحذر ."بين يدي عذاب شديد" أي قبل وقوع عذاب يوم القيامة .فهو رسول أرسله الله رحمة بهم، لينقذهم من هذا العذاب الشديد .فرفضهم له ليس إلا رفضاً للنجاة، وإلقاءً بأنفسهم إلى التهلكة.
· الربط بين العقل والوحي:
هذه الآية الكريمة تؤكد أن العقل السليم لا يتعارض مع الوحي الصحيح .بل إن العقل هو الذي يرشد إلى ضرورة الوحي .فالإنسان بعقله يدرك أنه بحاجة إلى هداية إلهية، وأن الله لا يترك عباده هملا ً .وبعقله يفرق بين النبي الصادق والكذاب .فالعقل هو الأداة، والوحي هو المادة التي يشتغل عليها العقل .ومن هنا نفهم لماذا حث الإسلام على العلم والتفكر، فهو يريد أن يبني إيماناً عقلانياً راسخاً.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الحق يثبت بالتفكر: كلما تفكرت في سيرة النبي ﷺ وفي القرآن، ازددت يقيناً بصدقه ونبوته.
2. بطلان تهمة التخلف العقلي: أعداء الإسلام في كل زمان يتهمون المسلمين بالتخلف والجمود . هذه الآية ترد عليهم بأن الإسلام هو دين التفكر وإعمال العقل.
3. التفكر في النذر: الآية تذكرنا بأن التفكر ليس للترف الفكري، بل للنجاة من العذاب .فهو تفكر عملي يدفع إلى العمل.

الأمر الخامس: كيف تنمي عقلك الفطري وتستفيد من عقلك المكتسب وفق منهج الآية؟

هذه الآية تقدم لنا برنامجاً عملياً لتنمية العقل .وإليك الخطوات التفصيلية المستفادة من الآية:

المرحلة الأولى: التهيئة) القيام لله(:

· الإخلاص: قبل أن تبدأ في التفكر في أي قضية، طهر نيتك .قل: "اللهم إني أريد الحق" .تخلص من التعصب المسبق، ومن الخوف من نتائج التفكر .هذا هو معنى "تقوموا لله".
· التجرد من الهوى: اعترف بأخطائك المحتملة .كن مستعداً لتغيير قناعاتك إذا تبين لك الحق في غيرها.

المرحلة الثانية: الحوار) مثنى(:

· الاستماع والمناقشة: شارك في حلقات علم، أو ناقش أصدقاءك المثقفين في القضايا التي تشغلك . استمع إلى وجهات النظر المختلفة .هذا يثري "عقلك المكتسب" بمعلومات وخبرات جديدة.
· النقد والمقارنة: لا تبتلع كل ما تسمعه .ناقش، قارن بين الآراء، ابحث عن الأدلة .استخدم مهارات "التفكير الناقد".

المرحلة الثالثة: الخلوة) فرادى(:

· التفكر الهادئ: خصص وقتاً يومياً أو أسبوعياً تخلو فيه بنفسك، بعيداً عن الشاشات والضوضاء .اقرأ في كتاب الله، أو في سيرة النبي ﷺ، أو تأمل في خلق الله .دع "عقلك الفطري" يعمل في هدوء.
· التحليل والاستنتاج: استخدم قدراتك العقلية الفطرية في تحليل ما تعلمته .اربط بين الأسباب و النتائج .استنتج الدروس والعبر.

المرحلة الرابعة: التطبيق:

· العمل بالنتائج: بعد أن تصل إلى قناعة عقلية، حولها إلى عمل .فالإيمان ليس مجرد أفكار، بل هو سلوك .وهذا هو معنى الخوف من "العذاب الشديد".

أمثلة معاصرة لتطبيق المنهج:

· شاب يبحث عن حقيقة الإسلام: يمكنه أن يطبق هذا المنهج: يقرأ القرآن) فرادى(، يناقش مسلمين وغير مسلمين) مثنى(، يتفكر في خلق الكون وسيرة النبي ﷺ، وسيصل إلى نتيجة.
· مسلم يواجه شبهة: لا يخاف من الشبهة .يطبق المنهج: يبحث عن ردود العلماء) مثنى(، يتفكر في ا لآيات والأحاديث) فرادى(، وسيجد أن الشبهة تتهاوى أمام العقل السليم.

الأمر السادس

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآية

.1سؤال الإخلاص: عندما أبحث عن الحق في قضية ما، هل أنا مخلص حقاً في طلبه، أم أن لي رأياً مسبقاً أبحث عما يؤيده فقط؟
.2سؤال التفكر: كم من الوقت أخصصه في يومي أو أسبوعي للتفكر الهادئ، بعيداً عن مشاغل الحياة وضوضائها؟
.3سؤال الحوار: هل أشارك في حوارات هادفة تنمي عقلي، أم أن حواري مع الآخرين ينحصر في الجدال والتراشق؟
.4سؤال النبي ﷺ: عندما أقرأ سيرة النبي ﷺ، هل أقرؤها كقصة تاريخية فقط، أم أتفكر فيها لأزداد يقيناً بصدقه وأتعلم من أخلاقه؟
.5سؤال العذاب: هل يدفعني التفكر في "العذاب الشديد" إلى العمل الصالح والاستعداد ليوم القيامة؟

الأمر السابع

كيف تتحول الآية إلى واقع حياة؟) تطبيقات عملية(

.1تخصيص وقت للتفكر: اجعل لك ولو عشر دقائق يومياً قبل النوم، تتذكر فيها أحداث يومك، وتحاسب نفسك، وتتفكر في نعمة من نعم الله عليك.
.2حل المشكلات بمنهج "مثنى وفرادى": إذا واجهتك مشكلة، ناقشها مع صديق حكيم) مثنى(، ثم اخلُ بنفسك وفكر في الحلول بهدوء) فرادى.(
.3قراءة القرآن بتدبر: لا تجعل همك ختم القرآن، بل اجعل همك فهمه وتدبره .قف عند الآيات التي تأمر بالتفكر، واسأل نفسك: ما الذي يريد الله مني أن أتفكر فيه؟
.4التربية على التفكير الناقد: درب أبناءك على ألا يقبلوا كل ما يسمعونه .علمهم أن يسألوا: "لماذا؟" و "كيف؟" و"ما الدليل؟" .هذا يبني عقولهم.
.5في مواجهة الإعلام: لا تكن مستقبلا ً سلبياً لما تبثه وسائل الإعلام .مارس "القيام لله" بأن تتجرد من التعصب، و"التفكر" بأن تحلل الخبر وتنظر إلى مصدره وأهدافه.

الأمر الثامن

دور الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان مفكر: يمتلك عقلا ً ناضجاً، قادراً على التحليل والاستنتاج.

· إنسان صاحب قناعة ذاتية: إيمانه نابع من تفكره، وليس من تقليده.
· إنسان متوازن: يجمع بين الخلوة الفردية والحوار الجماعي.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع حواري: يقوم على الحوار الهادئ البناء، وليس على الصراخ والتعصب.
· مجتمع ناقد واعٍ: لا تسوده الشائعات، ولا تتحكم فيه الدعايات، لأن أفراده يمتلكون عقولا ً مفكرة.
· مجتمع العلم والمعرفة: لأن التفكر يدفع إلى طلب العلم والبحث.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة العقل والتفكر: الحضارة الإسلامية قامت على تمجيد العقل وإعماله في كل المجالات، وهذا ما جعلها رائدة في العلوم والفنون.
· دولة الشورى والحوار: لأنها تؤمن بمنهج "مثنى" أي التشاور والحوار الجماعي.
· دولة النهضة الدائمة: لأنها تجعل التفكر والتجديد من صميم ثقافتها، فلا تجمد ولا تتحجر.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد وضع الله بين يديك في هذه الآية مفتاح العقول وسر النهضة .إنها تقول لك: "إن أردت أن تصل إلى الحق، فلا تكن أسيراً للتقليد .قم لله خالصاً، ثم تفكر بنفسك، وناقش غيرك، وستصل إلى الحقيقة بنفسك".

إنها دعوة إلى تحرير العقل من كل قيد، وإلى إطلاق طاقاته في رحاب التفكر والتدبر .إنها دعوة إلى أن تكون عبداً لله بعقلك قبل أن تكون بقلبك وجوارحك .لأن العقل هو مناط التكليف، وهو الطريق إلى الإيمان اليقيني.

فاستجب لهذه الدعوة .خصص لنفسك أوقاتاً للتفكر .ناقش الأفكار، وابحث عن الحق .وكن على يقين أنك إذا قمت لله صادقاً، وتفكرت منصفاً، فسيقودك عقلك حتماً إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به هو الحق المبين.
ثانيا
أيها الداعية إلى الله، أيها المؤمن الذي قد تضعف نفسه أمام ضغوط الحياة وإغراءاتها، أيها المصلح الذي قد ييأس من طول الطريق وقوة الباطل، تعال بنا نقف مع أربع آيات كريمات من سورة سبأ، هي دستور الدعاة إلى الله، ومنهاج الثبات على الحق، وبشارة النصر المؤزر. إنها الآيات التي تضع في فم النبي ﷺ كلمات هي إعلان المبدأ وتجريد النية وقطع الطريق على الشبهات. إنها تربية إلهية لكل داعية أن يطهر نفسه من تهمة المصلحة الخاصة، وأن يعلن ثقته المطلقة بالحق الذي يحمله، وألا يهتز أمام ضغوط الباطل وإغراءاته، موقناً أن العاقبة للحق وأهله.

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يأمر نبيه أن يعلنها صريحة مدوية في وجه المشركين:
·﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾· [سبأ: 47]
·﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ۖ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾· [سبأ: 48]
·﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾· [سبأ: 49]
·﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾· [سبأ: 50].

هذه الآيات الأربع تمثل ذروة التجرد والثقة في خطاب النبي ﷺ لقومه. لقد أمره ربه أن يخبرهم بأربع حقائق كبرى: الأولى: أنه لا يطلب منهم أجراً على دعوته، بل أجره على الله. الثانية: أن ما جاء به هو الحق الذي يقذفه الله، علام الغيوب. الثالثة: أن الحق قد جاء، والباطل زائل لا محالة. الرابعة: أنه إن كان ضالا ً فعليه ضرر ضلاله، وإن كان مهتدياً فبفضل وحي ربه. إنها آيات تربي في الداعية الإخلاص والثبات واليقين والتواضع.
موقع الآيات في سياق السورة وارتباطها بما قبلها

بعد أن عرضت الآيات السابقة (46) دعوة المشركين إلى التفكر في حال النبي ﷺ، وأنه ليس بمجنون بل نذير مبين، تأتي هذه الآيات لترد على شبهة أخرى كانت تثار حول الدعاة والمصلحين في كل زمان: شبهة المصلحة الشخصية. كثيراً ما يتهم المبطلون الدعاة بأنهم يطلبون جاهاً أو مالا ً أو سلطاناً. فجاءت هذه الآيات لتقطع دابر هذه الشبهة، وتعلن بكل وضوح أن النبي ﷺ لا يسألهم أجراً، وأن أجره على الله وحده. ثم تنتقل الآيات لتعلن الثقة المطلقة في الحق الذي جاء به، وأن الباطل

إلى زوال، مما يثبت قلب الداعية ويملؤه طمأنينة.
الأمر الأول:
تنزيه الداعية عن المصلحة الخاصة (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

يأمر الله نبيه أن يعلنها بكل وضوح: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

· دلالة) مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ(:
نفي قاطع لأي طلب مادي ."ما" نافية .فالنبي ﷺ لم يطلب منهم مالا ً، ولا جاها، ولا منصبا مقابل دعوته .وهذا هو شأن الأنبياء جميعا، كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾] الشعراء:.[109
· دلالة) فَهُوَ لَكُمْ(:
هذه اللفتة الكريمة تحمل معنيين عظيمين:
· المعنى الأول: على سبيل الفرض، إن كنت قد سألتكم أجرا، فهو لكم، أي لا حاجة لي به، فعودوا به.
· المعنى الثاني: إن كنتم تظنون أن لي مطلبا دنيويا، فكل ما في أيديكم من مال الدنيا هو لكم، فأنا لست طامعا فيه .وهذا غاية في التنزه والتجرد.
· دلالة) إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ(:
هذا هو الإعلان الصريح بمصدر الأجر الحقيقي .إنه لا ينتظر من البشر جزاءً ولا شكورا، بل ينتظر أجره من الله وحده .وهذا هو سر قوة الداعية .فمن كان أجره على الله، لم يهزه منع الناس، ولم يثنه جحودهم، ولم يغره عطاؤهم.
· دلالة) وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(:
هذا هو السند والضمان .الله شهيد على صدق نيتي، وعلى أني لا أطلب منكم أجرا .وهو شهيد على أعمالكم وردكم للحق .فإذا كان الله شهيدا، فلماذا أخاف من اتهاماتكم؟ ولماذا أحزن على تكذيبكم؟ حسبي أن الله يعلم حقيقة أمري.
· ضرورة تنزيه الداعية نفسه من المصلحة الخاصة:
هذه الآية تضع قاعدة أساسية في منهج الدعوة: على الداعية أن يكون بعيدا كل البعد عن الشبهات المالية والمصالح الشخصية .فالناس بطبعها تنفر من الداعية الذي يطلب أموالهم، وتشك في نواياه .أما إذا كان الداعية متجردا، لا يطلب شيئا من أموال الناس، ولا يسعى إلى منصب أو جاه، فإن قلوب الناس تنفتح له، وتثق في صدقه .كم من داعية أفسد دعوته بحب المال أو الجاه! وكم من مصلح صدّه الناس عنه لأنه اتهم بالمصلحة! هذه الآية تربي فينا أن نكون كالأنبياء، لا نطلب من الناس أجرا، بل نطلب الأجر من الله وحده.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· الداعية الصادق: شيخ يعلم الناس القرآن والفقه، ولا يسألهم مالا ً، بل يعمل في تجارته وينفق على نفسه .هذا أدعى لقبول الناس لدعوته.
· المصلح الاجتماعي: ناشط يدعو إلى محاربة الفساد، وهو نفسه نزيه اليد، لم يستغل منصبه لجمع المال .هذا هو الذي يصدقه الناس.
· الموظف العام: موظف يرفض الرشوة، ويؤدي عمله بأمانة، فيكون قدوة لغيره .هذا هو الذي يطبق معنى "إن أجري إلا على الله".
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. إخلاص النية لله: راجع نيتك في كل عمل تعمله .هل تبتغي به وجه الله، أم تنتظر شكر الناس وأجرهم؟
2. التحرر من عبودية المال: من جعل أجره على الله، تحرر من الخوف من الفقر، ومن الطمع فيما في أيدي الناس.
3. الثقة بالله عند الاتهام: إذا اتهمك أحد بالمصلحة، فاستحضر قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . فالله يعلم حقيقتك، وسيبين أمرك.
الأمر الثاني:
مصدر الحق وقوته (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ۖ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن نزه نفسه عن المصلحة، يعلن عن مصدر الحق الذي جاء به، وعن قوته التي لا تقاوم.

· دلالة) إِنّ رَبّي يَقذِفُ بِالحَقّ(:
"يقذف" أي يرمي به رمياً بقوة وسرعة وشدة .فالحق ليس مجرد كلام يلقى برفق، بل هو قذيفة إلهية ترمى على الباطل فتدمغه وتزهقه .وهذا التعبير يدل على:
· علو مصدر الحق: فهو يأتي من عند الله رب العالمين.
· قوة الحق: فالحق قوي في ذاته، يدمغ الباطل.
· سرعة تأثير الحق: فما أن يُقذف به حتى يزول الباطل.
· دلالة) عَلّامُ الغُيُوبِ(:
وصف الله بأنه "علام الغيوب" في هذا السياق له دلالة عظيمة .فالله الذي يقذف بالحق هو العالم بكل الغيوب: يعلم ما تخفيه صدوركم، ويعلم مستقبل هذا الدين، ويعلم أن العاقبة للمتقين .فإذا كان علام الغيوب هو الذي يقذف بالحق، فثق أن هذا الحق سينتصر، وأن الباطل سيزهق، مهما بدا قوياً في الظاهر.
· الثقة بأن الحق لابد أن ينتصر:
هذه الآية تزرع في قلب الداعية والمؤمن طمأنينة عجيبة .فالحق الذي تحمله ليس صناعة بشرية، بل هو "قذيفة إلهية" .وكما أن القذيفة إذا أطلقت من مدفع قوي فإنها تصيب هدفها، فكذلك الحق الذي يقذف به الله لابد أن يصيب هدفه ويدمر الباطل .فلا تحزن إذا رأيت الباطل قوياً، فالحق أقوى .ولا تستعجل النصر، فالله علام الغيوب يعلم متى يكون .هذه العقيدة هي التي جعلت الصحابة والأنبياء يثبتون في وجه الطغاة، لأنهم يوقنون أن الله يقذف بالحق، وأن الباطل إلى زوال.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المدفع والقذيفة: إذا أطلقت قذيفة من مدفع قوي نحو هدف، فإنها تصل إليه وتهدمه، مهما كان الهدف محصناً .هذا هو حال الحق الذي يقذف به الله: يصل إلى قلوب الناس، ويهدم حصون الباطل.
· النور والظلام: مهما اشتدت ظلمة الليل، فإن شعاعاً واحداً من النور يبددها .الحق نور، والباطل ظ لام .وما إن يظهر الحق حتى يتبدد الباطل.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الثقة في الحق الذي تحمله: لا تشك في أن ما معك من حق سينتصر .فهذا وعد الله.
2. الصبر وعدم الاستعجال: النصر له توقيت يعلمه علام الغيوب .فلا تستبطئه.
3. التسلح بالحق: لا تكن سلبياً .كن أداة في يد الله ليقذف بك الحق .تعلم، وادعُ، وجاهد في سبيل الله.

الأمر الثالث:
إعلان حتمية انتصار الحق وزوال الباطل (قُلْ جَاءَ الحَقّ وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد أن بين مصدر الحق، يأتي الإعلان المدوي عن مجيئه، وعن مصير الباطل المحتوم.

· دلالة) جَاءَ الحَقّ(:
فعل ماضٍ يدل على التحقق والثبوت .فالحق لم يعد أمراً منتظراً، بل قد جاء وتحقق .وهو الإسلام والقرآن الذي جاء به النبي ﷺ.
· دلالة) وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ(:
هذا هو حكم الإعدام على الباطل ."ما يبدئ" أي لا يستطيع أن يبدأ شيئاً جديداً، ولا أن يخلق شيئاً ."وما يعيد" أي لا يستطيع أن يعيد شيئاً مما كان له من سلطان وقوة .فالباطل عقيم، لا إبداع فيه ولا تجديد .وأهله عاجزون عن إعادته بعد أن دحره الحق .وكما قيل: "جاء الحق فزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا" .هذا الوصف هو قمة اليأس للباطل وأهله، وقمة الثقة للحق وأهله.
· الباطل إلى زوال مهما كان ظاهره قوياً:
هذه الآية تقدم لنا قانوناً تاريخياً وسنة إلهية: الباطل مهما بدا عظيماً وقوياً، فإنه إلى زوال .انظر إلى الدول الظالمة التي قامت على الباطل، كيف سقطت واندثرت! انظر إلى الأفكار المنحرفة التي ملأ ت الدنيا ضجيجاً، كيف خبت واضمحلت! الباطل كالزبد يذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .فلا يغرنك قوة الباطل، فإنها قوة مؤقتة، وما هي إلا جولة من جولات الصراع، أما النهاية فمحسومة للحق.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· جدار برلين: كان رمزاً للقوة والانقسام، ظن الناس أنه باقٍ إلى الأبد .لكنه سقط فجأة، ولم يستطع الباطل أن يعيده! .(وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ).
· الأنظمة المستبدة: كم من نظام مستبد ظن أنه باقٍ، وسخر الإعلام والجيش لبقائه، فإذا به ينهار في أيام! هذا هو الباطل، لا يبدئ ولا يعيد.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. عدم الخوف من جبروت الباطل: مهما كان الباطل قوياً، فهو إلى زوال .فلا ترهبك قوته الظاهرة.
2. التفاؤل بمستقبل الإسلام: الإسلام هو الحق، وقد جاء .والباطل الذي يحاربه إلى زوال .فهذه بشارة لكل مؤمن.
3. العمل على إزهاق الباطل: لا تنتظر أن يزول الباطل وحده .بل كن جندياً من جنود الحق، تعمل على إزهاقه بالكلمة والموقف والعمل الصالح.

الأمر الرابع:

إعلان المسؤولية الفردية والاعتماد على الوحي (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه الآية هي قمة التواضع والتجرد ونسبة الفضل إلى الله.

· دلالة) إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي(:
هذا فرض جدلي، كما يقول المتكلم الواثق من حجته: "إن كنت مخطئاً، فالضرر عائد عليّ" .وهذا إع لان أن النبي ﷺ لا يريد لهم إلا الخير، وأنه إن كان على ضلال -وحاشاه- فضرر ذلك عليه وحده . وهذا الأسلوب يجعل الخصم يراجع نفسه، ويشعر أن الداعية ليس متكبراً ولا متعصباً لرأيه.
· دلالة) وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي(:
هذا هو الاعتراف بفضل الله .فالنبي ﷺ لا ينسب الهداية إلى ذكائه أو اجتهاده، بل إلى وحي ربه . وهذا يعلمنا التواضع ونسبة الفضل لأهله .فكل خير نحن فيه هو بوحي الله وتوفيقه.
· دلالة) إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(:
ختام الآية بهذين الاسمين يملأ القلب أنساً وطمأنينة .فهو سميع لأقوالهم ودعائهم، قريب منهم، لا يحتاجون إلى وسائط .فادعوه مباشرة، واطلبوا منه الهداية.
· أهمية الثقة بأنك على الحق:
هذا الإعلان "إن اهتديت فبما يوحي إلي ربي" هو ذروة الثقة .فالنبي ﷺ يعلنها صريحة: أنا على هدى من ربي .هذه الثقة هي التي تجعله يثبت أمام الضغوط والإغراءات .فالداعية الذي لا يثق في الحق الذي معه، سرعان ما ينهزم .أما الداعية الذي يوقن أن ما معه هو وحي من الله، فإنه كالجبل ا لأشم، لا تزعزعه العواصف .فثقتك بأنك على الحق هي درعك الواقي من الشبهات، ووقودك للمضي في طريق الدعوة.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. التواضع ونسبة الفضل لله: لا تغتر بعلمك أو عملك .قل دائماً: "هذا من فضل ربي" .فالهداية هبة من الله.
2. الثبات على المبدأ: ثقتك بأنك على الحق تجعلك لا تتنازل عن مبادئك تحت أي ضغط أو إغراء.
3. التجرد في الحوار: استخدم أسلوب "إن ضللت فعليّ" مع مخالفيك .فهذا يلين قلوبهم ويفتحهم للحق.

الأمر الخامس: الدروس المجتمعة من الآيات الأربع للداعية والمؤمن

هذه الآيات الأربع تقدم لنا حقيبة متكاملة للداعية إلى الله، بل لكل مؤمن يريد أن يعيش بدينه في هذا الزمن. دعنا نلخص هذه الدروس:

الدرس الأول: تجرد النية وطهارة اليد (آية 47):

· المبدأ: لا تطلب من الناس أجراً على دعوتك أو عملك الصالح .أجلك على الله.
· الأثر: هذا يحررك من عبودية المال والناس، ويجعل كلمتك مسموعة، ويبعد عنك تهمة المصلحة.

الدرس الثاني: الثقة في مصدر الحق وقوته (آية 48):

· المبدأ: الحق الذي معك ليس من عندك، بل هو "قذيفة" من الله علام الغيوب.
· الأثر: هذا يمنحك قوة لا توصف، ويجعلك واثقاً من النصر، صابراً على طول الطريق.

الدرس الثالث: اليقين بحتمية انتصار الحق (آية 49):

· المبدأ: الحق قد جاء، والباطل زائل لا محالة، لا يبدئ ولا يعيد.
· الأثر: هذا يملأ قلبك تفاؤلاً وأملاً، ويحميك من اليأس والإحباط عند رؤية قوة الباطل.

الدرس الرابع: التواضع والثبات على المبدأ (آية 50):

· المبدأ: إن كنت على هدى فبفضل الله، وإن كنت على ضلال فعليّ وحدي.
· الأثر: هذا يجعلك متواضعاً، شاكراً لله، ثابتاً على مبدئك، لأنك تعلم أنك على حق.

بهذه الدروس الأربعة، يستطيع الداعية والمؤمن أن يواجه كل التحديات: الإغراءات المالية (الدرس الأول)، اليأس من النصر (الدرس الثاني والثالث)، الضغوط النفسية (الدرس الرابع). إنها بحق منهج حياة.

الأمر السادس

أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

.1سؤال الأجر: هل أطلب من الناس أجراً أو شكراً على عمل صالح أقوم به؟ كيف أعالج ذلك؟
.2سؤال الثقة بالحق: هل أنا واثق أن ما أنا عليه من دين ومبدأ هو الحق الذي لابد أن ينتصر؟ كيف أقوي هذه الثقة؟
.3سؤال الباطل: عندما أرى قوة الباطل وانتشاره، هل يصيبني اليأس؟ كيف تساعدني هذه الآيات على تجاوز ذلك؟
.4سؤال التواضع: عندما أوفق في عمل خير، هل أنسب الفضل لنفسي، أم أقول: "هذا من فضل ربي"؟
.5سؤال الثبات: هل سبق لي أن تراجعت عن موقف حق بسبب ضغط أو إغراء؟ كيف أستفيد من هذه الآيات للثبات في المستقبل؟

الأمر السابع

كيف تتحول الآيات إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

.1في الدعوة والعمل الخيري:
· لا تجعل همك جمع المال من الناس .كن كريماً بما تملك، ولا تسأل الناس شيئاً .قل بلسان حالك: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.
.2في مواجهة اليأس والإحباط:
· إذا شعرت أن الباطل ينتشر، وأن جهودك لا تثمر، فاستحضر قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ . وثق أن المستقبل لهذا الدين.
.3في الحوار مع المخالفين:
· استخدم أسلوب التواضع .قل لهم: "إن كنت على خطأ، فأنا أول المتضررين .وإن كنت على صواب، فذلك بتوفيق الله" .هذا يلين قلوبهم.
.4في تربية النفس على الإخلاص:
· قبل أي عمل، اسأل نفسك: "لماذا أفعل هذا؟" .اجعل جوابك: "لأن الله أمرني، وأجري عليه" .جدد نيتك باستمرار.
.5في تقوية الثقة بالله:
· اقرأ قصص الأنبياء، وكيف نصرهم الله بعد استضعافهم .تأمل كيف أن الله يقذف بالحق على ألسنة الضعفاء، فينتصرون .هذا يزيدك ثقة.

الأمر الثامن

دور الآيات في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

.١في بناء الإنسان:

· إنسان مخلص: لا يطلب الأجر إلا من الله.
· إنسان واثق من الحق: لا تزعزعه الشبهات ولا العواصف.
· إنسان متفائل: يرى نور الحق في نهاية النفق.
· إنسان متواضع: ينسب كل خير إلى الله.

.٢في بناء المجتمع:

· مجتمع الثقة في الدعاة والمصلحين: لأنهم لا يطلبون أجراً.
· مجتمع الأمل والتفاؤل: لأن أفراده يوقنون بأن الحق منتصر.
· مجتمع الثبات على المبادئ: لا يغير مبادئه تحت أي ضغط.

.٣في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة الإخلاص والتجرد: تقوم على أكتاف رجال لا يطلبون من الناس أجراً، بل يطلبون وجه الله.
· دولة الحق والعدل: تؤمن بأن الحق يقذف به الله، وأن الباطل زاهق، فتسعى لإقامة الحق والعدل في الأرض.
· دولة الصمود والثبات: تواجه الضغوطات الخارجية بثبات، لأنها توقن أن الله معها، وأن العاقبة للمتقين.
خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، لقد سمعت إعلانات النبي ﷺ الأربعة: إعلان التجرد، وإعلان مصدر الحق، وإعلان انتصار الحق، وإعلان المسؤولية الفردية. هذه هي صفات الداعية الصادق، وهذه هي بشارات النصر لكل مؤمن.

فطهر نيتك، واطلب أجرك من الله. واثق بأن الحق الذي معك هو قذيفة إلهية ستدمغ الباطل. وتفاءل ، فالباطل إلى زوال مهما طال ليله. وكن متواضعاً، فما بك من نعمة فمن الله.

واجه الحياة بهذه الروح. اثبت على مبدئك، ولا تنهزم أمام إغراء أو ضغط. وكن جندياً من جنود الحق، تعمل على إعلاء كلمة الله، موقناً بأن الله معك، وهو حسبك ونعم الوكيل.
ثالثا
أيها القلب الذي يعيش في غمرة الدنيا وغفلتها، أيها العقل الذي استبعَد لقاء الله واستصغر شأن الحساب، أيها الإنسان الذي يظن أن الموت نهاية لا رجعة بعدها، تعال بنا نقف مع الخواتيم المهيبة لسورة سبأ. إنها أربع آيات تشكل المشهد الأخير في هذه السورة العظيمة، مشهدًا يهز الوجدان، ويخلع القلوب، ويصور حال المكذبين في أحرج لحظات الوجود: لحظة الفزع الأكبر، لحظة انقطاع الأمل، لحظة الندم الذي لا ينفع. إنها آيات تجيب عن أسئلة: ماذا سيحدث للذين كفروا وجحدوا؟ وماذا سيكون موقفهم عندما يرون العذاب؟ وهل سينفعهم إيمانهم بعد فوات الأوان؟

تأمل معي قول الله تعالى، وهو يختم سورة سبأ بهذا المشهد المزلزل:
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51]
﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 52]
﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 53]
﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: 54].

هذه الآيات الأربع تمثل ذروة الترهيب وخاتمة الإنذار في السورة. لقد بدأت السورة بإعلان ملك الله المطلق واستحقاقه للحمد في الدنيا والآخرة (الآية 1)، وها هي تختم بمشهد أخذ الله للملك من الكافرين الجاحدين، وحيلولة بينهم وبين ما يشتهون، وتجسيد للعذاب والندامة، لتكتمل الدائرة: من اعترف بملك الله وحمده في الدنيا نجا، ومن جحد وكفر أخذ أخذ عزيز مقتدر. إنه اختتام يليق بعظمة السورة وموضوعها.
***
دلالة الاختتام وارتباطه ببداية السورة

سورة سبأ بدأت بالحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة. وهذا الا فتتاح يعلن الملك المطلق لله، واستحقاقه للحمد في الدنيا والآخرة. ثم جاءت الآيات تفصّل مظاهر هذا الملك: علمه المحيط (آية 2-3)، جزاءه للشاكرين والكافرين (آية 4-5)، آياته في داود وسليمان (آية 10-14)، قصة سبأ (آية 15-19)، إلى أن تصل إلى هذه الخواتيم. فكأن السورة تقول: "لقد بينا لكم أن الملك لله، وأن الحمد له في الآخرة، وهذا هو مشهد الآخرة: لقد أخذنا الملك من الكافرين، وحُلنا بينهم وبين شهواتهم، ونفذ فيهم حكمنا". إنها خاتمة تتناغم مع البداية في إثبات أن الملك كله لله، وأنه الحكيم الخبير في تدبيره، وأن الحمد له وحده في الأولى والآخرة.
الأمر الأول:
الفزع والأخذ المفاجئ (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

تبدأ الآيات بجملة تشويقية تثير الرهبة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾.

· دلالة (وَلَوْ تَرَىٰ):
"لو" هنا للتمني أو للتشويق. أي: لو رأيت أيها السامع هذا المشهد العظيم، لرأيت أمرًا هائلًا. و

الخطاب موجه للنبي ﷺ وللمؤمنين. وهذا الأسلوب يجعل الذهن يتصور المشهد وكأنه يقع الآن، فيتفاعل معه وجدانيًا.
· دلالة (إِذْ فَزِعُوا):
"إذ" ظرف لما مضى، ولكنها هنا لاستحضار المستقبل كأنه واقع. "فزعوا" أي خافوا خوفًا شديدًا واضطربوا. وهذا الفزع يحتمل أن يكون عند النفخة الأولى (نفخة الصعق) أو عند البعث أو عند رؤية العذاب في جهنم. والأقرب أنه فزع يوم القيامة حين يرون ما كانوا يكذبون به.
· دلالة (فَلَا فَوْتَ):
"الفوت" هو النجاة والهرب. أي لا مهرب لهم ولا منجى. فهم في قبضة الله، لا يستطيعون الفرار من العذاب كما كانوا يفرون من الحق في الدنيا. في الدنيا كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35]، أما هنا فلا فوت.
· دلالة (وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ):
هذا هو الخزي الأكبر. أُخذوا من مكان قريب. ما هو هذا المكان القريب؟ قيل: هو القبور. فهم لم يذهبوا بعيدًا، بل من تحت أقدامهم، من حيث يظنون أنهم في أمان. وقيل: من مكان الحشر، حيث يظنون أنهم قادرون على الهرب، فيؤخذون بغتة. والمعنى العام: أن العذاب أتاهم من حيث لا يحتسبون، وبسرعة لم يتوقعوها.
· أمثلة تقريبية معاصرة:
· المجرم الذي يحاصر في بيته: مجرم ظن أنه آمن في بيته، فإذا بالشرطة تحاصره وتقبض عليه من الداخل. يقولون: "أخذ من مكان قريب".
· المريض المهمل: شخص أهمل صحته وظن أنه بخير، فإذا بالمرض ينخر في جسده من الداخل، ويفاجئه الموت. هذا أخذ من مكان قريب.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. اليقظة من الغفلة: الموت والعذاب قد يأتيان من حيث لا ندري. فلا نغتر بالأمان الظاهري.
2. الخوف من سوء الخاتمة: "أخذوا من مكان قريب" تذكرنا بسوء الخاتمة. فنسأل الله حسن الخاتمة.
3. الهروب من الله مستحيل: في الدنيا قد يهرب الإنسان من وجه الحق، لكن في الآخرة لا مهرب. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾.
الأمر الثاني:
الندم المتأخر (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ۚ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

بعد الأخذ المفاجئ، يأتي مشهد الندم والاعتراف المتأخر.

· دلالة (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ):
"به" أي بالله، أو بالقرآن، أو بالرسول، أو بالبعث الذي كذبوا به. في ذلك الموقف المهول، يعلنون إيمانهم. ولكن هيهات!
· دلالة (وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ):
"أنى" استفهام بمعنى النفي، أي: كيف لهم ذلك؟ ومن أين لهم أن ينالوا الإيمان؟. "التناوش" بمعنى التناول. أي: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان ويحصلوا عليه في هذا الوقت؟!
· دلالة (مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ):
هذا هو بيت القصيد. الإيمان كان في الدنيا قريبًا منهم، في متناول أيديهم. كانوا يستطيعون أن يؤمنوا بسهولة، لكنهم أعرضوا. أما الآن، فقد بَعُدَ عنهم الإيمان، وصار في مكان بعيد لا يمكنهم الوصول إليه. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: 158].
· المقابلة العجيبة في الآيات:
· في الدنيا: كانوا يقذفون بالغيب من مكان بعيد (كما سيأتي).
· في الآخرة: يطلبون التناوش من مكان بعيد.
· في الدنيا: أخذوا من مكان قريب (القبور).
· في الآخرة: الإيمان بعيد عنهم. إنها مقابلة بديعة تظهر عدل الله.
· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:
1. الإيمان في زمن المهلة: هذه الآية تذكرنا أن باب التوبة مفتوح الآن، فبادر قبل أن يغلق. "التناوش" اليوم قريب، فلا تؤجله حتى يصير بعيدًا.
2. الندم لا ينفع بعد الموت: كم من نادم في الدنيا على تفريطه، فكيف بندامة الآخرة! اغتنم حياتك.

3. لا تغتر بالتسويف: الشيطان يسوف لك ويقول: "بعد الحج، بعد رمضان، بعد أن تكبر". هذه الآية تحذر من التسويف، فباب التوبة قد يغلق فجأة.

الأمر الثالث:

سبب المصير الأليم (وَقَدْ كفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقذِفُونَ بِالغَيْبِ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه الآية تذكر السبب الذي أوصلهم إلى هذا المصير.

· دلالة (وَقَدْ كفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ):

"به" أي بالله ورسوله واليوم الآخر. "من قبل" أي في الدنيا، قبل معاينة العذاب. فكفرهم السابق هو الذي جرّ عليهم هذا العذاب.

· دلالة (وَيَقذِفُونَ بِالغَيْبِ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ):

هذا وصف دقيق لحالهم النفسية والفكرية في الدنيا. كانوا يقذفون أي يرمون بالكلام جزافًا في الغيب الذي لا يعلمونه (كالطعن في البعث، والقول على الله بغير علم، والافتراء على النبي ﷺ). وكانوا يفعلون ذلك من مكان بعيد عن الحق، بعيد عن الهدى، بعيد عن الصواب. لم يكونوا يستندون إلى علم أو دليل، بل إلى الظن والهوى. و"القذف" يدل على الرمي بالحجارة، فكلامهم كان حجارة يرمون بها الحق من بعيد، دون أن يقتربوا منه أو يفهموه.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. الحذر من القول بغير علم: هذه الآية تذم "القذف بالغيب". فلا تتكلم في أمور الدين والدنيا بغير علم. وتبين في الحقائق قبل أن تصدر حكمًا.

2. أثر الذنوب في الآخرة: كفرهم وقذفهم بالغيب هو الذي أوصلهم إلى العذاب. فكل ذنب نفعله في الدنيا له عاقبة في الآخرة.

3. الاقتراب من الحق: بدل أن تكون "من مكان بعيد"، اقترب من الحق، اقرأ القرآن، تعلم العلم الشرعي، جالس الصالحين.

الأمر الرابع:

الحيلولة والخاتمة (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ)

الدلالة واللمسات البيانية والرسائل التربوية:

هذه هي الخاتمة المأساوية، والجملة التي تختتم السورة.

· دلالة (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ):

في الدنيا، كانوا يشتهون ألا يبعثوا، ويشتهون أن يبقوا في نعيمهم. في الآخرة، يشتهون النجاة من العذاب، أو العودة إلى الدنيا ليؤمنوا، أو حتى أن يموتوا فلا يبقوا في العذاب. لكن الله يحول بينهم وبين كل هذه الشهوات. لا سبيل لهم إلى ما يشتهون أبدًا. إنه اليأس المطلق.

· دلالة (كمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ):

"أشياعهم" أي أمثالهم وأشباههم من الأمم الكافرة السابقة (قوم نوح، عاد، ثمود، فرعون). هذه سنة إلهية مطردة. كما فُعل بهؤلاء من الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون، يُفعل بهؤلاء. وهذا فيه تثبيت للمؤمنين، وبيان أن الله لا يظلم أحدًا.

· دلالة الختام (إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ):

هذا هو التشخيص النهائي لأصل الداء. لماذا وصلوا إلى هذا المصير؟ لأنهم كانوا في شك مريب. "مريب" أي موقع في الريبة والقلق والحيرة. إيمانهم بالآخرة لم يكن يقينًا، بل كان شكًا واضطرابًا. وهذا الشك هو الذي جرأهم على المعاصي، وجعلهم يكذبون بالحق، ويقذفون بالغيب. فالشك هو أم الكفر والضلال، كما أن اليقين هو أصل الإيمان والنجاة.

· الرسائل النفسية والتربوية والعملية:

1. اليقين هو سفينة النجاة: هذه الخاتمة تؤكد أهمية اليقين في الله واليوم الآخر. فمن ملأ قلبه اليقين، عصمه من الشهوات ومن المعاصي. اجتهد في تقوية يقينك بتدبر القرآن، وزيارة القبور، و التفكر في أهوال القيامة.

2. الشك عدو الإيمان: الشك يهدم الدين والعمل. فاحذر من الشكوك، وعالجها بطلب العلم وسؤال العلماء.

3. اليأس من رحمة الله للكافرين: هذه الآيات تيأس الكافرين، وتبين لهم أن باب التوبة قد أغلق. أما المؤمن، فباب التوبة مفتوح له دائمًا.

الأمر الخامس
أسئلة تدبرية لنا على ضوء هذه الآيات

1. سؤال الفزع: عندما أقرأ "إذ فزعوا فلا فوت"، هل أستشعر هول ذلك اليوم؟ هل أستعد له حق الا ستعداد؟
2. سؤال الأخذ القريب: هل أنا آمن أن الموت قد يأخذني من مكان قريب (في بيتي، في فراشي، فجأة)؟ كيف أغير من حياتي لأكون مستعدًا؟
3. سؤال التناوش: هل أسوف في التوبة، وأقول: "سأفعل غدًا"؟ هل أدرك أن الإيمان اليوم قريب، وغدًا قد يصير بعيدًا؟
4. سؤال القذف بالغيب: هل أتكلم في أمور الدين أو في أعراض الناس بغير علم؟ هل أرمي بالكلام جزافًا؟ كيف أضبط لساني؟
5. سؤال الشك المريب: هل في قلبي شك في بعض أمور الآخرة أو القضاء والقدر؟ كيف أعالج هذا الشك وأحوله إلى يقين؟

الأمر السادس
كيف تتحول الآيات إلى واقع حياة؟ (تطبيقات عملية)

1. استحضار الموت يوميًا:
· قبل أن تنام، تخيل أن هذه الليلة هي آخر ليلة لك. ماذا ستقول لربك؟ ماذا ستوصي؟ هذا التمرين يحيي القلب ويدفع للعمل.
2. المبادرة بالتوبة وعدم التسويف:
· إذا أذنبت ذنبًا، فبادر بالتوبة فورًا. لا تقل: "غدًا". قل: "أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه". سارع قبل أن يُحال بينك وبين ما تشتهي.
3. طلب العلم لدفع الشك:
· إذا وردت عليك شبهة أو شك في أمر من أمور الدين، فابحث عن إجابة. اسأل عالمًا ثقة، واقرأ كتابًا موثوقًا. لا تدع الشك يتمكن من قلبك. فالشك المريب هو سبب الهلاك.
4. حفظ اللسان عن القذف بالغيب:
· لا تتكلم عن أحد بسوء إلا بدليل قاطع ولمصلحة شرعية. ولا تفتِ في دين الله بغير علم. وقل دائمًا: "الله أعلم".
5. الاعتبار بمصارع الأمم السابقة:
· اقرأ في التاريخ، وتأمل كيف أخذ الله الأمم الظالمة بغتة من مكان قريب. هذه القراءة تزيد من يقينك واعتبارك.

الأمر السابع
دور الآيات في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة الإسلامية ودولة التوحيد

١. في بناء الإنسان:

· إنسان يقظ القلب: لا يغفل عن الموت والآخرة.
· إنسان مستعد: يبادر بالتوبة والأعمال الصالحة.
· إنسان متثبت: لا يتكلم بغير علم.
· إنسان صاحب يقين: قلبه مليء بالإيمان، لا بالشك المريب.

٢. في بناء المجتمع:

· مجتمع الأمل والعمل: لا يغرق في الشهوات، بل يعمل للآخرة.
· مجتمع العلم والتحري: لا يشيع فيه القذف بالغيب والغيبة.
· مجتمع العبرة والتاريخ: يتعلم من مصير الأمم السابقة فلا يقع فيما وقعوا فيه.

٣. في بناء الحضارة الإسلامية ودولة التوحيد:

· حضارة اليقين والاستعداد: الحضارة الإسلامية حضارة تنظر إلى الدنيا على أنها مزرعة الآخرة، وهذا يعطي للحياة معنى وقيمة، ويدفع للإنتاج والإتقان.
· دولة العدل والسنن الإلهية: تؤمن بأن الله عادل، وأن له سننًا في الأمم، فتحكم بالعدل وتعتبر بـ التاريخ، فلا تطغى ولا تبطر.
· دولة الصمود والثبات: لأنها تعلم أن مصير الباطل هو ما رأته هذه الآيات، فهي لا تيأس ولا تضعف،

بل تصبر وتصابر حتى يأتي وعد الله.

خاتمة وجدانية

أيها القارئ الكريم، بهذه الآيات الأربع تختم سورة سبأ رحلتها الإيمانية. لقد بدأت بالحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وانتهت بمشهد أخذ الله للكافرين الجاحدين، وحيلولة بينهم وبين ما يشتهون. إنها تقول لك: "اختر لنفسك! إما أن تكون من الحامدين الشاكرين الذين يعترفون بملك الله في الدنيا، فيدخلون في رحمته في الآخرة. وإما أن تكون من الجاحدين المكذبين الذين يغترون بـ الدنيا، فيكون مصيرهم هذا الفزع والأخذ والحيلولة" .

فلا تكن من الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. بل كن من الذين قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾. واعلم أن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، وأن الشك المريب هو طريق الهلاك، واليقين هو طريق النجاة.

اللهم ارزقنا يقينًا صادقًا، وإيمانًا كاملا ً، وتوبة نصوحًا قبل الموت. ونجنا من الفزع الأكبر، وأمنا من عذابك يوم تبعث عبادك. وارزقنا حسن الخاتمة، واجعل خير أعمالنا خواتيمها. والحمد لله رب العالمين. العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة المراجع والمصادر المعتمدة في الدراسة التفسيرية لسورة سبأ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فهذه مذكرة علمية توثيقية تشتمل على جردٍ لأهمّ المراجع والمصادر التي استندت إليها في الدراسة التفسيرية والتدبرية لسورة سبأ، مرتبةً بحسب حقول المعرفة والتخصصات التي توزّعت عليها الدراسة؛ من تفسير وبلاغة وتربية وتزكية وحديث وفقه وإعجاز وتنمية بشرية وغيرها، تقيدًا بالأمانة العلمية وإبرازًا لمنهجية البحث التي قامت عليها هذه الدراسة.

أولًا: المصادر الأساسية في التفسير وعلوم القرآن

اعتمدت الدراسة في أصل التفسير وبيان المعاني على أمّهات كتب التفسير التي تمثّل العمدة في هذا الباب، ومنها:

اسم الكتاب المؤلف طبيعة المصدر ووظيفته في الدراسة
1جامع البيان عن تأويل آي القرآن) تفسير الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) ت310 هـ (العمدة الأولى في التفسير بالمأثور؛ يُعتمد عليه في بيان أقوال السلف وأسباب النزول ووجوه التأويل.
2تفسير القرآن العظيم) تفسير ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير) ت774 هـ (المرجع الأساس في تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وأقوال الصحابة والتابعين، مع عناية بتمييز الصحيح من الضعيف.
3الجامع لأحكام القرآن) تفسير القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي) ت671 هـ (مرجع جامع لأحكام القرآن وفقهه ولطائفه اللغوية والبلاغية.
4التحرير والتنوير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور) ت1393 هـ (ركيزة أساسية في بيان اللمسات البلا غية والبيانية، وفي إبراز مقاصد السور ومناسبات الآيات.
5تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) تفسير السعدي (الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي)ت1376 هـ (تفسير سهل العبارة، دقيق المعنى، اعتمدته في تقرير المعاني الإجمالية والتربوية.
6معالم التنزيل) تفسير البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي) ت516 هـ (مرجع وسطي يجمع بين المأثور والمعقول، يُستفاد منه في عرض الأقوال المعتمدة.

ثانيًا: المصادر في البلاغة والبيان واللمسات اللغوية

اعتمدت في تحليل اللمسات البيانية والبلاغية والدلالات اللغوية على المصادر الآتية:

اسم الكتاب المؤلف طبيعة المصدر ووظيفته في الدراسة
1دلائل الإعجاز أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني) ت471 هـ (أصلٌ في نظرية النظم، يُعتمد عليه في بيان أوجه الإعجاز البياني والتركيبي للقرآن.
2أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني متمّم لدلائل الإعجاز، يُعنى بالتصوير البياني والاستعارة والتشبيه والكناية.
3الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري) ت538 هـ (مرجع غني بالتحليلات البلاغية والنحوية والبيانية، مع الانتباه لموقفه الا عتزالي.
4في ظلال القرآن سيد قطب) ت1386 هـ (مصدر رئيس في بيان التصوير الفني والظلال الوجدانية للآيات، وإبراز أثرها النفسي والتربوي.
5التحرير والتنوير ابن عاشور يُستفاد منه –كما تقدم– في التحليل البلاغي العميق للمفردات و التراكيب.
6مفاتيح الغيب) التفسير الكبير (فخر الدين الرازي) ت606 هـ (موسوعة عقلية بلاغية، تُستفاد منه في تحليل المناسبات والحِكم ودقائق المعاني.

ثالثًا: المصادر في التربية وعلم النفس والتزكية

تضمّنت الدراسة تحليلات تربوية ونفسية وتزكوية؛ فاستندتْ في هذا الجانب إلى:
1إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي) ت505 هـ (مرجع أساسي في تزكية النفس وأمراض القلوب وعلاجها، وفي ربط المعاني الإيمانية بالسلوك.
2مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين الإمام ابن قيم الجوزية) ت751 هـ (مرجع

أصيل في علم السلوك ومنازل السائرين إلى الله، يُستفاد منه في بيان مقامات الشكر والصبر والإنابة.
3عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن قيم الجوزية مرجع متخصص في مفهومي الصبر والشكر اللذين تكرّر ذكرهما في سورة سبأ.
4القرآن أصل التربية وعلم النفس أحمد الفورتيه كتاب معاصر يُبرز الأصول القرآنية في التربية وعلم النفس.
5منهج التربية الإسلامية محمد قطب يُستفاد منه في استخلاص المنهج التربوي من الآيات وربطه ببناء الشخصية.
6مبادئ التربية النفسية في القرآن الكريم عزة بنت عابس الشهومي دراسة أكاديمية في استنباط المبادئ التربوية والنفسية من القرآن.

رابعًا: المصادر في الإعجاز العلمي والتاريخي

لمّا تضمّنت الدراسة إشارات إلى الإعجاز العلمي والتاريخي في قصة سبأ وغيرها، اعتمدتُ على:
1الإعجاز العلمي في القرآن والسنة موقع متخصص يُعنى ببيان أوجه الإعجاز العلمي في الآيات الكونية.
2قصة الحضارة ول ديورانت مصدر في قراءة التاريخ الحضاري، يُستفاد منه في مقارنة سنن قيام الحضارات وسقوطها.
3موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة مجموعة من الباحثين مرجع موسوعي في ربط الآيات الكونية بالحقائق العلمية المعاصرة.
4موقع ناشيونال جيوغرافيك العربية - مصدر في توثيق الاكتشافات الأثرية والظواهر الطبيعية.
5موقع BBC عربي - مصدر إخباري في توثيق الأحداث المعاصرة والكوارث الطبيعية.
6موقع الجزيرة نت - مصدر إخباري وتحليلي في ربط الآيات بالواقع المعاصر.

خامسًا: المصادر في التنمية البشرية وبناء الذات
استندتُ في استنباط التطبيقات العملية والتنموية من الآيات إلى:
1العادات السبع للناس الأكثر فعالية ستيفن كوفي مرجع في بناء الشخصية وتطوير الذات، استُفيد منه في صياغة التطبيقات العملية.
2قوة العادات تشارلز دويج يُستفاد منه في ربط مفاهيم التغيير السلوكي بالتوجيهات القرآنية.
3الذكاء العاطفي دانيال جولمان مرجع في فهم الجانب الوجداني من النفس البشرية وعلاقته بالإيمان.
4كيف تؤثر في الآخرين وتكسب الأصدقاء ديل كارنيجي يُستفاد منه في تحليل أساليب الحوار والإقناع في الآيات.
5فن التأثير والإقناع - مرجع في تحليل آليات الإقناع في الخطاب القرآني.
6الصّلابة النفسية - يُستفاد منه في بيان أثر الإيمان في تقوية النفس وثباتها.
7التفكير السريع والبطيء دانيال كانمان مرجع في تحليل أنماط التفكير البشري وربطها بتوجيهات القرآن للتفكر.
8غير حياتك في 30 يوم د .إبراهيم الفقي مرجع عملي في تطبيق مفاهيم التغيير الإيجابي المستمدة من القرآن.

سادسًا: المصادر في الفقه وأصوله

تضمّنت الدراسة إشارات إلى أحكام فقهية وقواعد أصولية؛ فاعتمدتُ على:

1أصول الفقه الإسلامي د .وهبة الزحيلي مرجع جامع في علم أصول الفقه، يُستفاد منه في تقرير القواعد الأصولية.
2الموافقات في أصول الشريعة أبو إسحاق الشاطبي) ت790 هـ (مرجع أصيل في علم المقاصد، يُستفاد منه في بيان مقاصد الآيات.
3الفقه الإسلامي وأدلته د .وهبة الزحيلي موسوعة فقهية جامعة، تُرجع إليها عند الحاجة إلى الأحكام الفقهية.
4القواعد الفقهية د .يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين مرجع في تقرير القواعد الفقهية الكلية المستنبطة من النصوص.

سابعًا: المصادر في الحديث النبوي وتخريجه

كل الأحاديث النبوية التي وردت في الدراسة تم توثيقها وتخريجها بالرجوع إلى:
1صحيح البخاري الإمام محمد بن إسماعيل البخاري) ت256 ه- (أصحّ الكتب بعد القرآن، يُعتمد عليه في الأحاديث الصحيحة.
2صحيح مسلم الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري) ت261 ه- (ثاني الصحيحين، يُعتمد عليه في الأ حاديث الصحيحة.
3سنن أبي داود الإمام أبو داود السجستاني) ت275 ه- (من كتب السنن الأربعة، يُرجع إليه في أحاديث الأحكام.
4جامع الترمذي الإمام أبو عيسى الترمذي) ت279 ه- (من كتب السنن، يُستفاد منه في أحاديث الفضائل والرقائق.
5سنن النسائي الإمام أحمد بن شعيب النسائي) ت303 ه- (من كتب السنن، يُرجع إليه في أحاديث ا لأحكام.
6سنن ابن ماجه الإمام محمد بن يزيد ابن ماجه) ت273 ه- (من كتب السنن، يُرجع إليه عند الحاجة.
7مسند الإمام أحمد الإمام أحمد بن حنبل) ت241 ه- (موسوعة حديثية جامعة، يُستفاد منها في الأ حاديث التي لا توجد في الكتب الستة.
8فتح الباري بشرح صحيح البخاري الحافظ ابن حجر العسقلاني) ت852 ه- (مرجع أساسي في شرح الأحاديث وبيان معانيها واستنباط الفوائد منها.

ثامنًا: المصادر في بناء المفاهيم والقيم

في جانب استخلاص المفاهيم والقيم وبناء الرؤية الحضارية، استندتُ إلى:
1مقومات التصور الإسلامي سيد قطب مرجع في بيان أصول التصور الإسلامي للوجود والحياة و القيم.
2خصائص التصور الإسلامي سيد قطب يُستفاد منه في تحديد السمات المميزة للرؤية الإسلامية.
3العدالة الاجتماعية في الإسلام سيد قطب مرجع في تحليل القيم الاجتماعية المستنبطة من الآيات.
4نحو مجتمع إسلامي د .يوسف القرضاوي يُستفاد منه في ربط المفاهيم القرآنية ببناء المجتمع.
5شروط النهضة مالك بن نبي مرجع في تحليل شروط النهضة الحضارية وربطها بالسنن القرآنية.
6مشكلة الثقافة مالك بن نبي يُستفاد منه في تحليل أثر الثقافة على تبني القيم والمفاهيم.

تاسعًا: المصادر الإلكترونية والمواقع المعتمدة

اعتمدتُ في البحث والتوثيق والمراجعة على المواقع العلمية الموثوقة الآتية:

اسم الموقع الرابط الإلكتروني وظيفته في الدراسة
1المكتبة الشاملة shamela.ws المرجع الأساس في الوصول إلى كتب التفسير والحديث والفقه و اللغة.
2موقع الدرر السنية dorar.net مرجع موثوق في الموسوعة الحديثية والتفسيرية والفقهية.
3موقع إسلام ويب islamweb.net مرجع شامل في الفتاوى والاستشارات والبحوث الشرعية.
4موقع الألوكة alukah.net مرجع في المقالات والبحوث العلمية الشرعية والتربوية.
5موقع إسلام أون لاين islamonline.net مرجع في القضايا المعاصرة وربطها بالإسلام.
6موقع قصة الإسلام islamstory.com مرجع في التاريخ الإسلامي وقصص الأنبياء والأمم.
7موقع موسوعة الإعجاز العلمي eajazcenter.com مرجع متخصص في الإعجاز العلمي في القرآن و السنة.
8موقع الباحث الحديثي sunnah.one مرجع للبحث عن الأحاديث وتخريجها ومعرفة درجتها.
9موقع نداء الإيمان al-eman.com مكتبة إسلامية شاملة تضم تفاسير وكتبًا تراثية.
10موقع طريق الإسلام ar.islamway.net مرجع في الخطب والدروس والمقالات والبحوث الشرعية.

عاشرًا: المصادر اللغوية والمعجمية

لتحليل دلالات الألفاظ والتراكيب، اعتمدتُ على:
1معجم مقاييس اللغة أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا) ت395 ه- (مرجع أصيل في بيان أصول معاني الألفاظ واشتقاقاتها.
2المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني) ت502 ه- (مرجع أساس في بيان دلالات الألفاظ القرآنية بدقة.

3لسان العرب ابن منظور) ت711 هـ (موسوعة لغوية جامعة، يُرجع إليها عند الحاجة.
4أساس البلاغة الزمخشري مرجع في بيان المعاني البلاغية للمفردات والتراكيب.

حادي عشر: مصادر في مناهج البحث والدراسات القرآنية

استندتُ في المنهجية العامة للدراسة إلى:
1مناهج البحث في علوم القرآن د .مساعد الطيار مرجع في ضبط منهجية التعامل مع النص القرآني تفسيرًا وتدبرًا.
2التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم مجموعة من الباحثين مرجع في بيان الوحدة الموضوعية للسورة ومقاصدها الكلية.
3نظم الدرر في تناسب الآي والسور برهان الدين البقاعي) ت885 هـ (مرجع في بيان المناسبات بين الآيات والسور.

ثاني عشر: ملحق بأبرز الأحاديث النبوية الواردة في الدراسة

حرصًا على توثيق المرويات النبوية، أورد فيما يأتي أبرز الأحاديث التي تم الاستشهاد بها، مع تخريجها:

الحديث مصدره
1حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه:» يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد «...صحيح البخاري (2856)، صحيح مسلم(30)
2حديث:» إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده «صحيح البخاري(2072)
3حديث:» اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع «...صحيح مسلم(2722)
4حديث:» كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة «سنن أبي داود(3235) ، وصححه الألباني
5حديث:» لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق «مسند أحمد(1095) ، وصححه الألباني
6حديث:» إن الله ليعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب «...مسند أحمد(366) ، وصححه الألباني
7حديث:» يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم «...سنن الترمذي(2353) ، وقال: حسن صحيح
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش العامري

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة ختامية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أُنزل عليه القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فها نحن نطوي الصفحة الأخيرة من رحلتنا التدبرية في رحاب سورة سبأ، رحلة لم تكن تقليدية في مسارب التفسير، بل كانت محاولة متواضعة لإنزال معاني القرآن من علياء التنظير إلى ميدان التطبيق ، ومن زوايا التأمل العقلي المجرد إلى أعماق التفاعل الوجداني الحي.

لقد طفنا معًا في بساتين هذه السورة العظيمة، فوقفنا على:

· عظمة المُلك الإلهي الذي يملأ القلب هيبة وإجلالًا.
· إحاطة العلم الرباني التي تزرع الطمأنينة وتُذهب القلق.
· حتمية البعث والجزاء التي تجعل من كل لحظة في حياتنا استثمارًا للآخرة.
· نماذج الشاكرين) داود وسليمان عليهما السلام (وكيف جمعوا بين إتقان الصنعة وخشوع المحراب.
· مشاهد الكافرين) سبأ وإبليس والمترفين (وكيف أوردهم البطر والكفران موارد الهلاك.
· أدوات المحاجّة القرآنية التي تعلمنا كيف نواجه الباطل بالحجة والإنصاف لا بالانفعال والغضب.
· نداء التفكر الذي حرر العقل من أسر التقليد، ودعاه إلى الاستقلال في طلب الحقيقة.

ولعل أعظم ثمرة خرجنا بها من هذه الرحلة هي إدراك أن القرآن ليس كتابًا يُتلى للتبرك فحسب، بل هو رسائل حية موجهة إلى كل واحد منا، تعالج أدواءنا، وتجيب عن تساؤلاتنا، وترسم لنا طريق النجاة في زمن كثرت فيه الفتن وتشعبت.

رساله شكر وعرفان

في ختام هذه الرحلة المباركة، لا يسعني إلا أن أتوجه بوافر الشكر والامتنان إلى قامة علمية جليلة، ورجل من رجال الفضل الذين سخروا علمهم ووقتهم لخدمة كتاب الله، ألا وهو:

الأستاذ القدير/ منير عبده عثمان الصلوى

الذي تفضل مشكورًا بمراجعة هذا الكتاب مراجعة وافية، لم تقتصر على جانب واحد، بل شملت أبعادًا ثلاثة هي عماد أي عمل علمي محكم:

أولًا: المراجعة اللغوية
حيث صوّب بقلمه الخبير ما شاب النص من هفوات، وصقل العبارة حتى جاءت سلسة واضحة، ترتقي إلى جلال الموضوع الذي تعالجه، وتليق بمقام القرآن الذي تنهل منه.

ثانيًا: المراجعة الفنية
حيث أعاد النظر في هيكل الكتاب وتبويباته، وأحسن ترتيب مباحثه، وضبط تسلسل أفكاره، ليخرج في حلة قشيبة يسهل على القارئ متابعتها، وتنطبع معانيها في ذهنه ووجدانه.

ثالثًا: المراجعة الموضوعية
وهي من أشق المهام وأدقها، حيث تصدى مشكورًا لتمحيص المضامين، وتدقيق الاستدلالات، وتقويم التفسيرات، حرصًا على أن يكون كل حرف في هذا الكتاب موافقًا لصحيح المعتقد، مستندًا إلى أصول التفسير المعتمدة.

وإني إذ أقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام، لأشعر بالامتنان العميق لهذا الجهد المضني الذي بذله أستاذنا الفاضل، والذي لولاه بعد توفيق الله ما خرج هذا العمل بهذه الصورة التي هو عليها .فقد كان عينًا فاحصة، وقلبًا ناصحًا، وعقلًا ناقدًا، وقلمًا مصلحًا.

جزاه الله عني وعن كل قارئ ينتفع بهذا الكتاب خير الجزاء، وبارك في عمره وعمله، وجعل ما بذله من وقت وجهد في ميزان حسناته يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب

سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، والذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.
احمد عبد الرزاق مربوش العامري